@ketab_n
Follow Me
28.12.2015

سلافوي جيجك

# بداية كمأساة
# وأخرى كمهزلة

ترجمة
أماني لازار

للثقافة والنشر والإعلام

سلافوي جيجك

# بداية كمأساة
# وأخرى كمهزلة

ترجمة

أماني لازار

للثقافة والنشر والإعلام

Twitter: @ketab_n

سلافوي جيجك: بداية كماساة وأخرى كمهزلة

Twitter: @ketab_n

Book:bedaya kamaasat wa okhra kamahzala

الكتاب: بداية كماساة وأخرى كمهزلة

**Slavoj Zizek**

ترجمة: أماني لازار

Translated By: Amani lazar

First Edition: 2015

الطبعة الأولى ٢٠١٥

All rights reserved

حقوق الطبع محفوظة ©

للثقافة والنشر والإعلام

طوى للثقافة والنشر والإعلام ـ لندن

TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED

19 TANFIELD AVENUE, LONDON, NW2, UNITED KINGDOM

Tel: 009662108111 - 00966505481425

Email: Tuwa.pub@gmail.com

التوزيع: منشورات الجمل

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ـ ٠١ ـ ٣٥٣٣٠٤

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

ISBN 978-9933-35-230-1

All rights reserved. Except for brief quotations in a review, this book or any part thereof, may not be reproduced, stored in or introduced into a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior written permission of the publisher.

Twitter: @ketab_n

# تقديم

## دروس العقد الأوّل

القصد من عنوان هذا الكتاب أن يكون اختباراً أوليّاً لذكاء القارئ ولا سيّما إذا ما استدعى الانطباع الأوّل الكليشيه (cliché) الدارجة المعادية للشّيوعية «أنت على حق اليوم، بعد مأساة شمولية القرن العشرين لا يمكن لأي كلام عن العودة إلى الشيوعية إلا أن يكون هزليّاً!»، ثم إني أنصحك بصدق أن تتوقّف هنا، يجب مصادرة الكتاب منك بالقوة؛ لأنّه يتعامل مع مأساة ومهزلة مختلفتين كليّاً، تحديداً الحدثان اللذان يشيران إلى بداية ونهاية العقد الأوّل من القرن الحادي والعشرين: هجمات ١١ أيلول ٢٠٠١ والانهيار المالي في عام ٢٠٠٨.

علينا أن نلحظ التشابه في لغة الرئيس بوش في خطاباته للشّعب الأمريكي بعد ٩/ ١١ وبعد الانهيار المالي؛ بدا كلّ من الخطابين كما لو أنّهما نسختان من خطابٍ واحدٍ إلى حدّ بعيد، استحضر في المرتين التهديد لأسلوب الحياة الأمريكيّة والحاجة إلى القيام بتحركٍ سريعٍ وحاسمٍ للتغلب على الخطر، وقد دعا في المرتين

Twitter: @ketab_n

إلى تعليق جزئي للقيم الأمريكية (ضمانات الحرية الفردية، السوق الرأسمالية) رغبةً في إنقاذ هذه القيم نفسها تحديداً. من أين يأتي هذا التّشابه؟

بدأ ماركس كتابه الثامن عشر من برومير بتصحيح لفكرة هيجل عن أنّ التّاريخ يعيد نفسه: أشار هيجل في مكان ما بأنّ كل الأحداث العظيمة والشخصيات في تاريخ العالم تحدث وتتكرّر مرتين، على سبيل المثال نسي أن يضيف: المرة الأولى كمأساة، والثانية كمهزلة»[1]. هذه الإضافة على مفهوم هيجل عن التكرار التاريخي كانت الصورة البلاغية التي طاردت ماركس منذ سنوات ونجدها في «مقالة في نقد فلسفة هيجل عن الحق»؛ إذ شخّص تدهور النظام الألماني القديم ancien regime في ثلاثينيّات وأربعينيّات القرن التاسع عشر كتكرار هزلي للمأساة التي وقعت على النظام الفرنسي القديم: ancien regime.

من المفيد للأمم الحديثة أن ترى النظام القديم ancient regime ـ الذي جرّب مأساته في بلادها ـ يلعب دوره الهزليّ كشبح ألماني، كان تاريخه مأساوياً عندما كان القوّة السابقة في العالم وحرية نزوة شخصية، طالما آمن ـ وكان لا بدّ أن يؤمن ـ بامتيازاته الخاصة، وبوصفه نظاماً عالمياً مؤسساً، كان يكافح ضد عالم ينبثق لتوّه، هناك خطأ تاريخي عالمي من جانبه لكن ليس شخصيّاً؛ ولذلك كان سقوطه مأساويّاً.

---

(١) في استطلاعات من المنفى، كارل ماركس، لويس بونا بارت، تحرير وتقديم: من قبل ديفيد فيرنباخ، هارموندسورث: بنجوين ١٩٧٣، ص١٤٦.



Twitter: @ketab_n

إنّ النظام الألماني الحالي من جهة أخرى مفارقةٌ تاريخية، مخالفة فادحة للبديهيات المقبولة عالمياً، فقد عرضت عبثيّة النظام القديم على العالم بأسره ليرى بأنه لا يزال يؤمن بنفسه ويسأل العالم أن يشاركه أوهامه. إذا ما آمن بطبيعته، فهل سيحاول إخفاء تلك الطبيعة تحت مظهر طبيعة غريبة ويسعى لخلاصه من خلال النفاق والمغالطات؟ النظام القديم الحديث هو بالأحرى مجرّد مهرج لنظام عالمٍ أبطاله الحقيقون موتى، التّاريخ شامل ويمر بمراحل عديدة وهو يحمل الصيغة القديمة إلى قبرها، المظهر الأخير لشكل العالم التاريخي هو ملهاته؛ فالآلهة الإغريق الذين ماتوا قبلاً متأثرين بجراحهم في مأساة إسخيلوس «بروميثيوس المقيّد»، أجبروا على الموت موتاً ثانياً ـ هذه المرة هي هزليّة ـ في محاورات لوسيان. لماذا يسلك التاريخ هذا المسلك؟ وبذلك يمكن للبشرية أن تتخلى عن ماضيها بسعادة، نحن ندعو بهذا المصير التاريخي السعيد للسلطات السياسية في ألمانيا[1].

لاحظ التشخيص الدّقيق للنظام الألماني القديم بأنّه النظام الذي «يتخيّل بأنه لا يزال يؤمن بنفسه وحسب»، يمكن للمرء أيضاً التّأمل في معنى الحادثة، ذلك أن كيركيجارد نشر في الفترة نفسها فكرته عن أننا ـ نحن البشر ـ ليس بإمكاننا أن نكون واثقين أبداً من أنّنا نؤمن بشكل جوهريّ، نحن فقط «نؤمن بأنّنا نؤمن»، فصيغة

(١) مقالة لنقد فلسفة الحق عند هيجل، في كتابات مبكرة، كارل ماركس، تقديم: لوسيو كوليتي، هارمونسورث، بنجوين ١٩٧٥، ص ٢٤٧ ٨.



Twitter: @ketab_n

النظام الذي «يتخيّل فقط بأنه يؤمن بنفسه» تستولي بشكل مناسب على إلغاء السلطة التمثيلية (الفعاليّة الرّمزية) للأيديولوجيا الحاكمة، لم تعد وظائف فعّالة كهيكل أساسي للرابط الاجتماعي، وقد نتساءل: «ألسنا اليوم في الحالة نفسها؟ أليس وعّاظ اليوم وممارسو الديمقراطية الليبرالية أيضاً يتخيّلون فقط أنهم يؤمنون بأنفسهم فيما يتلفظون به في الواقع؟»، سيكون من المناسب أكثر شرح التّعبير الساخر المعاصر بأنّه يمثّل انقلاباً دقيقاً لصيغة ماركس: نحن اليوم فقط نتخيّل بأننا لا «نؤمن حقيقة» بأيديولوجيّتنا، وبالرّغم من هذه المسافة المتخيّلة نستمر في ممارستها، نحن لا نؤمن أقلّ لكن أكثر بكثير مما نتخيّل بأننا نؤمن. ولذلك كان بنيامين متبصراً في ملاحظته أنّ «كلّ شيء يعتمد على كيفيّة إيمان المرء بعقيدته»[1].

سقط جدار برلين قبل إحدى عشرة سنة من ٩/١١ في تشرين الثاني ١٩٨٩/٩، بدا هذا الحدث كأنّه إعلان عن بداية «التسعينيّات السعيدة» يوتوبيا فرانسيس فوكوياما عن «نهاية التاريخ»، الإيمان بأن الليبرالية الديمقراطية فازت في المبدأ، ذلك أنّ حلول المجتمع الليبرالي الشامل كانت قاب قوسين أو أدنى، وتلك العقبات لهذه النهاية الهوليوديّة كانت تجريبية فحسب ومشروطة (جيوب محلية من المقاومين الذين لم يستوعب قادتهم بعد بأن زمنهم قد مضى)، على العكس فالحادي عشر من أيلول رمز لنهاية الفترة الكلينتونيّة، وأعلن عن عهد كانت تُرى فيه ظهور جدران جديدة في كل مكان؛

---

(١) فالتر بنيامين، gesammelte briefe, vol 1, Frankfurt: suhrkamp verlag 1995, p182.



Twitter: @ketab_n

بين إسرائيل والضفة الغربية، حول الاتّحاد الأوربي، على طول الحدود الأمريكية المكسيكية، وأيضاً بين ولايات الدولة نفسها.

في مقالة في صحيفة نيوز ويك Newsweek، وصفت كل من إميلي فلين فينكات وجينان برونيل كيف أنه حالياً تنتشر ظاهرة الأعضاء فقط في كل أساليب الحياة محيطة بكل شيء بدءاً من الشروط المصرفية الخاصّة إلى عيادات الصحة للمدعوين فقط... هؤلاء الذين يقفلون بالمال بشكل متصاعد حياتهم كاملة خلف أبواب موصده، علاوة على حضور الأحداث الإعلامية الضخمة، يرتبون لحفلات موسيقية خاصة، وعروض أزياء ومعارض فنية في بيوتهم، يتسوّقون لساعات، ولديهم جيران وأصدقاء مخفيّون موثوقو الطبقة والسيولة النقدية.

تنشأ الطبقة العالمية الجديدة هكذا «مع النقل، جواز سفر هندي، قلعة في اسكتلندة، قطعة أرض في مانهاتن وجزيرة خاصة في الكاريبي»، تكمن المفارقة في أن أعضاء هذه الطبقة العالمية «يتناولون وجباتهم في الخفاء، يتسوّقون سراً، يرون الفنون سراً، كل شيء في السر، سراً، سراً». هم هكذا يخلقون حياتهم العالمية الخاصة لحل مشكلتهم المضنية التفسير، كما قال تود ميلي: «لا يمكن للعائلات الغنية دعوة الناس ببساطة، وأن تنتظر منهم أن يفهموا ماذا يعني أن تملك ٣٠٠ مليون دولار» فما هي اتصالاتهم بالعالم الواسع؟ إنها تأتي في صيغتين: أعمال وإنسانيات (حماية البيئة، محاربة الأمراض، دعم الفنون.. إلخ.) هؤلاء المواطنون


Twitter: @ketab_n

العالميون يعيشون حياتهم غالباً في طبيعة نظيفة جداً سواء في رحلة على عربة ثيران في باتاغونيا أو السباحة في المياه الشفافة تقريباً في جزرهم الخاصة، لا يستطيع المرء إلا أن يلاحظ واحدة من الميزات الأساسية لحال هؤلاء المصنفين أثرى الأثرياء وهي الخوف من الحياة الخارجية الاجتماعية نفسها، أهم الأولويّات لـ« شبكة الأفراد الفائقي الثراء» هي كيفية تقليل الأخطار الأمنية، الأمراض، التعرض لتهديدات جريمة العنف.. إلخ[1].

بنى محدثو النعمة في الصين المعاصرة مجتمعاتٍ معزولةً مشكّلةً على هيئة المناطق الغربية المثالية «النمطية»، هناك على سبيل المثال بالقرب من شنغهاي نسخة مطابقة «حقيقية» عن بلدة إنجليزيّة صغيرة بما فيها الشارع الرئيس بحاناته، وكنيسة إنجيلية، ومحلات سينسبوري... إلخ، المنطقة كلّها معزولة عمّا حولها بقبّةٍ غير مرئية لكنها لا تقلّ واقعية، لم يعد هناك تسلسل هرمي للمجموعات الاجتماعية في الأمة نفسها، يعيش سكان هذه المنطقة في العالم من خلال أيديولوجيّتهم المتخيّلة، «الطبقة السفلى» المحيطة بالعالم ببساطة ليست موجودة، أليس هؤلاء «المواطنون العالميون» الذين يعيشون في مناطق منعزلة هم القطب المقابل الحقيقيّ لهؤلاء الذين يعيشون في أحياء الفقراء و«بقع بيضاء»[2] أخرى من الجو العام؟ هم فعليّاً وجهان لعملة واحدة، نهايتان لطبقتين جديدتين

---

(١) آه، الحياة المعزولة، إميلي فلين فينكات وجنان برونيل، النيوزويك، ١٠ كانون الأول، ٢٠٠٧.

(٢) متلازمة البقع البيضاء: عدوى فيروسية.



Twitter: @ketab_n

منقسمتين، المدينة التي تجسد أفضل تجسيد ذلك الانقسام هي ساو باولو في برازيل لولاّ، التي تتباهى ب ٢٥٠ مهبط لطيارة هيلوكوبتر في منطقة مركز المدينة، يفضّل أغنياء ساو باولو استعمال طائرات الهيلوكوبتر لعزل أنفسهم عن أخطار الاختلاط بالناس العاديين؛ لذا يشعر المرء إذا نظر إلى سماء المدينة كأنه في مدينة كبيرة مستقبليّة من النوع الذي صُوّر في أفلام مثل blade runner[١] أو the fifth element[٢]، ففي الوقت الذي يتجمع فيه الناس العاديون في الشوارع الخطرة في الأسفل يكون الأغنياء محلقين في أعلى مستوى في الهواء.

وهكذا يبدو بأن يوتوبيا فوكوياما عن التسعينيّات قد ماتت مرتين، طالما أن انهيار اليوتوبيا السياسية الديمقراطية الليبرالية في ٩/١١ لم يؤثر على اليوتوبيا الاقتصادية للسوق الرأسمالية العالمية، إذا ما كان الانهيار المالي عام ٢٠٠٨ قد حصل على معناه التاريخي فهذه إشارة إلى نهاية الوجه الاقتصادي لحلم فوكوياما الذي يعيدنا لما صاغه ماركس مجدداً عن هيجل: ينبغي على المرء أن يذكر أن هربرت ماركيوز[٣] ـ في مقدمته للإصدار الجديد من «الثامن عشر من برومير» عام ١٩٦٠ ـ دق مسماراً آخر في النعش، يمكن أحياناً للتكرار في مظهره الهزلي أن يكون أكثر إفزاعاً من المأساة الأصلية.

---

(١) Blade runner فيلم من إخراج ريدلي سكوت عام ١٩٨٢.

(٢) العنصر الخامس فيلم من إخراج لوك بيسون عام ١٩٩٧.

(٣) هربرت ماركيوز: (١٨٩٨-١٩٧٩) فيلسوف وعالم اجتماع ومنظر سياسي ألماني أميركي.



Twitter: @ketab_n

ينطلق هذا الكتاب من الأزمة الحالية كبداية، ثمّ ينتقل تدريجياً إلى «مسائل متعلقة» عن طريق كشف ظروفها وعلاقاتها؛ يقدم الفصل الأول تحليلاً لمأزقنا بتلخيص الجوهر اليوتوبي للأيديولوجيا الرأسمالية التي حددت كل من الأزمة نفسها وتصوراتنا لردود الأفعال عليها، ويسعى الفصل الثاني لتحديد سمات حالتنا التي تفتح الفضاء على صيغ جديدة من التطبيقات العملية الشيوعية.

لا يقدم الكتاب تحليلات حيادية بل تحليلات متورطة و«منحازة» جداً؛ لأن الحقيقة منحازة لا يسهل الوصول إليها إلا عندما يأخذ المرء جانباً، وهي لا تقل عالمية؛ لهذا السبب فالجانب المتخذ هنا هو جانب الشيوعية. بدأ أدورنو[1] دراساته الثلاثة عن هيجل بإعادة السؤال التقليدي عن مثاليّة هيجل بعنوان كتاب بينيديتو كروتشيه[2]، ما الحياة وما الموت في فلسفة هيجل؟ يفترض مثل هذا السؤال من جانب الكاتب تبني موقفاً متغطرساً محاكماً للماضي، لكن عندما نتعامل مع فيلسوف عظيم، يكون السؤال الحقيقي الذي يثير القلق ليس ما قد يبقى من أقواله، وما يمكن أن يعنيه بالنسبة إلينا، لكنه بالأحرى عكس ذلك؛ أي ما نحن؟ ما يمكن أن تكون عليه حالتنا المعاصرة في عينيه، كيف يظهر عصرنا في أفكاره؟ والشيء نفسه يجب أن يُطبّق على الشيوعية بدلاً من طرح السؤال الواضح «هل ما تزال فكرة الشيوعية موضوعية

(١) تيودور أدورنو: (١٩٠٣-١٩٦٩) فيلسوف وعالم اجتماع ألماني، عُرف بنظريته النقديّة للمجتمع، وكان قيادياً في مدرسة فرانكفورت.

(٢) بينيديتو كروتشي: (١٨٦٦-١٩٥٢) فيلسوف إيطالي.



Twitter: @ketab_n

اليوم؟، وهل من الممكن استعمالها بوصفها أداة للتحليل والاختبار السياسي؟»، على المرء أن يسأل السؤال المعاكس: «كيف تبدو مآزقنا اليوم من وجهة نظر الفكرة الشيوعية؟»، هنا يكمن جدل القديم والحديث في هؤلاء الذين يقترحون خلقاً متواصلاً لمصطلحات جديدة: «المجتمع ما بعد الحداثي»، «مجتمع الخطر»، «المجتمع المعلوماتي»، «المجتمع ما بعد الصناعي»... الخ، ولاستيعاب ما يجري اليوم من نقص الإحاطة بما هو جديد لا بدّ من تحليل العالم عبر عدسات ما كان «خالداً» في القديم. إذا كانت الشيوعية فكرة «خالدة»، فهي تعمل كالشمولية الهيجيلية الصلبة، إنها خالدة ليس بمعنى سلاسل من معالم عالمية مجردة يمكن أن تطبق في أي مكان، لكن بمعنى ذلك الذي وجبت إعادة اختراعه في كل حالة تاريخية.

في زمن الاشتراكية الوجودية الحقيقية، انتشرت نكتة بين المنشقّين استُعملت لتبيّن عبثية احتجاجاتهم، في القرن الخامس عشر عندما احتلت روسيا من لدن المغول، كان هنالك فلاح وزوجته يمشيان على طريق ريفي مغبر، توقف محارب مغولي على حصان بمحاذاتهما، وقال للفلاح بأنه سيشرع باغتصاب زوجته، وأضاف: «لكن لأن هناك الكثير من الغبار على الأرض عليك أن تمسك خصيتي بينما اغتصب زوجتك حتى لا تتلوثا»، ولما أنهى المغولي صنيعه وغادر، بدأ الفلاح بالضحك والقفز فرحاً، سألته زوجته المندهشة: «كيف لك أن تقفز فرحاً وأنا للتوّ قد اغتصبت بوحشية في حضرتك؟» أجاب المزارع: «لكني نلت منه، كسا


Twitter: @ketab_n

خصيتيه الغبار!»، هذه النكتة الحزينة تُظهر مأزق المنشقيّن؛ إذ فكروا أنهم كانوا يوجهون ضربات قاسية لحزب طبقة نخبة الشيوعيين، لكن كل ما كانوا يفعلونه كان تلويثاً تافهاً لخصى هذا الحزب بينما واصلت النخبة الحاكمة اغتصاب الناس.

أليس اليسار النقدي اليوم في وضعية مشابهة؟ بين أسماء معاصرة تلطخ على نحو تافه هؤلاء الذين في السلطة، نستطيع أن نسجل «الانتقاد» أو «حماية الحريات الشخصية» سحر ميجيل دو اونامونو[1] في مواجهة شهيرة في جامعة سالامانكا عام ١٩٣٦ أتباع فرانكو: («vencereis, pero no convencereis» «ستربحون، لكن لن تقتنعوا»)، هل هذا كل ما يمكن لليسار أن يقوله للرأسمالية العالمية المنتصرة اليوم؟ هل قُدّر لليسار أن يواصل لعب دور هؤلاء الذين ـ على العكس ـ يقتنعون لكن دائماً يبقون خاسرين؟ وهل الاقتناع ـ بشكل خاص ـ يشرح رجعياً أسباب فشلهم؟ مهمّتنا اكتشاف كيفية المُضي خطوة إلى الأمام، فرضياتنا يجب أن تكون في مجتمعاتنا، حقّق يساريون نقديون حتى الآن نجاحاً فقط في نفي الذين في السلطة، بينما كان الهدف الحقيقي هو القضاء عليهم.

لكن كيف نستطيع فعل ذلك؟ علينا التعلم من فشل السياسات اليسارية في القرن العشرين، ليست المهمة إجراء الإقصاء في مواجهة مباشرة مناخية، بل عن طريق تقويض هؤلاء الذين في

(١) ميغيل دو اونامونو (١٨٦٤-١٩٣٦): كاتب روائي وفيلسوف إسباني.



Twitter: @ketab_n

السلطة بعمل نقدي أيديولوجي متأنٍ، فبالرغم من أنهم لا يزالون في السلطة، إلا أن المرء يلاحظ بشكل مفاجئ أن السلطات مبتلاة بأصوات عالية النبرة مصطنعة، وبالعودة إلى عام ١٩٦٠نجد أن لاكان قد سمّى دوريته الغير منتظمة الصدور ـ التي لم تعش طويلاً ـ على اسم مدرسته scilicet، لم يكن المعنى السائد للكلمة اليوم هو الرسالة «بالتحديد»، «يدرك»، «بمعنى آخر»، لكن المقصود حرفياً هو «مسموح له أن يعلم». (يعلم ماذا؟ ما تفكر مدرسة فرويد في باريس عن اللاوعي...) اليوم يجب أن تكون رسالتنا الشيء نفسه، أن تسمح بأخذ العلم والارتباط الكامل بالشيوعية للتحرك ثانية وبإخلاص تام للفكرة الشيوعية.

إنّ الليبرالية الإباحية هي توخّي ما معناه «مسموح أن ترى»، لكن ما هو ساحر جداً في المجون الذي سُمح لنا بمشاهدته يمنعنا من معرفة ما نراه، ومغزى القصة هو أن زمن الابتزاز الأخلاقي لليبرالية الديمقراطية قد انتهى، ولم يعد علينا الاستمرار بالاعتذار، في حين يتوجب على الجانب الآخر البدء عاجلاً.


Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

## الفصل الأوّل

# إنها الأيديولوجيا، يا مغفل!

## ١ ـ الاشتراكية أو الرأسمالية؟

الشيء الوحيد المفاجئ حقاً فيما يتعلق بالانهيار المالي في عام ٢٠٠٨[١] هو السهولة التي تم بها تقبّل الفكرة التي اجتاحت الأسواق على غفلة مذكرةً بالاحتجاجات التي رافقت بانتظام خلال العقد الأول من الألفية الجديدة جلسات IMF[٢] والبنك الدولي؛ إذ لم تقتصر شكاوى المحتجين فقط على العناوين المعتادة المناهضة للعولمة (الاستغلال المتزايد لبلدان العالم الثالث)، وإنما طالت أيضاً البنوك التي تخلق وهم النمو باللعب بالنقود الوهمية، وكيف أن هذا من شأنه أن ينتهي إلى انهيار.

لم يقتصر الأمر على الاقتصاديين مثل بول كروجمان[٣]

---

(١) كما عرفت بالأزمة المالية العالمية وعُدّت أسوأ أزمة مالية منذ الاكتئاب العظيم في عام ١٩٣٠.

(٢) صندوق النقد الدولي.

(٣) بول كروجمان: اقتصادي أمريكي، ولد في ٢٨/ ٢/ ١٩٥٣.



Twitter: @ketab_n

وجوزيف ستيجليتز[1] اللذين حذّرا من أخطار وشيكة، ووضّحا أن الذين وعدوا بالنمو المستمر لم يفهموا ما كان يجري تحت أنوفهم. تظاهر الكثير من الناس في واشنطن في عام ٢٠٠٤ بصدد خطر الانهيار المالي، وحشدت الشرطة ٨٠٠٠ رجلاً إضافياً من رجال الشرطة المحلية وجلبت أيضاً ٦٠٠٠ من ميريلاند وفرجينيا[2]. أعقب ذلك الغاز المسيّل للدموع والضرب بالهراوات وتوقيفات جماعية للكثيرين، مما اضطر الشرطة إلى استخدام الحافلات للنقل، كانت الرسالة واضحة ومدوية، والشرطة قد استُخدمت حرفياً لخنق الحقيقة.

بعد هذا الجهد المتواصل من التجاهل المتعمد، وبعد انتهاء الأزمة أخيراً ليس عجباً أن يصف أحد المشاركين: «ما من أحد علم ما يتوجب فعله»، والسبب في ذلك أن التوقعات هي جزء من اللعبة، الكيفية التي سيستجيب السوق بها لا تعتمد فقط على مدى ثقة الناس بهذا التدخل أو ذاك، لكن حتى بدرجة أكبر على مدى اعتقادهم بأن الآخرين سيثقون بهم، لا يمكن للمرء الأخذ بالحسبان آثار خيارات الشخص نفسه، منذ وقت مضى قدّم جون مايناردكينز[3] لهذه المرجعية الذاتية بشكل لطيف عندما قارن سوق

---

(١) جوزيف ستيجلز: اقتصادي أمريكي وأستاذ في جامعة كولومبيا ولد في ٩/ ٢/ ١٩٤٣.

(٢) واشنطن، ميريلاند وفيرجينيا ولايات أمريكية.

(٣) جون مايناردكينز(١٨٨٣-١٩٤٣): اقتصادي بريطاني.



Twitter: @ketab_n

الأوراق المالية بمنافسة تافهة على المشتركين فيها انتقاء عدة فتيات جميلات من بين مئات الصور، والفائز هو الشخص الذي اختار فتيات أقرب إلى الرأي المعتدل: «ليست قضية اختيار أولئك اللواتي ـ باعتبار أفضل ما يحكم به المرء ـ هنَّ حقيقة الأجمل، ولا حتى أولئك اللواتي يعتقد الرأي المتوسط أنهن الأجمل بصدق، وصلنا إلى الدرجة الثالثة حيث كرسنا ذكاءنا لترقب ما يتوقعه الرأي المتوسط لِما سيكون عليه الرأي المتوسط»[١]؛ لذا فنحن مجبرون على الاختيار من دون أن نملك ـ عند تصرفنا ـ المعرفة التي ستسمح باختيار مؤهل، أو كما وصفه جون جراي[٢]: «نحن مجبرون على العيش كما لو كنا أحراراً»[٣].

كتب جوزيف ستيجليتز في ذروة الانهيار، بأنه بالرغم من تنامي الإجماع بين الاقتصاديين بأن أي كفالة تعتمد على خطة أمين سر الخزينة الأميركي هنري بولسون لن تنجح، من المستحيل أن يقف السياسيون مكتوفي الأيدي في مثل هذه الأزمة، ربما علينا أن نصلي كي يتمكن الاتفاق المبرم بين المزيج السامي المكوّن من مصالح خاصة واقتصاديين مضللين وأيديولوجيين من الجناح

---

(١) النظرية العامة للتوظيف: المصالح والمال، جون مايارد كينز، نيويورك: management laboratory press، ٢٠٠٩، الفصل ١٢.

(٢) جون نيكولاس جراي: سياسي وفيلسوف إنجليزي.

(٣) كلاب القش، جون جراي، نيويورك: farrar straus and giroux ٢٠٠٧، الصفحة ١١٠.



Twitter: @ketab_n

اليميني الذي أنتج الأزمة بطريقة ما من إنتاج خطة نجاة تنجح، أو ألا ينتج فشلها خراباً كبيراً[1].

هو على حق؛ إذ إن الأسواق تعتمد بشكل فعّال على المعتقدات (حتى على معتقدات الآخرين)؛ لذا فعندما تقلق وسائل الإعلام بشأن «كيف سيكون رد فعل الأسواق» تجاه الكفالة، فإن السؤال ليس حول حقيقة ظروفها فقط، لكن حول معتقد الأسواق بالنسبة إلى فعالية الخطة، لهذا السبب يمكن للكفالة أن تنجح حتى لو تم توجيهها بشكل خاطئ اقتصادياً[2].

الضغط «لفعل شيء ما»، مثل الاضطرار الخرافي للقيام بإيماءة ما ونحن نراقب عمليةً ليس لنا عليها أي تأثير. أليست تحركاتنا هي تلك الإيماءات؟، يقول المسنون «لا تتكلم فقط، افعل شيئاً!» واحدة من أكثر الأشياء حماقة التي يمكن للمرء أن يقولها، حتى لو قيست بأخفض المعايير الشائعة، ربما المشكلة الأخيرة هي أننا فعلنا الكثير؛ مثل التدخل في الطبيعة، وتدمير البيئة..إلخ، ربما حان الوقت للتراجع والتفكير وقول الشيء المناسب. في الحقيقة نحن كثيراً ما نتحدث عن شيء ما بدلاً من فعله، لكن أيضاً نحن أحياناً نفعل أشياء رغبةً في تجاوز التفكير والحديث عنها؛ مثل

---

(١) إدارة بوش ربما تنقذ وول ستريت، لكن ماذا بشأن الاقتصاد؟، جوزيف ستيجلينز، الجارديان، ٢٠٠٨/٩/٣٠.

(٢) طالما أننا نعيد مراراً وتكراراً بأن الثقة والمعتقد حاسمان، علينا أيضاً أن نسأل إلى أي مدى أدى رفع الإدارة المذعور للحصص إلى إنتاج الخطر ذاته الذي كانت تحاربه.



Twitter: @ketab_n

صرف ٧٠٠ بليون $ على مشكلة، بدلاً من التفكير في كيفية نشوئها في المقام الأوّل.

في الارتباك المستمر، هناك بالتأكيد مادة كافية تجعلنا نفكر بالأشياء من خلالها، هاجم السيناتور الجمهوري جيم بانينج[١] في ١٥ يوليو ٢٠٠٨م، رئيس المجلس الاتحادي الاحتياطي بين بيرنانك[٢]، مدعياً أن اقتراحه أظهر كيف أن «الاشتراكية حيةً وتنجح في أمريكا»: «الآن يرغب المجلس في أن يكون منظِّماً للمخاطر النظامية. لكن المجلس هو الخطر النظامي، إعطاء المجلس سلطة أكبر مثل إعطاء ابن الجيران الذي كسر نافذتك وهو يلعب البيسبول في الشارع مضرباً أكبر معتقداً بأن هذا سيحل المشكلة»[٣]، في ٢٣ أيلول هاجم ثانية مسمياً خطة الخزينة لأكبر كفالة مالية منذ الاكتئاب الكبير «غير أمريكية»:

شخص ما يجب أن يتحمل تلك الخسارات، يمكننا أن نجعل الناس الذين يتخذون قرارات سيئة أن يتحملوا نتائج تصرفاتهم، أو يمكننا توزيع الألم على الآخرين، وهذا بالضبط ما يجب على اقتراحات السكرتارية فعله أن تأخذ ألم وول ستريت وتوزعه على دافعي الضرائب، هذه الكفالة الهائلة ليست حلاً، إنها الاشتراكية المالية، وهي غير أمريكية.

---

(١) جيم بانينج: حيمس بول ديفيد لاعب بيسبول أمريكي سابق وسياسي.

(٢) بين شالوم بيرنانك: اقتصادي أمريكي.

(٣) انظر إدوارد هاريسون، «السيناتور بانينج يدين بيرنانك في جلسة مجلس الشيوخ»، متاح على الانترنت: www.creditwritedowns.com



Twitter: @ketab_n

كان بانينج أوّل من لخّص علناً ما يحيط بالحجج من وراء ثورة الحزب الجمهوري على خطة الكفالة التي بلغت ذروتها في رفض قرار المجلس الاتحادي في ٢٩ أيلول، يستحق الجدل نظرةً أكثر قرباً، لاحظ كيف أن مقاومة الجمهوريين لمشروع الكفالة كان مُصاغاً بتعابير «الصراع الطبقي»، وول ستريت مقابل مين ستريت، لماذا علينا مساعدة المسؤولين عن الأزمة في «وول ستريت»، بينما نطلب من حملة المراهنين العاديين في «مين ستريت» دفع الثمن؟ أليست هذه حالة واضحة مما يدعوه المنظرون الاقتصاديون «خطراً معنوياً» مُعرّفاً على أنه «الخطر الذي سيسلكه شخص ما بشكل غير أخلاقي بسبب التأمين، أو القانون، أو وكالة ما أخرى سوف تحميه ضد أي خسارة قد يتسبب بها سلوكه»؟ إذا ما كنت مؤمِّناً ضد النار، فسأتّخذ بعض الوسائل الوقائية منها، أو في أقصى الدرجات سأضع النار على كامل تأميني ما عدا المباني المحدثة، ينطبق الأمر نفسه على البنوك الكبرى، هل هي غير محميّة ضد الخسارات الكبرى وقابلة للحفاظ على أرباحها؟ ليس مُستغرباً أن يكتب مايكل مور[١] رسالة للعامة يشجب فيها خطة الكفالة بوصفها سرقة القرن.

إنه لتداخل غير متوقع بين وجهات نظر اليسار مع هؤلاء المحافظين الجمهوريين، هنا لا بدّ من وقفة للتفكّر، أي وجهتي نظر تتشاركان احتقارهما للمضاربين الكبار والمدراء المتحدين الذين استفادوا من القرارات الخطرة لكنهم محميون من الفشل

(١) مايكل مور: مخرج سينمائي، كاتب وناقد اجتماعي أمريكي.



Twitter: @ketab_n

«بالمظلات الذهبية»، هذا الأمر يستحضر المزحة السمجة من فيلم لوبيتش[1] أكون أو لا أكون، عندما سئل الضابط النازي المسؤول «عن مخيم تركيز» حول مخيمات التركيز الألمانية في بولونيا المحتلة، فأجاب ارهاردت باختصار: «نحن نقوم بالتركيز، والأقطاب تقوم بالتخييم»، الشيء نفسه غير محتمل بالنسبة إلى فضيحة إفلاس انرون[2] في كانون الثاني عام ٢٠٠٢ التي يمكن وصفها بنوع من التعليق الساخر على مفهوم المجتمع الخطر، آلاف الموظفين الذين خسروا أعمالهم ونجوا كانوا بالتأكيد عرضة للخطر لكن من دون أن يكون لديهم أي خيار حقيقي في القضية، بدا لهم الخطر كأنه قدر أعمى. على العكس من ذلك، فهؤلاء الذين كان لديهم بعض البصيرة حول الخطر انخرطوا، مثلهم مثل السلطة في التدخل في الحالة (تحديداً المدراء الكبار)، مقللين من أخطارهم من خلال تصريف أسهمهم والاختيار قبل الإفلاس، صحيح أننا نعيش في مجتمع الخيارات الخطرة، لكنه مجتمع يقوم فيه بعضهم بالاختيار بينما الآخرون يقومون بالخطر.

هل خطة الكفالة حقاً هي مقياس «اشتراكي» عندها، ولادة الدولة الاشتراكية في أمريكا؟ إذا كان كذلك، فإنه لشكل غريب جداً: المقياس «الاشتراكي» الذي لا يهدف أولاً لمساعدة الفقراء،

---

(١) ارنست لوبيتش (١٨٩٢-١٩٤٧): مخرج وممثل وكاتب سيناريو الماني أمريكي. و«أكون أو لا أكون» فيلم من إخراجه في العام ١٩٤٢.

(٢) فضيحة انرون كشف عنها في عام ٢٠٠١، وأدت إلى إفلاس شركة انرون وهي شركة الطاقة الأمريكية ومقرها في تكساس.



Twitter: @ketab_n

لكن الأغنياء، ليس هؤلاء الذين يستعيرون، بل المؤجرون. في أقصى حدود التهكم، إن جعل نظام البنوك اشتراكياً أمر مقبول عندما يخدم إنقاذ الرأسمالية. فالاشتراكية لا تعد سيئة عندما تخدم استقرار الرأسمالية. لاحظ التناظر مع الصين اليوم بالطريقة نفسها يستخدم الشيوعيون الصينيون الرأسمالية لفرض نظامهم «الاشتراكي»).

لكن ماذا لو أن «الخطر المعنوي» مكتوب في بناء الرأسمالية ذاته؟ هذا يعني أنه ما من طريقة لفصل الاثنين: في النظام الرأسمالي الرفاه في مين ستريت يعتمد على الازدهار في وول ستريت، وبينما يقوم مناصرو الجمهورية الذين قاوموا الكفالة بالأمر الخاطئ لأسباب محقة، يقوم أنصار الكفالة بالأمر الصحيح لأسباب خاطئة للتعبير عنه بمصطلحات أكثر تطوراً، العلاقة هنا ليست متعدية؛ فما هو جيد بالنسبة لوول ستريت ليس بالضرورة أن يكون جيداً لمين ستريت، لا يمكن لمين ستريت أن يزدهر إذا كان وول ستريت متوعكاً، هذا اللاتناظر يعطي الأفضلية لوول ستريت.

وفي استعادة للجدل المعياري «المقطَّر» ضد إعادة التوزيع العادل عبر مستويات عليا من الضرائب التصاعدية وغير ذلك، نجد أنه بدلاً من جعله الفقراء أكثر غنىً، قد أفقر الأغنياء بعيداً عن كونه ببساطة ضد التدخل، يعرض هذا الموقف في الحقيقة مثالاً دقيقاً جداً عن تدخل الدولة الاقتصادي، بالرغم من أننا جميعاً نرغب في جعل الفقراء أغنياء، إلا أنه نتيجة عكسية لمساعدتهم مباشرة طالما


Twitter: @ketab_n

أنهم ليسوا عناصر فاعلة ونشطة في المجتمع، النوع الوحيد من التدخل المطلوب هو الذي يجعل الأغنياء أكثر غنى، عندئذٍ ستفيض المنافع أتوماتيكياً من تلقاء ذاتها على الفقراء، هذا يأخذ شكل المعتقد أننا إذا رمينا قدراً كافياً من المال في وول ستريت فهو سوف يتقطر في مين ستريت لمساعدة العمال العاديين ومالكي البيوت. لذلك إذا ما رغبت في أن يملك الناس المال لبناء البيوت لا تعطهم إياه مباشرةً لكن أعطه إلى هؤلاء الذين سيقرضونهم المال، منطقياً هذا هو الطريق الوحيد لخلق ازدهار أصيل، عدا ذلك ستكون فقط الحالة التي توزع فيها الدولة الأموال للمحتاجين على نفقة صناع الثروة الحقيقيين.

ولذلك، فهؤلاء الذين بشروا بالحاجة إلى العودة من المضاربة المالية إلى «اقتصاد الواقع» لإنتاج أشياء ترضي حاجات الناس الحقيقية، فقدوا فكرة الرأسمالية ذاتها، الدفع الذاتي أو الدمج الذاتي للحلقة المالية هو أحد أبعاد الواقع، وعلى عكس واقعية الإنتاج. توضح هذا الغموض في الانهيار الأخير عندما تجاهلنا نداءات العودة إلى الاقتصاد الواقعي مسوغين ذلك بأن التوزيع المالي هو صوت النظام المالي شريان حياة اقتصادنا، أيّ شريان حياة هو ذلك الذي لا يكون جزءاً من الاقتصاد الواقعي؟ هل اقتصاد الواقع نفسه هو جسد بلا دم؟، ولهذا فالشعار الشعبي «أنقذوا مين ستريت، وليس وول ستريت» مضلل بشكل كلي، وشكل من أنقى أشكال الأيديولوجيا التي ترسخ حقيقة أنّ ما يُبقي


Twitter: @ketab_n

مين ستريت تحت هيمنة الرأسمالية هو وول ستريت!، مزقْ ذلك الوول وسوف يعمُّ مين ستريت الرعب والتضخم. جي سورمان[1]، أيديولوجي نموذجي للرأسمالية المعاصرة، وهو على حق أن ليس هناك اقتصاد جوهري للتمييز بين «الرأسمالية الافتراضية» و«الرأسمالية الواقعية» لا شيء واقعي أنتج من دون أن يكون ممّولاً حتى في زمن الأزمة المالية فاقت الأرباح العالمية للأسواق المالية الجديدة كلفتها»[2].

إن كلاً من الانهيار المالي والأزمة رسائل تذكير واضحة بأن دورة رأس المال ليست حلقة مغلقة يمكنها تغذية نفسها، ذلك يفترض بشكل مسبق واقعاً غائباً؛ إذ إن السلع الفعلية التي ترضي حاجات الناس أُنتجت وبِيعت، وعِبرتهما الأكثر تهذيباً هي أنه لا يمكن أن يكون هناك عودة لهذا الواقع «دعنا نعود من المكان المفترض للمضاربة المالية لأناس واقعيين ينتجون ويستهلكون». يكمن تناقض الرأسمالية في أنه لا يمكنك أن ترمي الماء القذر للمضاربة المالية بينما تحافظ على الطفل المعافى لاقتصاد الواقع.

إنه لمن السهل جداً صرف النظر عن هذا النوع من التفكير لما فيه من دفاع منافق للأغنياء. المشكلة هي أن هناك حقيقة تتخلل النظام الرأسمالي؛ فالتراجع عند وول ستريت سوف يؤذي العمال

---

(١) جي سورمان: مفكر وكاتب فرنسي يهتم بالفلسفة والاقتصاد.

(٢) انظر: فريق شخصياتنا المألوف، جي سورمان، صحيفة الوول ستريت، أوربا، ١-٢٠ تموز، ٢٠٠١.



Twitter: @ketab_n

العاديين، ولهذا السبب لم يكن الديمقراطيون الذين دعموا الكفالة متناقضين مع ميولهم اليسارية، يمكن أن يكونوا متناقضين فقط إذا ما قبلوا بمسلمات مناصري الجمهوريين: أن الرأسمالية (الحقيقية، الأصيلة) واقتصاد السوق الحر هما قضية الطبقة العاملة الشعبية، بينما تدخل الدولة هو إستراتيجية طبقة النخبة العليا المُصمَّمة لاستغلال الطبقة الكادحة. «الرأسمالية مقابل الاشتراكية»، ولهذا أصبح الناس الكادحون العاديون في مقابل الطبقة العليا.

لكن ما من شيء جديد بالنسبة إلى تدخل الدولة القوية في النظام المصرفي أو في الاقتصاد عموماً، فالانهيار الأخير نفسه هو نتيجة لمثل هذا التدخل، في عام ٢٠٠١ عندما انفجرت فقاعة الدوت كوم[١] التي بينت جوهر مشكلة «الملكية الفكرية» تم تقرير جعل الائتمان أسهل رغبة في إعادة توجيه النمو نحو الإسكان، لذا يعدّ مأزق الملكية الفردية السببَ النهائي للانهيار المالي عام ٢٠٠٨، وإذا وسعنا أفق تفكيرنا ليشمل الواقع العالمي فسنجد قرارات السياسة قد نُسجت من قماشة علاقات الاقتصاد العالمية

(١) فقاعة الدوت كوم: يشار إليها أيضاً بطفرة الدوت كوم، وفقاعة الإنترنت وفقاعة تكنولوجيا المعلومات، وكانت فقاعة المضاربة التاريخية التي استمرت ما يقرب من ١٩٩٧-٢٠٠٠ (وذروتها يوم ١٠ مارس ٢٠٠٠ مع ناسداك) قد شهدت في ارتفاع قيمة أسهم الدول الصناعية مع النمو في قطاع الإنترنت والمجالات ذات الصلة، في حين كان الجزء الأخير من دورة الازدهار والكساد، وطفرة الإنترنت المقصود بها في بعض الأحيان الإشارة إلى النمو التجاري المطرد للإنترنت مع ظهور شبكة ويب العالمية.



Twitter: @ketab_n

نفسها. منذ سنوات شرح تقرير لشبكة CNN[1] عن دولة مالي فيما يخصّ الواقعية العالمية «السوق الحرة». دعامتا الاقتصاد في مالي هما القطن في الجنوب والماشية في الشمال، وكلتاهما في مشكلة بسبب أسلوب السلطات الغربية في انتهاك القواعد محاولةً فرض الفقر على دول العالم الثالث، تنتج مالي أفضل أنواع القطن، لكن المشكلة هي أن الدعم المالي الذي تمنحه حكومة الولايات المتحدة لمزارعي القطن يُقدّر بأكثر من ميزانية دولة مالي؛ لذا فمن غير المفاجئ أنها لا تستطيع المنافسة في الشمال، المُذنِب هو الاتحاد الأوربي، فالعِجل المالي لا يمكنه منافسة العجل والحليب الأوروبيين المدعمين، الدعم الأوربي لكل بقرة يُقدّر بحوالي ٥٠٠ يورو في العام؛ أي أكثر من نصيب الفرد من الدخل المحلي[2] في مالي، وقد عبّر عن ذلك وزير الاقتصاد المالي: نحن لسنا بحاجة إلى مساعدتكم أو نصحكم أو محاضراتكم عن الآثار المفيدة لإلغاء التطرف في تنظيم الدولة، رجاءً فقط التزموا بقواعدكم حول السوق الحرة ومشاكلنا ستنتهي من جذورها؛ وهنا نتساءل: أين المدافعون الجمهوريون عن حرية السوق هنا؟، يظهر انهيار مالي حقيقة ما يعنيه للولايات المتحدة بوضع «البلد أولاً».

كلّ ما سبق يشير بوضوح إلى أنه ليس هناك شيء مثل هذا السوق المحايد، فدائماً تنظّم كل حالة خاصّة بترتيبات السوق وفق

---

(١) CNN شبكة أخبار أمريكية.

(٢) GDP.



Twitter: @ketab_n

قرارات سياسية، وبناء عليه ليست المعضلة الحقيقية «هل على الدولة التدخل؟» لكن «أي نوع من تدخل الدولة هو الضروري»؟، وهذه قضية السياسيين الواقعيين، تحديداً النضال لتعريف الإحداثيات الغير السياسية الأساسية لحياتنا. كل القضايا السياسية بطريقة ما غير حزبية، هم يهتمون بمسألة: «ما هو بلدنا؟»؛ لذا فالنقاش حول الكفالة هو مناورة حقيقة، فهو يتعامل مع قرارات حول مظاهر أساسية من حياتنا الاقتصادية والاجتماعية، وأيضاً في عملية حشد أشباح الصراع الطبقي، ليس هناك موقِف خبير «موضوعي» يُنتظر أن يطبّق، ببساطة على المرء فقط أن ينحاز لجانب أو لآخر سياسياً.

هناك إمكانية واقعية فالضحية الأساسية لاستمرار الأزمة لن تكون الرأسمالية بل اليسار نفسه، بسبب عجزه عن تقديم بديل عالمي قادر على الحياة والذي كان بادياً للجميع، كان اليسار محاصراً على نحو مؤثر كما لو أن الأحداث الأخيرة كانت منظمة بمخاطرة محسوبة رغبةً في إظهار فكرة مفادها أنه حتى في وقت الأزمة الساحقة، ليس هناك بديل قابل للحياة عن الرأسمالية. «تامزينج»[1] هي كلمة من التيبت كثُر استعمالها في زمن الثورة الثقافية، لها أصداء مشؤومة على الليبراليين؛ فهي تعني «جلسة النضال»، جلسة استماع علنية ونقدية لفرد تم استجوابه بقسوة رغبة في إعادة تربيته سياسياً من خلال الاعتراف بأخطائه وتغذية النقد الذاتي، ربما يحتاج يسار اليوم لجلسة «تامزينج» طويلة؟

(١) Tamzing.



Twitter: @ketab_n

اعتبر إيمانويل كانط[1] الشعارَ المحافظ «لا تفكر، امتثل!» ليس بالصيغة المنذرة «لا تمتثل، فكر!» لكن المقصود «امتثل، لكن فكر!» عندما أذهلنا بخطة الكفالة، كان يجب أن يتبادر إلى أذهاننا أنها شكل من أشكال الابتزاز، ولابد لنا من مقاومة الإغواء الشعبي لتفريغ غضبنا لكن بدلاً من هذا التفريغ الواهن، علينا أن نتحكم بغضبنا الشديد وتحويله إلى تصميم جدّي للتفكير من خلال طريق أصولي واقعي، والسؤال: أي نوع من المجتمع يجعل مثل هذا الابتزاز ممكناً؟

## ٢ ـ الأزمة كعلاج بالصدمة:

هل سيكون الانهيار المالي لحظة فاتحة تليها اليقظة من الحلم؟ كلّ شيء يعتمد على كيفية تجسّدها على أي تفسير أيديولوجي أو قصة تفرض نفسها وتقوض الفهم العام للأزمة. عندما توقفت الحركة الطبيعية للأشياء بفعل بالصدمة، فُتح الحقل لمنافسة أيديولوجية «استطرادية»، كما حصل، على سبيل المثال، في ألمانيا في بداية الثلاثينيات، تحديداً المؤامرة اليهودية، عندما انتصر هتلر في المنافسة التي رُوي من خلالها أفضل تفسير لأسباب أزمة جمهورية فايمار[2] وقدمت أفضل طريقة للهرب من تلك الأزمة، والأمر نفسه في فرنسا

---

(١) ايمانويل كانط) ١٧٢٤-١٨٠٤): فيلسوف ألماني، يعدّ الشخصية المركزية للفلسفة الحديثة.

(٢) جمهورية فايمار هو الاسم الذي أطلقه المؤرخون على الدولة التي تمّ تأسيسها عام ١٩١٩ في ألمانيا لتحل محل الشكل الإمبراطوري للحكومة، وهي المدينة التي تم فيها الاجتماع التأسيسي.



Twitter: @ketab_n

في عام ١٩٤٠ كانت رواية المارشال بيتان[١] التي فازت في الكفاح لشرح أسباب هزيمة فرنسا. أيّ توقع يساري ساذج بأن الأزمة الاقتصادية والمالية الحالية ستفتح فضاء لليسار الأصولي هو بلا شك توقّع قصير النظر بشكل خطير، فالأثر الأوّلي الفوري للأزمة لن يكون صعود السياسات التحررية، بل صعود الشعوبية العنصرية، والمزيد من الحروب، وتصاعد الفقر في أفقر بلدان العالم الثالث، وتزايد الانقسام بين الأغنياء والفقراء في كل المجتمعات.

في الوقت الذي زعزعت فيه الأزمة رضا الناس عن أنفسهم، وأجبرتهم على الشك بأساسيات حياتهم، كان الذعر أوّل ردّ فعل عفوي أدى إلى «العودة إلى القواعد»، المقدمات المنطقية الأساسية للأيديولوجية الحاكمة بعيداً عن كونها موضع شك أُعيد تأكيدها بشكل عنيف وبدرجة أكبر؛ لذا فالخطر هو أن استمرار الانهيار سيستخدم في شكل مشابه لما سمّته نعومي كلين[٢] «مبدأ الصدمة»، هناك شيء ما مفاجئ في ردود الأفعال المعادية لكتاب كلين الأخير؛ فهي أكثر عنفاً مما قد يتوقعه المرء، حتى الليبراليين اليساريين الأخيار الذين تعاطفوا مع بعض تحليلاتها استنكروا كيف أن صراخها حجب عقلها (كما عبر عنه ويل هوتون[٣] في مراجعته للكتاب في الأوبزيرفر)، من الواضح أن كلين لمست بعض الأوتار الحساسة بافتتاحية أطروحتها:

---

(١) فيليب بيتان (١٨٥٦-١٩٥١): كان رئيساً لدولة فيشي الفرنسية.

(٢) نعومي كلين كاتبة كندية وناشطة اجتماعية.

(٣) ويل هوتون: كاتب وصحفي بريطاني، رئيس تحرير سابق في صحيفة الاوبزيرفر.



Twitter: @ketab_n

كُتب تاريخ السوق الحر المعاصر في حالات الصدمة، بعض الانتهاكات السيئة لحقوق الإنسان منذ خمسة وثلاثين عاماً، والتي أفضت لأن ينظر إليها على أنها تصرفات سادية نفذتها الأنظمة المعادية للديمقراطية، وقد ارتكبت كلياً عن قصد متعمّد لإرهاب الناس أو جعلها أداةً لتحضير الأرضية لإعادة تشكيل السوق الحرة جذرياً[1].

تطورت هذه الأطروحة عبر سلسلة من التحليلات المتماسكة؛ منها تحليلات عن حرب العراق: كان هجوم الولايات المتحدة على العراق مدعماً بالفكرة التي تلت إستراتيجية «الصدمة والرعب» العسكرية والتي مفادها يمكن تنظيم البلد ليكون سوقاً حرة بامتياز، فالناس مصدومون جداً، ولن يقوموا بأية معارضة؛ أي فرض كامل لاقتصاد السوق الحرة؛ لهذا السبب تم تقديمه بسهولة أكبر مما إذا كان الطريق إليه معبداً بصدمة طبيعية أوعسكرية أو اقتصادية، والتي كانت تجبر الناس على زعزعة «عاداتهم القديمة»، محوّلة إيّاهم إلى عقل خام أيديولوجياً، هم ناجون من موتهم الرمزي وجاهزون لقبول النظام الجديد الآن فالعقبات جميعها قد تم تمهيدها.

يمكن للمرء أن يكون متأكداً أنّ مبدأ الصدمة لدى كلين ينطبق على قضايا بيئية بعيداً عن المخاطرة الرأسمالية، ربما كارثة بيئية واسعة الانتشار تنشطها فاتحة فضاءات جديدة لم يسمع بها حتى

---

(١) مبدأ الصدمة: صعود الكارثة الرأسمالية، نعومي كلين، لندن: بينجوين للكتب، ٢٠٠٧، صiii.



Twitter: @ketab_n

اليوم، ربما سيستخدم حينها الانهيار الاقتصادي أيضاً «كصدمة» تخلق شروطاً أيديولوجية للمزيد من العلاج الليبرالي، الحاجة إلى مثل هذا العلاج بالصدمة تنشأ مما تم تجاهله وهو الجوهر الطوباوي للاقتصاديات النيو ليبرالية. نمطية هي الطريقة التي استجاب بها أصوليو السوق على النتائج المدمرة لتحقيق وصفاتهم يلقي على «الشموليين» الطوباويين: بأسباب الفشل كله على تنازلات هؤلاء الذين أدركوا مخططاتهم (لا يزال هناك الكثير من تدخل الدولة.) ولا يطلب حتى أقل من التنفيذ الأكثر راديكالية لمعتقداتهم.

بناء على ذلك، وللتعبير عنه بالمصطلحات الماركسية القديمة، المهمة المركزية للأيديولوجية الحاكمة في الأزمة الحالية هي فرض الرواية التي لن تلقي اللوم على النظام الرأسمالي العالمي، بل على الانحرافات الطارئة والثانوية مثل اللوائح القانونية المتراخية أكثر من اللازم، وفساد المؤسسات الكبرى، وغير ذلك، والأمر نفسه في عصر الاشتراكية القائمة، فالأيديولوجيات المؤيدة للاشتراكية حاولت إنقاذ فكرة الاشتراكية بالادعاء بأن فشل «الديمقراطيات الشعبية» كان فشل النسخة الغير أصلية من الاشتراكية، لا وجود لهذه الفكرة؛ لذا تطلبت الأنظمة الاشتراكية الموجودة إعادة تشكيل جذري بدلاً من الإطاحة والإلغاء.وهنا نسجل ملحوظة لا تخلو من السخرية؛ إذ كيف أن الإيديولوجيات التي سخرت مرة من هذا الدفاع النقدي عن الاشتراكية بوصفها خادعة، وأصرت على أن على المرء إلقاء اللوم على الفكرة نفسها، لجأت الآن وعلى نطاق


Twitter: @ketab_n

واسع لخط الدفاع نفسه؛ لأن الرأسمالية ليست على هذا النحو المفلس، فهمها فقط هو المشوّه...

مقابل هذا الاتجاه، على المرء الإلحاح على السؤال الرئيس: ما هو «العيب» في النظام الذي يفتح الباب لمثل هذه الأزمة والانهيارات؟ أول ما يجب التفكير به أن أصل الأزمة هو «الخير»، كما لاحظنا، فالقرار الذي اتُخذ بطريقة الحزبين بعد انفجار فقاعة الدوت كوم كان لتسهيل استثمار العقارات رغبة في الحفاظ على استمرار الاقتصاد ومنع الركود، انهيار اليوم هو ببساطة ذلك الثمن الذي دفع لمقاييس معتبرة في الولايات المتحدة لتجاوز الركود منذ عدة سنوات، يكمن الخطر في أن الرواية السائدة عن الانهيار تسمح لنا بمواصلة الحلم بدلاً من إيقاظنا منه. وهنا علينا البدء بالقلق ليس فقط على النتائج الاقتصادية للانهيار، لكن بشأن الإغواء الواضح لتنشيط «الحرب على الإرهاب» والتدخل الأمريكي رغبة في الحفاظ على دوران محرك الاقتصاد، أو على الأقل لاستعمال الأزمة لفرض مقاييس إضافية قاسية من «التكيف البنيوي».

استخدمت الحالة النموذجية لطريقة انهيار الاقتصاد في الكفاح السياسي الأيديولوجي المهتم بالصراع على ما يجب فعله مع مؤسسة جنرال موتورز، هل على الدولة السماح بإفلاسها أم لا؟ وبما أن GM واحدة من تلك المؤسسات التي تجسد الحلم الأمريكي، كان يُعدّ إفلاسها لوقت طويل غير وارد، يشير تزايد أعداد الأصوات إلى أن الانهيار يوفّر دفعة إضافية من شأنها أن تجعلنا نقبل ما هو غير وارد. نُشر في النيويورك تايمز مقال بعنوان


Twitter: @ketab_n

«تخيل إفلاس GM» يبدأ بشكل مشؤوم بـ: «جنرال موتورز تكافح لتجاوز الإفلاس السنة القادمة، الاحتمال غير الوارد لإفلاس GM يبدو أكثر احتمالاً»[1]. بعد سلسلة من الجدالات المتوقعة بأن الإفلاس لا يعني خسارة العمل أتوماتيكياً بل هو إعادة هيكلة ستجعل من الشركة أصغر حجماً وأكثر شراسة، متكيفة بشكل أفضل مع شروط الاقتصاد القاسية اليوم، وضع المقال النقاط على الحروف كلها عندما ركز على التوازن بين GM ونقابات عمالها ومتقاعديها، الإفلاس سوف يسمح لـ GM بالرفض من طرف واحد اتفاقيات مفاوضاتها الجماعية، طالما أن الحكم تم تصديقه، وبتعبير آخر يجب أن يُستخدم الإفلاس لكسر ظهر آخر اتحاد قوي في الولايات المتحدة، تاركة الآلاف إمّا بأجور منخفضة أو برواتب تقاعدية أقل. لاحظ ثانية التناقض بين الحاجة الطارئة لإنقاذ البنوك الكبرى في حالة GM؛ إذ إن بقاء عشرات الآلاف من العمال العاملين والمتقاعدين على المحك أعطى فرصة للسوق الحرة أن تعمل بقوة وحشية كما لو أن النقابات بدلا من فشل الإستراتيجية الإدارية، كانت الملامة على مشاكل GM! وبهذه الكيفية يصبح المستحيل ممكناً، فالذي كان يُنظر إليه على أنه غير وارد الحدوث في أفق المعايير المؤسسة لشروط العمل المحترمة يصبح الآن مقبولاً.

---

(١) تخيل إفلاس جنرال موتورز، نيويورك تايمز، ٢ كانون الأول، ٢٠٠٨ («deal book» في قطاع الأعمال)



Twitter: @ketab_n

كتب ماركس في كتابه بؤس الفلسفة أن الأيديولوجية البرجوازية تحب التأريخ، كل شكل ثقافي أو ديني أو اجتماعي هو تاريخي تصادفي نسبي، كان هناك تاريخ مرة، لكن الآن لم يعد هناك أي تاريخ:

لدى الاقتصاديين منهج وحيد للإجراء، فالمؤسسات بالنسبة إليهم نوعان: طبيعية واصطناعية؛ مؤسسات الإقطاعية هي مؤسسات اصطناعية، ومؤسسات البرجوازية هي مؤسسات طبيعية، منهجهم يشبه منهج علماء الدين الذين أسسوا بناء على النمط نفسه نوعين من الدين؛كل دين غير دينهم هو من اختراع البشر، بينما دينهم هو موحى به من الله. عندما يقول الاقتصاديون أن علاقات الإنتاج البرجوازي في أيامنا هذه هي علاقات طبيعية، فهم يبيّنون أنها علاقات خُلقت فيها الثروة وتطورت فيها القوى المنتجة وفقاً لقوانين الطبيعة، فضلا عن كونها قوانين طبيعية بحد ذاتها ومستقلة عن تأثير الزمن؛ هي قوانين خالدة يجب دائماً أن تحكم المجتمع؛ ولهذا كان هناك تاريخ، لكن لم يعد موجوداً، فوجوده مقرون بوجود المؤسسات الإقطاعية، وفي هذه نجد علاقات للإنتاج مختلفة تماماً عن العلاقات المرتبطة بالمجتمع البرجوازي التي يحاول الاقتصاديون تمريرها على أنها طبيعية، كما هي خالدة[1]،

---

(١) بؤس الفلسفة، كارل ماركس، الفصل الثاني، «الملاحظة السابعة والأخيرة»، موسكو، دار التقدم للنشر١٩٥٥.
ألا نجد أصداء الموقف نفسه في استطراد اليوم المؤرخ «المعادي للجوهر» (من ارنستو لاكلو إلى جوديث بتلر)، الذي ينظر إلى كل كيان أيديولوجي اجتماعي=


Twitter: @ketab_n

استبدلْ «الاشتراكية» بـ «الإقطاعية» وسيصدق الشيء نفسه تماماً على المدافعين المعاصرين عن الرأسمالية الليبرالية الديمقراطية.

لا عجب أن الجدل حول حدود الأيديولوجيا الليبرالية مزدهر في فرنسا، ليس بسبب تقاليد الدولة القديمة التي ترتاب بالليبرالية، بل بسبب البعد الفرنسي عن السائد الأنجلو ساكسوني الذي يسمح بموقف نقدي، ويتيح إدراكاً أكثر وضوحاً للبنية الأيديولوجية الأساسية لليبرالية. إذا بحث المرء عن نسخة نقية سريرياً ومقطرة مخبرياً من الأيديولوجية الرأسمالية المعاصرة، فما عليه إلا أن يلتفت إلى مقابلة أجراها جي سورمان مؤخراً في الأرجنتين والتي عنوانها «هذه الأزمة ستكون قصيرة بما يكفي»[1]، الإشارات التي استوفاها سورمان أشبعت الطلب الأساسي للأيديولوجيا الليبرالية

---

=على أنه منتج الكفاح الاستطرادي المحتمل للهيمنة؟ كما لاحظ ذلك فريدريك جيمسون، التاريخية الكلية لديها نكهة تاريخية غريبة: عندما نقبل ونختبر المصادفة الجذرية لهوياتنا، فكل الضغط الحقيقي التاريخي بشكل ما يتلاشى في ألعاب تمثيلية لا نهائية للحاضر الأبدي. هناك سخرية مرجعية ذاتية لطيفة؛ هناك تاريخ طالما هناك إصرار يُذكّر بالجوهرية التاريخية. يجب على الراديكالي المعادي للجوهريين أن ينشر مهاراتهم التفسيرية غير البناءة لتتبع المسارات المخفية للجوهرية التاريخية ليظهر أنه مجتمع خطر ما بعد حداثي، إن كانوا يعترفون بأننا فعلاً نعيش في مجتمع معاد للجوهرية فسوف يواجهون السؤال الصعب من شخصية تاريخية من التاريخية الراديكالية السائدة نفسها اليوم، بمعنى آخر مواجهة موضوعة هذه التاريخية بوصفها الشكل الأيديولوجي للرأسمالية العالمية ما بعد الحداثة.

(١) «esta crisis sera bastante breve» مقابلة مع جي سورمان، per fil بوينوس ايرس، ٢ تشرين الثاني، ٢٠٠٨.



Twitter: @ketab_n

فيما يخص الانهيار المالي لإعادة تطبيع الحالة: «ربما تبدو الأشياء قاسية، لكن الأزمة ستكون قصيرة، إنها فقط جزء من دورة طبيعية من تدمير خلّاق تتقدم من خلاله الرأسمالية»، أو كما وصفه سورمان نفسه في نص آخر من نصوصه «التدمير الخلّاق هو محرك النمو الاقتصادي»، هذا الاستبدال المستمر للقديم بالجديد مسوّقاً بالابتكار التقني وريادة الأعمال، تم تشجيعه من قبل سياسات اقتصادية جيدة تجلب الرخاء، وبالرغم من هؤلاء المستبدلين بالعملية الذين يجدون أن أعمالهم أصبحت زائدة، يمكن الاعتراض عليها بشكل مفهوم»[1]، إعادة التطبيع تتشارك الوجود مع نقيضها، فالذعر الذي أثارته السلطات هدفه خلق صدمة بين جمهور عريض «الأساسيات نفسها لطريقتنا في الحياة قد دُمرت!» وتحضيرهم لقبول الحل المقترح غير العادل بوصفه الوحيد ولا مفر منه، تتلخّص مقدمة سورمان في أنه خلال العقود الأخيرة منذ سقوط الاشتراكية عام ١٩٩٠ أصبح الاقتصاد علماً مختبراً بشكل كامل، في حالة مختبرة تقريباً، كان البلد نفسه مقسماً إلى اثنين (شرق وغرب ألمانيا، جنوب وشرق كوريا)، وكل جزء خاضع لنظام اقتصادي معارض بنتائج غير ملتبسة.

لكن هل الاقتصاد حقاً علم؟ يبرهن سورمان أن السوق مليء بردود أفعال وسلوكيات غير منطقية، في «علم الاقتصاد العصبي»

---

(١) الاقتباسات الباقية كلها ضمن هذا المقطع مأخوذة من «الاقتصاد لا يكذب» city journal، صيف ٢٠٠٨، المتاح على الشابكة www.cityjournal.org.



Twitter: @ketab_n

تميل الفعاليات الاقتصادية إلى التصرف بالطريقتين المنطقية والغير منطقية، أظهر العمل المخبري أن اللوم يلقى على جزء من دماغنا عن العديد من قراراتنا الاقتصادية الخاطئة قصيرة المدى، بينما الجزء الآخر مسؤول عن القرارات التي تنتج معنىً اقتصادياً وتستلزم عادة تمحيصاً أطول. تماماً كما يحصل عندما تحمينا الدولة من تباين أكيرلوف بحظر التداول المطلع، هل عليها أن تحمينا أيضاً من دوافعنا غير المنطقية؟

بالطبع، سرعان ما يضيف سورمان أن استخدام الاقتصاديات السلوكية لتبرير استعادة لوائح الدولة المفرطة هو عمل مناف للعقل، بعد كل شيء لم تعد الدولة منطقية أكثر من الفرد، ويمكن أن يكون لتصرفاتها عواقب مدمرة، ينبغي على علم اقتصاد الأعصاب أن يشجعنا على جعل الأسواق أكثر شفافية، وليس أكثر تنظيماً.

بهذه القاعدة السعيدة التواؤمية لعلم الاقتصاد المكمل بعلم الاقتصاد العصبي، مضى عهد الأحلام الأيديولوجية المقنّعة بأقنعة العلم، كما عند ماركس الذي يمكن أن يُوصف عمله بأنه إعادة كتابة مادية للإنجيل مع كل الأشخاص الموجودين هناك والبروليتاريا في دور المسيح، فالفكر الأيديولوجي في القرن التاسع عشر هو بلا شك لاهوت مجسّم، وإذا ما كانت الماركسية قد ماتت، فإن الإمبراطور العاري يواصل مطاردتنا في ثياب جديدة؛ أهمها المذهب البيئي:


Twitter: @ketab_n

ليس الخضر[1] مثيري شغب عاديين، هم كهنة الدين الجديد الذي يعلي الطبيعة على الجنس البشري، الحركة البيئية ليست جماعة السلام والحب بل قوة ثورية مثل العديد من الأديان المعاصرة الحديثة، شرورُها المحددة منتقدةٌ ظاهرياً على قاعدة المعرفة العلمية: الاحتباس الحراري، وانقراض الأنواع، وفقدان التنوع البيولوجي، والنباتات البرية، كل هذه التهديدات هي تلفيقات من خيال الخضر؛ إذ استعاروا مفرداتهم من العلم من دون أن يفيدوا أنفسهم من عقلانيته، كما أن منهجهم ليس جديداً، اعتمد ماركس وانجلز[2] أيضاً على تجذير رؤيتهما العالمية في علم زمنهما«الداروينية».

يقبل سورمان من أجل ذلك ادعاء صديقه خوسيه ماريا ازنار[3] بأن الحركة البيئية هي «شيوعية القرن الحادي والعشرين»:

من المؤكد أن البيئية[4] هي إعادة خلق للشيوعية، النمط الحالي المعادي للرأسمالية نصفها الآخر مركب من اليوتوبيا الوثنية «عبادة الطبيعة» التي سبقت الماركسية بكثير، وبسبب تقاليدها الوثنية والطبيعية غدا البيئيون أقوياء جداً في ألمانيا؛ لذا تُعدّ البيئية ضد الحركة المسيحية، حصلت الطبيعة على الأسبقية على الإنسان،

---

(١) حزب الخضر.

(٢) كارل ماركس وفريدريك انجلز.

(٣) رئيس وزراء إسبانيا من عام ١٩٩٦-٢٠٠٤.

(٤) Ecologism: حماية البيئة: حركة اجتماعية تهتم بالمحافظة على البيئة وفق فكر سياسي وفلسفة أيديولوجية.



Twitter: @ketab_n

آخر ربع منطقي، هناك مشاكل حقيقية ومن أجلها هناك حلول تقنية.

لاحظ هذا التعبير «حل تقني»، المشاكل المنطقية لها حلول تقنية، ادعاء خاطئ ذلك الذي مفاده أن مواجهة المشاكل البيئية يتطلب اتخاذ الخيارات والقرارات لما يجب إنتاجه، وما يستهلك، وماهي الطاقة المعتمدة التي ترتبط بشكل وثيق في نهاية المطاف بحياة الناس، وعلى هذا النحو هم ليسوا فقط غير تقنين وحسب، بل هم سياسيون بشكل بارز في أكثر المعاني أصولية للخيارات الأساسية الاجتماعية المتضمنة، وليس مُستغرباً هنا أن الرأسمالية نفسها تم تقديمها في تعابير تقنية، ليس بوصفها علماً لكن ببساطة بوصفها شيئاً ما يعمل، إنها لا تحتاج إلى تبرير أيديولوجي؛ ، لأن نجاحها نفسه هو مبرر كافٍ، وهكذا نجد أن الرأسمالية هي مقابلة للاشتراكية التي لها دليل، الرأسمالية هي النظام الذي ليس له ذرائع فلسفية، ولا يبحث عن السعادة، الشيء الوحيد الذي يقوله هو: «حسناً، هذا يعمل». وإذا أراد الناس أن يعيشوا حياة أفضل، فمن الأفضل استعمال هذه الآلية؛ لأنها تعمل المعيار الوحيد الكافي».

هذا الوصف الغير أيديولوجي هو ـ بالطبع ـ زائف بجلاء، فالنظر إلى الرأسمالية بوصفها آلية اجتماعية محايدة هو أيديولوجيا طوباوية[1] في أنقى أشكالها. لحظة الحقيقة في هذا الوصف كما

---

(١) اليوتوبيا: أو المدينة الفاضلة، هي جماعة أو مجتمع يمتلك أفضل المواصفات المرغوبة أو الكاملة، صاغ الكلمة السير توماس مور بالإغريقية لكتابه الذي=



Twitter: @ketab_n

وصفها الآن باديو[1]؛ ليست الرأسمالية في حضارتها التي تجعل الحياة ذات معنى، الرأسمالية هي أول نظام اقتصادي اجتماعي يفكك المعنى، كما أنها ليست عالمية عند مستوى المعنى، ليس هناك ما يُدعى رؤية عالمية لعالم رأسمالي، ولا مفهوم الحضارة الرأسمالية، الدرس الأساسي من العولمة هو على وجه التحديد أن الرأسمالية يمكنها تكييف نفسها مع كل الحضارات من المسيحية إلى الهندوسية والبوذية، يمكن أن يتشكل البعد العالمي للرأسمالية فقط عند مستوى الحقيقة بلا معنى، بوصفه واقعاً لآلية السوق العالمية. هنا ليست المشكلة ـ كما يدعي سورمان ـ بأن الواقعية دائما ناقصة، وأن الناس يحتاجون إلى استدعاء أحلام الكمال المستحيل إنما المشكلة هي مشكلة المعنى، فالدين الآن يعاد اكتشاف مهمته لتأمين معنى الحياة لهؤلاء الذين يشاركون في العملية الخالية من المعنى لآلة الرأسمالية. لهذا السبب يُعدّ وصف سورمان للصعوبة الأساسية للرأسمالية الإيديولوجية في غير محله:

تكمن الصعوبة الكبرى في إدارة النظام الرأسمالي ـ من وجهة نظر سياسية وفكرية ـ في أنه لا يثير الأحلام، ما من أحد نزل إلى الشارع ليتظاهر من أجله، هو اقتصاد غيَّر الشروط الإنسانية التي

---

=يصف فيه مجتمع يعيش على جزيرة في المحيط الأطلسي، واستخدم هذا المصطلح لوصف الجماعات التي تحاول خلق مجتمع مثالي والمجتمعات المتخيلة التي تم تصويرها في الأدب، وبناء على ذلك صيغت مصطلحات أخرى أهمها الديستوبيا أو الواقع المرير.

(١) آلان باديو: فيلسوف فرنسي.



Twitter: @ketab_n

أنقذت من البؤس، لكن ما من أحد جاهز ليتحول بنفسه إلى شهيد لهذا النظام، علينا أن نتعلم التعامل مع مفارقة هذا النظام الذي لا يريده أحد؛ لأنه لا يثير الحب، ولا يسحر، ولا يغوي.

هذا الوصف غير حقيقي ويفتقر إلى الوضوح، إذا ما كان هناك نظام يغوي رعيته بالأحلام عن الحرية، وعن كيف أن نجاحك يعتمد على نفسك، عن ابتسامة الحظ، وعن المتع غير المتكلفة....، فإنها الرأسمالية، تكمن المشكلة الرئيسة في مكان آخر وهو كيف تبقي إيمان الناس بالرأسمالية حياً في الوقت الذي سحق واقع الأزمة بوحشية هذه الأحلام؟ هنا تدخل الحاجة إلى البراغماتية الواقعية «الناضجة»، على المرء أن يقاوم الأحلام ببطولة الكمال والسعادة، ويقبل الواقع الرأسمالي المرير على أنه الأفضل أو الأقل سوءاً من كل العوالم الممكنة. التسويات ضرورية هنا بمزيج من التوقعات الطوباوية الوهمية المقاتلة وإعطاء الناس الأمان الكافي لقبول النظام.؛ لذا فسورمان ليس متعصباً لليبرالية ولا متطرفاً، وهو يشير بفخر إلى بعض المريدين الأصوليين لميلتون فريدمان الذين اتهموه بكونه شيوعياً بسبب دعمه المتواضع لدولة الرفاه:

لا يوجد تناقض بين الدولة والاقتصاد الليبرالي، بل تحالف معقد بين الاثنين، أظن أن المجتمع الليبرالي يحتاج إلى دولة الرفاه، بالنظر إلى المشروعية الفكرية سيقبل الناس بمغامرة الرأسمالية إذا كان هناك حد أدنى لا غنى عنه من الأمن المجتمعي،


Twitter: @ketab_n

وفي مستوى أكثر تقنية إذا ما رغب المرء بأن يشغل الإبداع المدمر للرأسمالية، فعليه أن يديرها.

نادراً ما توصف وظيفة الأيديولوجيا بتعابير واضحة للدفاع عن النظام القائم ضد أي نقد جاد، إجازته على أنه تعبير مباشر عن الطبيعة البشرية:

تتجلى المهمة الأساسية للحكومات الديمقراطية وصناع الرأي، عندما يواجهون دورات الاقتصاد والضغط السياسي في تأمين النظام وحمايته وليس تغييره من أجل الأسوأ بحجة النقص في.....، هذا الدرس هو بلا شك من أصعب ما يمكن ترجمته إلى اللغة التي يقبلها الرأي العام. الأفضل بين كل الأنظمة الاقتصادية الممكنة هو ناقص، أيا كانت الحقائق غير مغطاة بعلم اقتصاد، والسوق الحرة هي انعكاس للطبيعة البشرية التي هي نفسها قابلة للكمال بصعوبة.

### ٣ ـ بنية دعاية العدو:

مثل هذه الإجازة الإيديولوجية تثبت بشكل مثالي صيغة باديو الدقيقة عن التناقض الأساسي لدعاية العدو؛ إنها تحارب شيئاً محدداً تجهله، شيئا ما أعمى هيكلياً، ليس القوى المضادة الحالية (الخصوم السياسيون)، لكن الإمكانية (التحررية الثورية الطوباوية) ملازمة للحالة:

ليس هدف دعاية العدو بكاملها إبادة القوة القائمة؛ لأن هذه المهمة متروكة بشكل عام لقوى الشرطة، لكن بدلاً من ذلك إبادة


Twitter: @ketab_n

الإمكانية غير الملحوظة للموقف، هذه الإمكانية هي أيضاً غير ملحوظة من قبل هؤلاء الذين يديرون هذه الدعاية، طالما أن ميزاتها هي كونها جوهرية متأصلة في الموقف ولا تظهر فيه[١].

لهذا السبب فدعاية العدو ضد السياسات التحررية الأصولية ـ هي بتعريف ساخر ـ ليس في معنى بسيط لمن لا يؤمن بكلماته هو، لكن عند مستوى أساسي أكثر تهكمية بقدر ما تؤمن بكلماتها الخاصة، طالما أن رسالتها هي إدانة العالم المتهم الذي نحيا فيه، حتى إذا لم يكن الأفضل بين كل العوالم الممكنة، إنه الأقل سوءاً، ذلك أن أي تغيير جذري سيجعل الأشياء أسوأ وحسب، كما دوماً مع الدعاية الفعّالة، هذا التطبيع يمكن له بسهولة أن يترافق مع نقيضه، قراءة الأزمة الاقتصادية بتعابير دينية، البابا بينيديكت السادس عشر[٢] عندما يتطرق إلى المناورات الانتهازية كان سريعاً في الإفادة من الأزمة المالية من خلال هذه السطور: «هذا يثبت بأن كل شيء فانٍ، وأن عالم الله هو ما يصمد فقط!» ولهذا يجب ألا نتفاجأ بأن انهيار عام٢٠٠٨ قد دفع جاك آلان ميلر[٣] للتدخل بمثل هذه الطريقة «الاستدلالية» ليمنع الذعر:

الدالة النقدية هي واحدة المظهر، ترتكز على الاتفاقيات

---

(١) seminar on plato at the ENS، آلان باديو، ١٣ شباط، ٢٠٠٨ (غير منشورة).

(٢) البابا بينيدكتوس السادس عشر، اسمه الحقيقي جوزيف الواسيوس راتزينجر، كان على رأس الكنيسة الكاثوليكية بين عامي ٢٠٠٥-٢٠١٣. وهو ألماني الجنسية.

(٣) جاك آلان ميلر: كاتب ومحلل نفسي فرنسي، أحد مؤسسي مدرسة السبب الفرويدية.



Twitter: @ketab_n

الاجتماعية. العالم المالي هو معماري صنع من التخيلات وحجر عقده هو ما سماه لاكان[١] «الموضوع المفترض معرفته»، لمعرفة لماذا وكيف؟و من يلعب هذا الدور؟ تناغم السلطات أحياناً صوت منفصل، مثل سلوكيات اللاعبين الماليين في زمن آلان جرينسبان[٢]. الوحدة الخيالية والشديدة الانعكاسية تصمد بـ «الإيمان بالسلطات»، وبمعنى آخر من خلال الانتقال نحو الموضوع المفترض معرفته. إذا تداعى هذا العنصر هناك أزمة تهاوي المؤسسات التي بالطبع تتضمن آثار الذعر، كان العنصر المالي المفترض معرفته أصلاً مكبوتاً تماماً بسبب إلغاء قيود التنظيم. وهذا حدث بسبب أن العالم المالي مؤمن بوهمه الفاتن، ليكون قادراً على حل الأشياء من دون وظيفة العنصر المفترض معرفته، أولاً: الأصول العقارية أصبحت نفاية، ثانياً: يتخلل القرف تدريجياً كل شيء، ثالثاً: هناك تحول سلبي هائل vis-a-vis[٣] مع السلطات، الصدمة الكهربية لخطة بولسون[٤]/ بيرنانك تغضب الجمهور، الأزمة هي أزمة ثقة، وستبقى حتى يعاد بناء العنصر المفترض معرفته، هذا سيحصل على المدى الطويل عن

---

(١) جاك لاكان: محلل وطبيب نفسي فرنسي.

(٢) آلان جرينسبان: اقتصادي أمريكي شغل منصب رئيس الاحتياطي الفيدرالي الأمريكي بين عامي ١٩٨٧-٢٠٠٦.

(٣) Vis a vis: وجهاً لوجه.

(٤) هنري بولسون: مصرفي أمريكي شغل منصب أمين سر الخزانة الأمريكية الرابع والسبعين.



Twitter: @ketab_n

طريق مجموعة جديدة من اتفاقات بريتون وودز[١]، اجتماع مجلس لقول الحقيقة عن الحقيقة[٢].

مرجعية ميلر هي آلان جرينسبان، العنصر المفترض معرفته الغير تحزبي[٣] للفترة الطويلة من النمو الاقتصادي في عهد ريجان حتى الكارثة الحالية. قدم جرينسبان إلى جلسة استماع في الكونغرس ٢٣/ ١٠/ ٢٠٠٨، واعترف ببعض نقاط مهمة في الإجابة على منتقديه الذين ادَّعوا أنه شجع الانفجار في أسعار المساكن بالحفاظ على معدلات الفائدة منخفضة جداً لوقت طويل، وأنه فشل في كبح جماح النمو المتفجر للإقراض العقاري المحفوف بالمخاطر وغالبا الاحتيالي[٤]، هنا بدأت لحظة الذروة في الجلسة، ولا سيّما في مداخلة ممثل كاليفورنيا هنري واكسمان[٥]، رئيس لجنة الرقابة:

سأقاطعك، سؤالي لك: لديك أيديولوجيا، هذه جملتك». أنا لديّ أيديولوجيا، حكمي هو أن الأسواق المتنافسة الحرة هي طريق لا نظير له إلى حد بعيد لتنظيم الاقتصاد، لقد حاولنا التنظيم، لا شيء يعمل بصورة مجدية». هذا كان اقتباسك، كانت لديك السلطة

---

(١) الاسم الشائع لمؤتمر النقد الدولي الذي عقد عام ١٩٤٢ في غابات بريتون وودز في نيوهامبشير الأمريكية.

(٢) الأزمة المالية، جاك آلان ميلر، متاح على الشبكة WWW.LACAN.COM

(٣) مصطلح في العلوم السياسية، يعني: من دون انتماء حزبي، من دون تحيز.

(٤) جرينسبان في مرمى النيران، إليزابث أولسون، متاح على الشبكة

(٥) هنري واكسمان: سياسي أميركي وعضو في الحزب الديمقراطي.



Twitter: @ketab_n

لإثبات ممارسات الإقراض غير المسؤولة التي أدت إلى البداية الثانوية[1] لأزمة الرهن، كنت قد نصحت لفعل هذا من قبل كثيرين. والآن اقتصادنا كله يدفع ثمنها، هل تشعر بأن أيديولوجيتك دفعتك لاتخاذ قرارات تمنيت لو أنك لم تتخذها؟[2]

أجاب جرينسبان: «وجدت خللاً في النموذج الذي أدركته بوصفه بنية تشغيلية حاسمة، يحدد كيف يعمل العالم». بتعبير آخر، اعترف جرينسبان بأنه عندما اجتاح تسونامي الائتمان الأسواق المالية، أثبتت أيديولوجية السوق الحرة عن التنظيم الاجتنابي خطأها، كرر جرينسبان لاحقاً «الإنكار المصدوم» إن الشركات المالية فشلت في إصلاح دقيق «مراقب» لتجارتها المقابلة لإثبات ارتفاع خسائرها: «هؤلاء الذين بحثوا عن مصلحة ذاتية من مؤسسات الإقراض لحماية حقوق المساهمين، هم بيننا، أنا نفسي من بينهم، هم في حالة صدمة الإنكار».

تكشف الجملة الأخيرة أكثر مما قد يظهر من النظرة الأولى؛ إنها تشير إلى أن خطأ جرينسبان كان قبول أن المصلحة الذاتية المستنيرة

---

(١) Subprime: مصطلح صيغ من قبل وسائل الاعلام خلال أزمة الائتمان في عام ٢٠٠٧ للإشارة الى المؤسسات المالية التي وفرت الاعتماد لمستعيرين اعتبروا «بداية ثانوية» (أحيانا أيضاً أشارت إلى «تحت الإيداع») بمعنى آخر، هؤلاء بالخطر المحسوس المتصاعد للإهمال، مثل هؤلاء الذين لديهم تاريخ من قرض متأخر، أولئك الذين لديهم سجل إفلاسي، تجربة دين محدودة.

(٢) انظر news hour، تشرين الأول، ٢٠٠٨، نسخة» جرينسبان يعترف بالخلل للكونجرس، ويتوقع المزيد من المشاكل الاقتصادية»، متاح على الانترنت على www.pbs.org/newshour.



Twitter: @ketab_n

لمؤسسات الإقراض ستجعلهم يتصرفون بمسؤولية أكبر وأكثر أخلاقية، رغبة في تجاوز دورات الدفع الذاتي قصيرة المدى للمضاربة الطائشة، والتي آجلاً أم عاجلاً ستنفجر كالفقاعة، بمعنى آخر كان خطؤه أنه لم يهتم بالوقائع، وببيانات الاقتصاد أو آلياته، بل اهتم بدلاً من ذلك بالسلوكيات الأخلاقية المولدة بمضاربة السوق، وبشكل خاص التسليم بأن عمليات السوق سوف تولد بطريقة عفوية المسؤولية والثقة، بما أن فيها على المدى البعيد مصلحة ذاتية للمشاركين أنفسهم للتصرف على هذا النحو، من الواضح أن خطأ جرينسبان لم يكن فقط مجرّد نوع من زيادة في التقدير المتعلق بوكالات السوق، إنه قدرتهم على مقاومة الميل لتحقيق مكسب المضاربة الطائشة، إن ما نُسي تضمينه في المعادلة كان التوقع شديد العقلانية للمضاربة المالية، فالأخطار تستحق الأخذ بها؛ لأنهم في الانهيار المالي لن يتمكنوا من الاعتماد على العقارات لتغطية خساراتهم.

من العواقب الغريبة للإجراءات المتخذة لمواجهة الانهيار المالي كان إحياء المصلحة في عمل لـ اين راند[1]، أقربها ما يمكنه الحصول على أيديولوجية «الجشع جيد» من الرأسمالية الأصولية، تفجرت من جديد مبيعات أعظم ما أبدعت راند «الأطلس متململاً»، كان السبب في هذا النجاح دعمَ إدارة أوباما لصفعات

(١) اين راند: اليزا زينوفيفنا روزينباوم، (١٩٠٥-١٩٨٢) روائية أمريكية وكاتبة مسرحيات وفيلسوفة، من أهم أعمالها «الأطلس متململاً».



Twitter: @ketab_n

البنوك المحاصرة من الاشتراكية الاستبدادية، مجبرة الأقوى والأكثر نجاحاً في دعم الأضعف العاجزة وغير الكفء. الإستراتيجية الاقتصادية الحالية هي تماماً كما في أطلس متململا[١] وأيضاً كما كتب المعلق ستيفن مور مؤخراً في وول ستريت جورنال»[٢]. كلما كنت ضعيفاً في مجال الأعمال، كلما أغدق عليك السياسيون صدقاتهم»[٣].

وفقاً لبعض التقارير، هناك بالفعل ما يشير إلى أن ما ذكر في «أطلس متململاً» عن أن رأسماليين مبدعين سيضربون هو بالفعل على وشك القدوم. وفقاً لجون كامبل، عضو الكونغرس الجمهوري: «أظن أن المنجزين سيضربون نوعاً من الاحتجاج على مستوى محدود من الناس الذين يخلقون الأعمال وينسحبون من طموحاتهم لأنهم يرون كيف سيعاقبون من أجلها»[٤]. عبثية ردة الفعل هذه تكمن بأنها تسيء قراءة الحالة بشكل كلي، أغلب أموال الكفالة ذاهبة في مبالغ عملاقة إلى أولئك الأحرار الجبارين الراندين الذين فشلوا في مخططاتهم الإبداعية وجاؤوا بالدوامة. ليس العباقرة المبدعون العظماء من يساعدون الآن الناس العاديين الكسالى، هم عوضاً عن ذلك دافعو ضرائب العاديين الذين يساعدون «العباقرة

---

(١) أطلس متململاً اسم الرواية الأخيرة والأهم لأين راند.

(٢) Wall street journal.

(٣) ابحث عن الرقم واحد، أوليفر بيركيمان، الجارديان، ١٠ آذار، ٢٠٠٩، ص٣.

(٤) المرجع السابق نفسه.



Twitter: @ketab_n

المبدعين» الفاشلين. على المرء ببساطة أن يتذكر أن أبا السياسة الأيديولوجية للعملية الاقتصادية الطويلة التي نتجت في الانهيار هو آلان جرينسبان المذكور أعلاه حامل بطاقة «الموضوعية» الراندية.

لكن لنعد إلى ميلر؛ لأن رسالة نصه الغريب واضحة، لننتظر بصبر انبثاق «الموضوع الجديد المفترض معرفته»، موقف ميلر هنا هو موقف تهكمي ليبرالي نقي، كلنا نعلم أن «الموضوع المفترض معرفته» هو وهمٌ متنقل، لكننا نعلم هذا بشكل خاص بوصفنا محللين نفسيين، في العلن علينا أن نعزز صعود «الموضوع الجديد المفترض معرفته» رغبة في التحكم بردود أفعال الذعر...

انخرط ميلر مؤخراً في جدال ضد محاولة أوربية على نطاق واسع لفرض تنظيم المحللين النفسيين للدولة، والذي سيقود بفعالية إلى استغراقه في حقل واسع من الإدراك «العلمي» والعلاجات الكيميائية الحيوية، للأسف هو يصف هذا الكفاح بمصطلحات إصرار اليمين الليبرالي على حرية الأفراد من تحكم وتنظيم الدولة الأبوية والاشتراكية، مشيراً بشكل مباشر إلى عمل النيوليبرالي الموالي لتاتشر «وليم هـ.بيتر»[1]، إن ما يتجاهله ميللر هو أن تنظيمات الدولة نفسها التي يعارضها بشراسة تم سنها لتأييد حماية استقلالية الأفراد وحريتهم، لذلك هو يقاتل ظروف

(١) انظر ويليم هـ. بويتر، الأبوية الجديدة: انتبه، خطر!» le nouvel ane، ٩ أيلول، ٢٠٠٨، ص٣٤ ٥.
ـ وهو اقتصادي هولندي يحمل الجنسيتين البريطانية والأمريكية.


Twitter: @ketab_n

الأيديولوجية نفسها التي يعتمد عليها. المفارقة هي في مجتمعنا المعاصر الرقمي؛ إذ ليست الدولة فقط لكن أيضاً الشركات الكبرى قادرة على التسلل والتحكم بحياة الأفراد إلى حد لم يسمع به، إن تنظيم الدولة مطلوب رغبةً في إصلاح الاستقلالية ذاتها تجاوزاً للخطر الذي قد تتعرض له.

في منتصف نيسان من عام ٢٠٠٩، كنت جالساً في غرفة فندق في سيراكوز[١]، متنقلا بين برنامجين تلفزيونيين؛ وثائقي عن بيتي سيجر، المغني الأميركي الشعبي العظيم على the left، وتقرير للفوكس نيوز عن «حزب الشاي» المعادي للضرائب في اوستين، تكساس، مع مغني كانتري يؤدي أغنية ضد أوباما ممتلئة بالشكوى عن فرض الضرائب في واشنطن على الطبقة الكادحة من الناس العاديين رغبة في تمويل الأغنياء من ممولي وول ستريت. كان للماس الكهربائي بين البرنامجين تأثير كهربائي عليّ بسمتين ملحوظتين، أولا: كان هناك تشابه غريب بين الموسيقيين، كلاهما يصوغان نقدا شعبياً ضد مؤسسات الأغنياء الاستغلاليين ودولتهم، ويناديان بالإجراءات الراديكالية، حتى العصيان المدني ـ هو الحق الشعبي الجذري المعاصر بغرابة ـ يذكرنا باليسار الشعبي الراديكالي، ثانيا: يمكن للمرء أن يلحظ اللاعقلانية الأساسية لمحتجي «حزب الشاي»[٢]، يخطط أوباما بفعالية لفرض ضرائب

(١) سيراكوز: مدينة في نيويورك.
(٢) حزب الشاي: حركة سياسية أمريكية.


Twitter: @ketab_n

مخفضة لأكثر من ٩٥٪ على الناس العاديين الكادحين، مقترحا رفعهم إلى زوج من المئات الأعلى فقط، وهذا كله من أجل استغلال الأغنياء؛ لذا فكيف يكون الناس يتصرفون ضد مصالحهم الخاصة؟

وصف توماس فرانك ابتلي[١] تناقض المحافظة الشعبية المعاصرة في أمريكا[٢] بأنه تم تحويل الطبقة الاقتصادية المعارضة؛ مثل المزارعين الفقراء، والعمال ذوي الياقات الزرقاء مقابل المحامين، المصرفيين، والشركات الكبرى، أو أعيدت صياغتها إلى المعارضة من الأمريكيين المسيحيين الكادحين الشرفاء مقابل الليبراليين المنحطين الذين يشربون القهوة بالحليب ويقودون سيارات أجنبية، مؤيدي الإجهاض والمثلية الجنسية، وتضحية وطنية خادعة وأساليب حياة بسيطة «محلية»....إلخ؛ لهذا السبب يدرك العدو أن النظرية الداروينية والخبرات الجنسية المفسدة ترغب في تقويض الطريقة الأمريكية الأصيلة. الطلب الاقتصادي الأساسي للمحافظين يفضّل بديلاً عن قيادة دولة قوية تفرض الضرائب على السكان لتمول تدخلاتها التنظيمية، بناء على برنامجهم الاقتصادي المصغر: «ضرائب أقل، تنظيم أقل». من وجهة نظر معيارية للسعي المستنير والعقلاني للمصلحة الذاتية نجد وضوح تناقض هذا الموقف الأيديولوجي؛ مناصرو المحافظين يصوتون بأنفسهم لتدمير

---

(١) توماس فرانك ابتلي: محلل سياسي أمريكي وكاتب صحفي.

(٢) انظر: ما هي مشكلة كنساس؟ كيف ربح المحافظون قلب أمريكا، توماس فرانك، نيويورك: metropolitan books ٢٠٠٤.



Twitter: @ketab_n

الاقتصاد. ضرائب أقل وتحرير التجارة من القيود الحكومية يعني حرية أكثر للشركات الكبرى التي تفقد المزارعين المفقرين أعمالهم، تدخل أقل للدولة يعني مساعدة فيدرالية أقل لصغار الكسبة والمقاولين.

على الرغم من أن الطبقة الحاكمة تتعارض مع البرنامج الأخلاقي الشعبي، إلا أنها تجيز الحرب المعنوية بوصفها وسائل لإبقاء الطبقات الدنيا تحت الفحص؛ ولهذا هي تسمح للفقراء بأن يعبّروا عن غضبهم دونما إقلاق للوضع الاقتصادي الراهن، هذا يعني أن الحرب الثقافية هي حرب طبقية بنموذج بديل، ماعدا هؤلاء الذين يدّعون بأننا نعيش في مجتمع ما بعد الطبقة... هذا، بأية حال، لا يعدو أن يجعل اللغز أكثر غموضاً، كيف يمكن أن يكون هذا الاستبدال ممكناً؟ حماقة وخداع أيديولوجي وليس جواباً مناسباً، ليس من الجيد الادعاء بأن الطبقات الدنيا الساذجة كانت مغسولة الدماغ بأدوات أيديولوجية لدرجة أنهم لم يعودوا قادرين على تحديد مصالحهم الحقيقية، إذاً ما من شيء آخر وعلى المرء أن يستعيد ما حدث منذ عقود في حالة كنساس وقد عرفها فرانك في كتابه أنها معقل للمحافظين، وكانت مرتعاً للشعبوية التقدمية في أمريكا والناس لم يكونوا بالتأكيد أكثر حماقة في العقود الأخيرة. وكدليل على القوة المادية لمعززات الأيديولوجية في الانتخابات الأوروبية في حزيران ٢٠٠٩، دعم المصوتون بشكل كبير السياسيين الليبراليين المحافظين الجدد، السياسيون نفسهم الذين جاؤوا بالأزمة المتواصلة، في الحقيقة، من بحاجة إلى قمع مباشر عندما يمكن للمرء إقناع الدجاجة بالمشي بحرية نحو المسلخ؟


Twitter: @ketab_n

تتجاهل نسخة سورمان من الأيديولوجيا الرأسمالية عملية ضرورة التعمية الذاتية، وهي على هذا النحو الصارخ جداً والوحشي في تأييد همينتها، فيها شيء ما من شخصية «شديد التطابق» معها من الذكر الصريح للمباني الكامنة التي تصبح محرجة لكل مهتم، فضلاً عن النسخة الأيديولوجية من الرأسمالية التي تظهر بوصفها مهيمنة على الأزمة الحالية والمسؤولة اجتماعياً، بينما يعترف أنه في الماضي والحاضر لطالما كان نظام السوق الحرة شديد الاستغلالية مع عواقب كارثية، يمكن المرء أن يميز إشارات التوجهات الجديدة القلقة من أن التجنيد الرأسمالي لقدرات المجتمع المنتجة يمكن أيضاً أن يكون مصنوعاً لخدمة أهداف بيئية، الكفاح ضد الفقر، ونهايات أخرى مهمة، قُدمت هذه النسخة بوصفها جزءاً من تحول أوسع نحو نموذج روحاني ما بعد مادي كلي. مع تنامي القلق على وحدة الحياة كلها على الأرض ومن الخطر المشترك الذي نواجهه جميعاً، ظهرت مقاربة جديدة وجهت السوق نحو المسؤولية الاجتماعية، أي يمكنهم أن يعيدوا جمعها لمنافع مشتركة مثل؛ التعاون أو التشارك مع الموظفين، والتحاور مع الزبائن، واحترام البيئة، وشفافية صفقات الأعمال، لذا فهي اليوم مفاتيح النجاح. ليس على الرأسماليين أن يكونوا آلات لإنتاج الربح، طالما أن حياتهم يمكن أن يكون لها معنى عميق، أصبح شعارهم المفضل مسؤولية اجتماعية، كانوا أوّل من اعترف بفضل المجتمع عليهم ولاسيما من خلال السماح بنشر مواهبهم وجمع ثروة هائلة؛ لذا فمن واجبهم أن يردوا شيئاً إلى المجتمع ويساعدوا الناس العاديين.


Twitter: @ketab_n

مثل هذا النوع من المقاربة المهتمة هو ما يجعل نجاح الأعمال جديراً بالاهتمام، الروح الجديدة للمسؤولية العالمية قادرة على وضع الرأسمالية لتعمل كأكثر الآلات تأثيراً من الصالح العام. يمكننا تسمية المنطوق الأساسي الأيديولوجي للرأسمالية بالسبب الآلي أو الانفجار التقني أو جشع الأفراد أو أي شيء نريده منفصلاً عن شروطه الاجتماعية الاقتصادية المحددة (العلاقات الرأسمالية للإنتاج) ومتخلياً عن الحياة المستقلة أو الموقف الوجودي الذي يجب ويمكنه أن يكون متجاوزاً بنظرة أكثر «روحانية»، تاركاً هذه العلاقات الرأسمالية السليمة.

مع ذلك، ألم يكن الانهيار المالي الأخير في عام ٢٠٠٨ نوعاً من التعليق الساخر على الطبيعة الأيديولوجية لهذا الحلم للبيئة الرأسمالية المسؤولة روحياً واجتماعياً؟ كما نعرف جميعنا في ١١ ديسمبر ٢٠٠٨ كان برنارد مادوف[١] ـ المدير المستثمر الناجح وفاعل الخير من وول ستريت ـ قد أُوقف واتهم بأنه يشغل ٥٠ بليون دولار في مخطط بونزي أو هرمي[٢].

كان من المفترض أن تكون أموال مادوف استثمارات أقل خطراً؛ إذ قدم اعتماده المالي الأكبر عوائد ثابتة، عادة يربح مئة في

---

(١) برنار مادوف: أمريكي أُدين بالاحتيال وهو رئيس سابق غير تنفيذي في سوق الأوراق المالية لنازداك.

(٢) مخطط بونزي أو هرمي: عملية استثمار احتيالية حيث يكون المشغل فرداً أومنظمة ويدفع العائدات لمستثمريه من الرأسمال الجديد المدفوع من قبل مشغلين جدد لمستثمرين جدد.



Twitter: @ketab_n

المئة أو مئتين في الشهر. كانت إستراتيجية الأموال المعلنة هي شراء عدد كبير من أسهم الشركات وتزويد تلك الاستثمارات بإستراتيجيات خيارات الأسهم ذات العلاقة. كان من المفترض أن تولد الاستثمارات المترافقة عائداتٍ ثابتة وشركات خاسرة أيضاً.

لكن يوماً ما في عام ٢٠٠٥ ووفقاً لـ دعوى SEC[١]، تحول عمل مادوف الاستشاري الاستثماري إلى مخطط بونزي؛ إذ أخذ أموالاً جديدة من مستثمرين ليدفع لزبائن موجودين رغبوا بمبالغ نقدية، بالرغم من ربحه تصاعد أعداد المستثمرين الذين طلبوا استعادة أموالهم. في الأسبوع الأوّل من ديسمبر ووفقا لـ دعوى sec، أخبر مادوف المنفذ الأعلى بأن هناك طلبات استرداد من زبائن ب ٧ بلايين، التقى مادوف بابنيه ليخبرهما أن الأعمال الاستشارية كانت احتيالاً«مخطط بونزي ضخم»، أخبرهم بشكل تقريري وكان على وشك الإفلاس[٢].

ثمة سمتان تجعلان من هذه القصة مفاجئة جداً، أولاً: مثل تلك الإستراتيجية البسيطة بشكل أساسي والمعروفة جيداً كانت قادرة على النجاح في الحقل الحالي المتحكم به والشديد التعقيد المزعوم للمضاربة، ثانياً: لم يكن مادوف غريب الأطوار وهامشياً، بل هو شخصية من قلب المؤسسة المالية الأمريكية (نازداك)،

---

(١) لجنة الأوراق المالية والبورصات.

(٢) سقوط وول ستريت الأخير: مادوف متهم بالاحتيال، ستيفان جاندل، time، ١٢ كانون الأول، ٢٠٠٨.



Twitter: @ketab_n

منخرط في العديد من النشاطات الخيرية؛ لهذا على المرء أن يقاوم العديد من محاولات التعاطف معه ولاسيما تلك التي تقدمه أنه فاسد، الدودة الفاسدة في التفاحة المعافاة. وهي ليست كذلك، تعد حالة مادوف مثالاً مبالغاً فيه وسليماً لما تسبب به الانهيار المالي نفسه؟

هنا قد يسأل المرء سؤالاً ساذجاً: ألا يعرف مادوف أن مخططه على المدى الطويل سينهار بالتأكيد؟ ما الذي أعماه عن هذه الرؤية الواضحة؟ السبب ليس عيباً شخصياً أو لا عقلانياً، بل ضغط الدافع الداخلي في الاستمرار، لتوسيع فضاء الدوران رغبة بالحفاظ على التشغيل الآلي المرسوم في النظام نفسه للعلاقات الرأسمالية؛ أي إن إغواء تحويل الأعمال المشروعة إلى مخطط هرمي هو جزء من طبيعة عملية الدوران الرأسمالي نفسها. لا يوجد نقطة محددة توقف عندها عبور نهر روبيكون[1]، وتحول العمل المشروع إلى مخطط غير مشروع، تطمس دينامية الرأسمالية الشديدة الحدودَ بين الاستثمار المشروع والمضاربات الطائشة؛ لأن الاستثمار الرأسمالي هو ـ في صميمه ـ رهان محفوف بالمخاطر، فمؤشر ربح المخطط هو فعل استعارة من المستقبل، التحول المفاجئ الذي لا يمكن السيطرة عليه في الظروف يمكن أن يدمر الاستثمار الذي من

(١) نهر روبيكون: نهر في إيطاليا، والتعبير «عبور نهر روبيكون» يعني الوصول إلى نقطة اللاعودة، وهو يشير إلى تمرد جند يوليوس قيصر من خلال عبورهم النهر في ٤٩ قبل الميلاد والذي كان من أعمال التمرد.



Twitter: @ketab_n

المفترض أن يكون آمناً؛ لهذا السبب يعمل الخطر الرأسمالي، وفي رأسمالية «ما بعد الحداثة» تصعد المضاربة المدمرة الكامنة إلى أعلى مستوى مما يمكن تخيله في فترات سابقة[1].

خلال الأشهر الأخيرة فاجأتنا شخصيات عامة مثل قداسة البابا وغيره بأوامر محاربة ثقافة الطمع والاستهلاك المفرط، هذا المنظر المقرف للتفسير الأخلاقي الرخيص هو عملية أيديولوجية نموذجية؛ الإلزام للتوسيع الموصوف في النظام نفسه مترجم إلى قضية الذنب الشخصي والنزعة الخاصة النفسية. لذلك يبقى دوران الدفع الذاتي لرأس المال لذلك الواقع الغير محدود لحياتنا، الوحش الذي لا يمكن السيطرة عليه طالما أنه يتحكم بنشاطنا، ويعمينا عن الأخطار التي تغرينا حتى لو كانت واضحة، إنه إنكار كبير معبود مثلما تقول لنفسك: أعرف جيداً جداً الأخطار التي أقدم عليها، حتى حتمية الانهيار الأخير، لكن ومع ذلك أستطيع أن أؤجل الانهيار لمدة أطول قليلاً، أكثر خطورة بقليل، إنها تعمية ذاتية لا عقلانية مترابطة تماماً بلاعقلانية الطبقات الدنيا المصوتة ضد مصالحها الخاصة، وهناك إثبات آخر على السلطة المادية للأيديولوجيا هو الحب، فالأيديولوجيا عمياء حتى لو أن الناس الذين انغمسوا فيها لم يكونوا عميان.

---

(١) مصادفة، هي إشارة عن نضج شعب الولايات المتحدة؛ إذ إنه لم يظهر أي أثر لمعاداة السامية في ردود أفعالهم على الأزمة المالية بالرغم من أنه كان من السهل تخيل رد فعل من مثل: «هل لاحظت كيف أن الماليين اليهود جعلوا كادحينا الأميركيين يدفعون ٧٠٠ بليون دولار لتغطية كلفة حماقاتهم!»ز



Twitter: @ketab_n

## ٤ ـ الإنسان، الجميع إنسان أيضاً...:

يعلن العصر الحالي نفسه بأنه ما بعد أيديولوجي، لكن هذا الرفض للأيديولوجيا يقدم فقط البرهان النهائي بأننا أكثر من أي وقت مضى مطوقين بالأيديولوجيا. الأيديولوجيا دائماً هي حقل الصراع من بين أشياء أخرى، الكفاح من أجل تقاليد سابقة مناسبة. يُعدّ الخطاب التحرري لمارتن لوثر كينج[١] أحد المؤشرات الأكثر وضوحاً عن مأزقنا، فهو بنفسه عملية نموذجية أيديولوجية. لاحظ هنري لويس تايلور[٢] مؤخراً: «الجميع يعلم من هو مارتن لوثر كينج، وأن لحظته الأشهر كانت في خطابه (لديّ حلم)، ما من أحد يمكنه المضي أكثر من جملة واحدة، كل ما نعرفه هو أن هذا الرجل كان لديه حلم، لا نعرف ما كان هذا الحلم»[٣]. أتى كينج من طريق طويل بين الحشود المحيية في مارس من عام ١٩٦٣ في واشنطن، عندما كان مقدماً بوصفه «القائد المعنوي لأمتنا»، تابع قضايا أبعد من مجرد التفرقة، وخسر الكثير من الدعم الشعبي، وكان يُعدّ أكثر فأكثر منبوذاً كما وصفه هارفارد سيتكوف، لقد تناول قضايا الفقر والجندية؛ لأنه عدّها حيوية «لتحقيق المساواة في شيء حقيقي واقعي وليس فقط مساواة أخوة عرقية» لوضعها بتعابير

---

(١) مارتن لوثر كينج: قسٌ أمريكي وناشط إنساني، كان زعيماً لحركة الحقوق المدنية للأمريكيين من أصل إفريقي.

(٢) هنري لويس تايلور: باحث اجتماعي أمريكي.

(٣) هذا الاقتباس والاقتباسين التاليين (لسيتكوف وهاريس ليسويل) مأخوذون من تقرير للاسوشيتيد برس المعنون «إرث مارتن لوثر كينج أكثر من «خطاب الحلم» خاصته، متاح على الشبكة على wcbstv.com.



Twitter: @ketab_n

باديو، تبع كينج «حقيقة المساواة» خلف مفهوم واحد من التفرقة العنصرية، كان مترافقاً مع قضايا مناهضة للحرب والفقر في وقت موته، تحدّث ضد حرب فيتنام، وعندما قتل في شهر نيسان ١٩٦٣ كان في ممفيس لدعم إضراب عمال تصريف المجاري، وصفت ميليسا هاريس ليسويل[١] طريق كينغ «أن تتبع كينج يعني أن تتبع طريقاً غير مشهور».

كل المظاهر التي نعرفها اليوم مع الحرية والديمقراطية الليبرالية مثل اتحادات التجارة، والتصويت العالمي، والتربية الحرة العالمية، وحرية الصحافة، ...الخ.، وُجدت من خلال النضال الطويل للطبقات الدنيا خلال القرنين التاسع عشر والعشرين؛ أي إنها ليست إلا نتائج طبيعية للعلاقات الرأسمالية. استدعاء قائمة الطلبات التي ينتهي إليها البيان الشيوعي: أغلبهم باستثناء إلغاء الملكية الخاصة لأدوات الإنتاج، هي اليوم مقبولة على نطاق واسع في الديمقراطيات البورجوازية لكن فقط كنتيجة للكفاح الشعبي. هذا يؤكد حقيقة كثيراً ما تم تجاهلها اليوم هي المساواة بين البيض والسود، هذه القضية محتفى بها بوصفها جزءاً من الحلم الأمريكي، وتُعامل كبديهة ذاتية أخلاقية سياسية، لكن في العشرينيات والثلاثينيات كانت المجتمعات الأمريكية القوة السياسية الوحيدة التي تجادل من أجل مساواة عرقية تامة[٢].

---

(١) ميليسا هاريس ليسويل: كاتبة أميركية تركز على السياسات الأفروأميركية.

(٢) انظر: defying Dixie: الجذور الأصولية للحقوق المدنية، جيليندا إليزابيث جليمور، نيويورك: نورتون٢٠٠٧.



Twitter: @ketab_n

أولئك الذين يدّعون الرابط الطبيعي بين الرأسمالية والديمقراطية يزيفون الوقائع بالطريقة نفسها التي تزيف بها الكنيسة الكاثوليكية عندما تقدم نفسها على أنها محام «طبيعي» عن الديمقراطية وحقوق الإنسان ضد تهديد الشمولية، كما لو أن حالة أن الكنيسة قبلت الديمقراطية فقط عند نهاية القرن التاسع عشر لم تكن، وحتى حينها فعلتها وهي تعض على أسنانها كتسوية يائسة، مبدية أنها فضّلت الملكية، وهذا ما كان يصنع التنازل الممانع للأزمنة الجديدة.

وبالنظر إلى قدراتها على الإقناع، تبدو الأيديولوجيا مثل معارضتها «اللاإيديولوجيا» كقلب هويتنا الإنسانية تحت كل التصنيفات الأيديولوجية؛ لهذا السبب فإن رائعة جوناثان ليتل[1] les bienveillantes (الخيرين)[2] جارحة جداً ولاسيّما بالنسبة إلى الألمان؛ فهي تقدم أول رواية خيالية عن الهولوكوست من وجهة نظر مشارك ألماني، ss ober sturmbannfuhrer، ماكسيميليان أو[3]. المشكلة هي التالي: كيف يقدم السلوك الذي اختبر فيه الجلادون النازيون ورمّزوا لمأزقهم من دون أن يحدث أية شفقة أو حتى يبررهم؟ الذي يقدمه ليتل ـ للتعبير عنه بمصطلحات فاترة إلى حد ما ـ هو النسخة النازية المفرغة في قالب روائي من بريمو ليفي[4]،

---

(١) جوناثان ليتل: كاتب يعيش في برشلونة في إسبانيا، يحمل الجنسيتين الفرنسية والأمريكية.

(٢) انظر: الخيرين، جوناثان ليتل، نيويورك، نادي هابر للكتب، ٢٠٠٩.

(٣) ماكسيميليان أو: شخصية في كتاب الخيرين لجوناثان ليتل وهو ضابط في الحزب النازي.

(٤) بريمو ليفي: كاتب يهودي إيطالي.



Twitter: @ketab_n

هو بذاته لديه درس فرويدي رئيس لكل واحد منا: على المرء أن يرفض فكرة أن الطريق المناسب لقتال تشويه سمعة الآخر هي في تشخيصه، والاستماع إلى قصته، وفهم كيفية إدراكه للحالة، أو كما يعبر مشارك في حوار الشرق الأوسط: «العدو هو شخص ما، لم تسمع قصته بعد»، ثمة حدٌّ واضح لهذا الفهم: يمكن للمرء أن يتخيل دعوة سفاح نازي وحشي مثل ماكسميليان أو لدى ليتل الذي دعا نفسه ليتلوَ علينا قصته؟ هل من أحد جاهز أيضاً ليؤكد بأن هتلر كان عدواً فقط لأن قصته لم تسمع؟ هل تجدد تفاصيل حياته الشخصية الرعبَ الذي نتج عن سلطته، هل يجعلونه» أكثر إنسانية»؟ للاستشهاد بواحد من أمثلتي المفضلة، رينهارد هيدريش[1]، معماري الهولوكوست، أحب عزف الرباعي الوتري المتأخر لبيتهوفن مع أصدقاء خلال أمسيات فراغه. تجربتنا الأكثر بساطة عن التشخيص هي من «غنى حياتي الداخلية»: هذا ما «أنا عليه حقيقة» على النقيض من الأحكام الرمزية والمسؤوليات التي أتولاها في الحياة العامة (كأب، أستاذ، الخ.)، الدرس الأوّل في التحليل النفسي هنا هو هذا «الغنى للحياة الداخلية» هو زائف بشكل أساسي: إنها شاشة، مسافة خاطئة، وظيفتها هي أن تحفظ ظهوري لتقدم بشكل ملموس (سهلة الوصول إلى نرجسيتي التخيلية) هويتي الحقيقية الرمزية الاجتماعية. واحد من الطرق لاختبار نقد الأيديولوجيا هو اختراع إستراتيجيات لكشف هذا

(١) رينهارد هيدريش: كان مسؤولاً رفيع المستوى في النازية الألمانية وأحد مهندسي المحرقة.



Twitter: @ketab_n

النفاق «للحياة الداخلية» وعواطفها «المخلصة». التجربة التي نحظى بحياتنا من خلالها، القصة التي نخبرها لأنفسنا عن أنفسنا رغبة في تقييم ما نفعله، هي لذلك كذبة والحقيقة تكمن في الخارج فيما نفعله. هذه هي الفكرة التي يبينها الدرس الصعب من كتاب ليتل؛ إذ نلتقي فيه بشخص ما سمعنا قصته كلها لكن مع ذلك عليه أن يبقى عدونا. الذي لا يحتمل حقيقة حول الجلادين النازيين ليست تلك الأشياء الرهيبة التي قاموا بها، بل إلى أي حد يبقون بشراً، بينما يفعلون هذه الأشياء. «قصص نخبرها لأنفسنا عن أنفسنا» مناسبة للتشويش على حقيقة البعد الأخلاقي لأفعالنا، في إطلاق أحكام أخلاقية علينا أن نكون قصة عمياء؛ لهذا السبب نجد نصيحة الفريد جيلينك[1] لكتّاب المسرح ليست صحيحة فنياً وحسب بل لها تبرير أخلاقي عميق:

على الشخصيات أن تكون على الخشبة فاترة مثل الثياب في عرض للأزياء: ما تحصل عليه يجب ألا يكون أكثر مما تراه. الواقعية النفسية منفرة؛ لأنها تسمح لنا بالهرب من الواقع الغير مستساغ باتخاذ ملجأ لنا في «رفاهية» الشخصية، فاقدين أنفسنا في عمق الشخصية الفردية. مهمة الكاتب هي منع هذه المناورة، ليطاردنا إلى النقطة التي يمكن لنا منها أن نرى الرعب بعين نزيهة[2].

---

(١) الفريد جيلنيك: روائية وكاتبة مسرحية نمساوية حصلت على جائزة نوبل في الآداب لعام ٢٠٠٤.

(٢) مقتبس في نيكولاس سبايس، أعلى القبو، الفريد جيلينك لندن ريفيو اوف بوكس، ٥حزيران، ٢٠٠٨، ص ٦.



Twitter: @ketab_n

نفس إستراتيجية «الأنسنة» الأيديولوجية (بمعنى الحكمة الشهيرة «هو بشر خطاء») عنصر رئيس من التقديم الذاتي الأيديولوجي لقوى الدفاع الإسرائيلي (IDF). تحب وسائل الإعلام الإسرائيلية أن تمعن النظر في الأذيات النفسية وعيوب الجنود الإسرائيليين، وهي لا تقدمهم كآلات عسكرية مثالية ولا كأبطال خارقين، لكن كأناس عاديين، تمت محاصرتهم في صدمات التاريخ وحربه، يخطئون أحياناً ويضلون طريقهم؛ على سبيل المثال، عندما دمرت الـ IDF في كانون الثاني من عام ٢٠٠٣ منزل عائلة لـ «إرهابي» مشتبه به، فعلوا ذلك بلطف ظاهر، حتى في مساعدة العائلة على نقل أثاثها خارجاً قبل تدمير المنزل بالبلدوزر. حادثة مشابهه ذُكرت بشكل سابق قليلاً في الصحافة الإسرائيلية عندما كان جندي إسرائيلي يبحث في منزل فلسطيني عن مشتبهين، نادت أم العائلة ابنتها باسمها رغبة في تهدئتها، فوجئ الجندي أن الفتاة الخائفة تحمل اسم ابنته نفسه، وأخرج في تفجر عاطفي محفظته وعرض صورتها على الأم الفلسطينية. من السهل تمييز زيف نظرة التعاطف هذه: بالرغم من الاختلافات السياسية نحن جميعنا كائنات بشرية بشكل أساسي، لنا الطبيعة نفسها المُحبة والقلقة، تأثير النشاط الذي كان الجندي منخرطا به هو نفسه الإجابة الصحيحة الوحيدة للأم، كما يجب أن تكون: «إذا ما كنت حقاً كائناً بشرياً مثلي، لماذا تفعل ما تفعله الآن؟» يمكن للجندي أن يلجأ فقط إلى واجبه الرهيب: «لا يعجبني، لكنه واجبي..». هكذا يتفادى الفرضية الشخصية لواجبه.


Twitter: @ketab_n

خاصية مثل هذا التهذيب هي تأكيد الهوة بين الواقع المعقد للشخص والدور الذي عليه أن يلعبه ضد طبيعته الحقيقية. «في عائلتي، جيناتنا ليست عسكرية» كما يقول أحد الجنود الملتقى بهم في tsahal لكلود لانزمان[١] عام ١٩٩٤، متفاجئاً بإيجاد نفسه في مهنة ضابط[٢] بشكل ساخر، يتبع لانزمان هنا تقنية التهذيب نفسها التي يفعلها سبيلبيرج[٣]، هدف الاحتقار المطلق للانزمان كما في شواه، في تساحال يعمل لانزمان كلياً في الزمن الحاضر، رافضاً أية مشاهد لمعركة مؤرشفة أو سرد سيزوده ببعض المحتوى التاريخي. من البداية الأولى للفيلم نحن مرميون في medias res[٤]: ضباط مختلفون يتذكرون رعب حرب ١٩٧٣، بينما في الخلفية نرى آلات سمعية تعيد إنتاج تسجيلات أصيلة لما حصل عند لحظة الصدمة، عندما كانت الوحدات الإسرائيلية على الجبهة الشرقية من قناة السويس مجتاحة من قبل الجنود المصريين. استعملت أصوات الهرب كمنبه لتحويل الجنود السابقين الملتقى بهم نحو تجربتهم الصادمة: إنهم يتعرقون ويحيون ثانية الحالة التي قُتل فيها العديد

---

(١) كلود لانزمان: مخرج فرنسي عرف بالوثائقي الذي أخرجه عن الهولوكوست بعنوان shoah.

(٢) «tsahal» اختصار عبري يدل على القوى الدفاع الإسرائيلية. وهو عنوان لفيلم أخرجه كلود لانزمان في العام ١٩٩٤ عن قوى الدفاع الإسرائيلية.

(٣) ستيفن سبيلبيرج: مخرج أمريكي.

(٤) Medias res: عن اللاتينية ويعني في خضم الاشياء، وهي تقنية سردية أدبية للبدء برواية القصة من منتصفها.



Twitter: @ketab_n

من رفاقهم، ويستجيبون باعتراف كامل بضعفهم الإنساني، الذعر والخوف اعترف العديد منهم بصراحة بأن خوفهم لم يكن على حياتهم فقط، بل على وجود إسرائيل نفسها. ثمة وجه آخر لهذا التهذيب هو العلاقة الحميمة «الحيوية» بالسلاح، خصوصاً الدبابات، كما عبّر عنها واحد من الجنود الملتقى بهم: «لديها أرواح، إذا ما أعطيت دبابة الحب اهتمامك، فسوف تعطيك كل شيء».

تركيز لانزمان على تجربة الجنود الإسرائيليين للحالة الدائمة من الطوارئ والتهديد بالإبادة ذكر عادة لتبرير إبعاد وجهة النظر الفلسطينية من الفيلم: هم مرئيون ومصغرون إلى الخلفية الغير مشخصة. يظهر الفيلم كيف أن الفلسطينيين de facto[1] عوملوا بوصفهم طبقة دنيا، أخضعوا لسلطة العسكر والشرطة واحتجزوا للإجراءات البيروقراطية، لكن النقد الواضح الوحيد للسياسات الإسرائيلية في الفيلم هو ذاك الذي صيغ من قبل كتّاب إسرائيليين ومحامين (افيجدور فيلدمان، دافيد جروسمان، آموس عوز)[2] يمكن للمرء أن يدعي في قراءة خيرة (كما في مراجعة جانيت ماسلين [3] في النيويورك تايمز عن تساحال) بأن «لانزمان جعل هذه الوجوه تتحدث عن نفسها» جاعلاً اضطهاد الفلسطينيين يظهر

---

(١) De facto: وهو تعبير لاتيني يعني بحكم الأمر الواقع أو بما يتعلق بالواقعة.

(٢) افيجدور فيلدمان: سياسي إسرائيلي، دافيد جروسمان، آموس عوز: كاتبان إسرائيليان.

(٣) جانيت ماسلين: صحفية أمريكية.



Twitter: @ketab_n

كحضور خلفي، ساحقاً أكثر في صمته. لكن هل هو حقيقة كذلك؟ هنا لدينا وصف ماسلين للمشهد الرئيس نحو نهاية الفيلم، عندما ينخرط لانزمان في نقاش مع مقاول بناء إسرائيلي:

«بما أن العرب يعلمون أن اليهود سيكونون هنا إلى الأبد، فإنهم سيتعلمون التعايش مع هذه الفكرة» يصرّ هذا الرجل الذي شيدت منازله الجديدة على الأرض المحتلة، يعمل عمال عرب منشغلين خلفه وهو يتحدث متصدياً لأسئلة شائكة عن أن عمله كباني مستوطنات ينتعش، يناقض الرجل نفسه تلقائياً، هو أيضاً يرفض الاستسلام «هذه أرض إسرائيل» يصر بشكل ملتوٍ، كلما توقف السيد لانزمان الذي جعل مهمته اكتشاف أن علاقة الإسرائيليين بهذه الأرض تطرح واحداً من أسئلة عديدة ليس لها إجابات، أخيراً يتخلى المخرج في النهاية عن الجدال، يبتسم برباطة جأش ويرمي بذراعيه حول البناء، في تلك اللحظة يشرح كل الندم والإحباط المرئي في تساحال ويفعله بنظرة واحدة[1].

هل كان «لانزمان سيبتسم أيضاً برباطة جأش ويلقي بذراعيه حول العامل الفلسطيني في الخلفية، فيما إذا أبدى الأخير غضباً مدمراً ضد الإسرائيليين لاختزالهم إياه إلى وسيلة مدفوعة الأجر لتجريده من ملكيته لأرضه؟ في ذلك يقيم الغموض الأيديولوجي لتساحال: يلعب الجنود الملتقى بهم دور «النفوس البشرية

(١) تساحال: تأمل لانزمان عن دفاع إسرائيل، جانيت ماسلين، نيويورك تايمز، ٢٧ كانون الثاني، ١٩٩٥.



Twitter: @ketab_n

العادية»، إنهم يجسدون الأقنعة التي بنيت لأنسنة أفعالهم، إلغاز أيديولوجي يصل ذروته الساخرة التي لا يمكن تجاوزها عندما يظهر إريل شارون كمزارع سلمي.

من المثير للانتباه ملاحظة أن عملية «أنسنة» مشابهة تحضر بشكل متصاعد في الموجة الحالية من المقبلين على الأبطال الخارقين (الرجل العنكبوت، الرجل الوطواط، هانكوك...)، وهذيان النقاد عن كيفية انتقال هذه الأفلام خلف شخصيات الكتاب الأصلي الهزلي المسطحة وتسكن في تفصيل فوق الحيرة، والضعف، والشكوك، والمخاوف، والقلق على البطل الخارق، كفاحه مع شياطينه الداخلية، مواجهته مع جانبه المظلم..إلخ، كما لو أن كل هذا يجعل الإنتاج المتفوق التجاري أكثر فنية (الاستثناء في هذه السلسلة وغير قابل للكسر[1] المدهش ل م. نايت شيامالان).

وصلت عملية الأنسنة في الحياة الواقعية إلى أوج ازدهارها بلا شك في البيان الصحفي الأخير لكوريا الشمالية الذي ذكر أنه لدى افتتاح لعبة في أول ملعب جولف في البلاد، برع الرئيس المحبوب كيم يونج ايل بإنهاء اللعبة ذات الـ ١٨ حفرة بـ ١٩ ضربة. يمكن للمرء أن يتخيل جيداً حجج الدعاية البيروقراطية: لم يكن أحداً ليصدق بأن كيم كان قد تدبر أمر حفرة واحدة في كل مرة، لذا

(١) Unbreakable: فيلم أنتج عام ٢٠٠٠ من إخراج المخرج م. نايت شيامالان.



Twitter: @ketab_n

لجعل الأشياء واقعية، دعنا نعترف بأنه فقط مرةً احتاج إلى ضربتين لينجح...

لسوء الحظ، النوع نفسه من أضرار «الأنسنة» the baader meinhof complex[1] (٢٠٠٨)، تصور مثير للاهتمام من نوع مختلف عن مصير الجيل الأول لمجموعة من فصيل من الجيش الأحمر (Ulrike meinhof, Gudrun ensslin, andreas baader) في ألمانيا. وجهة النظر الخاصة بالفيلم، الموقف المقدم ضمنياً للمشاهد كنقطة تعريف، عن ماينهوف، «الإرهابية» التي تبقى مع هذا «بشراً»، تهاجمها المخاوف والشكوك، تورطت في تفكير مستمر بمحنتها، على عكس انسلين وبادر الذين قدما على أنهما لا إنسانيين بوحشية في كمالهما «الملائكي»، تظهر الفجوة التي تفصلهما في أوضح ما يمكن في حالات انتحار كل منهم: تعلق ماينهوف نفسها بيأس بعد تحطم وجودها السياسي الأخلاقي كله، بينما قتل انسلين وبادر نفسيهما كبيان سياسي مخطط ببرود. (في هذه الناحية، ماينهوف هي في طباق مع محقق الشرطة الرئيس الذي ينسق للقبض على الإرهابيين، الذي لعب دوره برونو جانز: على عكس رفاقه، الذين يرغبون فقط بإبادة الإرهابيين، يفكر الرئيس أيضاً في أسباب الإرهاب ويظهر اعتباراً لمضمون سياسي أيديولوجي واسع.)

علينا توسيع هذه الرؤية من دون خوف نحو إشكالية زيف

---

(١) مجمع بادر ماينهوف فيلم ألماني، إخراج: اولي ايديل، إنتاج عام ٢٠٠٨.



Twitter: @ketab_n

«الأنسنة» إلى الصيغة الجماعية الأساسية جداً من «رواية القصص عن أنفسنا» إلى قوام ترميزي يوفر تأسيس المجتمع (الإثنية، طريقة العيش، الجنسية، الدين...). يمكن أن يقدم تمييز (كانت) بين استعمال العام والخاص للسبب مساعدة رائعة هنا: المشكلة الرئيسة لصيغ ما يسمى «سياسات الهوية» هي تركيزها على الهويات «الخاصة»الأفق غير المحدود من التسامح والاختلاط لمثل هذه الهويات، وكل عالمية، كل سمة تعبر الحقل كاملاً، رفضت بوصفها مستبدة. العالمية البولسية[1]، على العكس، هي شكل مكافح. عندما يقول بولس: «ليس هناك إغريق أو يهود، لا رجال ولا نساء..». هذا لا يعني بأننا جميعنا عائلة بشرية سعيدة، لكن بدلاً من ذلك هناك تقسيم واحد كبير يعبر كل هذه الهويات الخاصة، معيداً إياها بلا علاقة بشكل غير محدود: «ليس هناك إغريق أو يهود، لا رجال ولا نساء... هناك فقط مسيحيون وأعداء للمسيحية!» أو كما نحب أن نعبر عنها اليوم: هناك فقط هؤلاء الذين يقاتلون للانعتاق ومعارضيهم الرجعيين، الناس وأعداء الناس.

لا عجب بأن جانب الـ «المواضيع السامّة» أحرز تقدما مؤخراً، تُعرّف ليليان جلاس[2] في كتابها «أناس سامّين» ثلاثين نوعاً من هؤلاء الناس بعضهم بتعريفات مازحة مثل «المنافق المبتسم في

(١) نسبة إلى بولس الرسول.
(٢) ليلان جلاس: خبيرة أمريكية في التواصل ولغة الجسد وكاتبة.


Twitter: @ketab_n

الوجه ويطعن في الظهر»[1]، تقدم جلاس في كتابها امتحان الناس السامّين لمساعدة القراء على تحديد الفئة المتوقعة من الإرهاب السامّ التي ينتمون إليها، وتقترح عشر تقنيات من أجل التعامل معها، بما فيها المزاح، والمواجهة المباشرة، والشك الهادئ، وأرسلهم إلى الجحيم واصرخ، والحب واللطف، والخيال المفوض...الخ. معترفة بأننا كلنا سامون، تقدم جلاس أيضاً «مخزون الصورة السامّة» سامحة لنا بتحديد أشكال سلوكنا التدميرية.

يمضي ألبرت ج. برنشتاين[2] في خطوة «بلاغية» متقدّمة، مجسداً أساطير الرعب ومتحدثاً بصورة مباشرة عن مصاصي الدماء العاطفيين الذين يفترسوننا وهم يتنكرون في هيئة أناس عاديين، هم ربما يترصدونك في مكتبك وعائلتك ودائرة أصدقائك، هم ربما يشاركونك سريرك[3]، هم لمّاعون موهوبون وساحرون، يكسبون ثقتك ومودتك، ثم يصرفون طاقتك العاطفية. تتضمن فئتهم الأساسية نرجسيي الخدمة الذاتية، التلذذيين الغير اجتماعيين، المذعورين المنهكين، وعلى القمة ملكات الدراما الهستيريات، كما يقدم برنشتاين أيضاً مجموعة من إستراتيجيات الدفاع المقدمة لمنع مخلوقات مصاصي العتمة من امتصاصك حتى الجفاف.

---

(١) انظر: أناس سامين، ليليان جلاس، نيويورك: سيمون وشوستر، ١٩٩٥.

(٢) البرتج.برنشتاين: مؤلف كتاب «مصاصو الدماء العاطفيين».

(٣) انظر: مصاصو الدماء العاطفيين: التعامل مع الناس الذين يستنزفونك، ألبرت ج. بيرنشتاين، نيويورك: ماك جرو هيل، ٢٠٠٢.



Twitter: @ketab_n

يتوسع جانب «المواضيع السامة» أكثر بكثير خلف مرجعه المباشر نحو العلاقات الشخصية في طريقة «ما بعد حداثية» نموذجية، المسند «سمّي» يغطي الآن سلسلة من الملكيات التي قد تنتمي لمستويات مختلفة تماماً (الطبيعة، الثقافة، علم النفس، علم السياسة)؛ لذلك ربما يكون «الموضوع السمّي» مهاجراً مع مرض قاتل لا بدّ من الحجر عليه، إرهابي تتطلب خططه المميتة الإحباط، ومن ينتمي إلى جوانتانامو إيديولوجي متطرف يجب إسكاته؛ لأنه ينشر الكراهية، قد يكون أهل، معلم، أو كاهن ينتهك أو يفسد الأطفال.

لكن في النظرة الهيجيلية[1] للكونية، على المرء أن يعبر الممر من المسند إلى الموضوع: من وجهة نظر الموضوع الحر المستقل بذاته، أليس هناك شيء «سمّي» حول فكرة الأهل نفسها، هذا الوسيط الطفيلي الذي يخضع الموضوع إلى سلطة في عملية تأسيسه كحر ومستقل ذاتياً؟ إذا ما كان هنالك درس تحليلي يستخلص حول الأبوة، فهو ليس من أهل أنقياء، أو عديمي السمّية، بعض الوسخ الشهواني سوف يلطخ دائما الشخصية الأبوية المثالية. وعلى المرء أن يدفع هذا التعميم إلى النهاية، السمّي هو في النهاية الجار أيضاً، لجة رغبته ومتعته البذيئة. الهدف النهائي لكل القواعد التي تحكم العلاقات الشخصية، إذن، هي حجْر أو

(١) نسبة إلى هيجل.



Twitter: @ketab_n

تطبيع هذا البعد السمّي، لتحويل الجار إلى زميل. ولهذا ليس كافياً البحث عن المكونات السامّة العرضية في موضوع «آخر»؛ لأن الموضوع على هذا النحو هو سمّ في شكله نفسه، في هاوية اختلافه، ما يجعله سمّياً هو objet petit a[1] الذي يتمحور عليه اتساق الموضوع. عندما نفكر بأننا نعرف صديقاً مقرباً أو قريباً، كثيراً ما يحدث وبشكل مفاجئ أن يفعل هذا الشخص شيئاً، ينطق بملاحظة قاسية أو فظة بشكل غير متوقع، يقوم ببادرة بذيئة، يمثل نظرة باردة لا مبالية في حين أننا ننتظر التعاطف منه، مما يجعلنا نعي أننا لا نعرفهم حقيقة، نصبح واعين لغريب تماماً قبالتنا، عند هذه النقطة، يصبح الرفيق جاراً.

كما لو في إيماءة تهكمية لنظرية جيورجيو آجامبين عن حالة الاستثناء، أعلنت الحكومة الإيطالية في تموز عام ٢٠٠٨ حالة الطوارئ على امتداد إيطاليا كي تتعامل مع مشكلة الجار في شكله النموذجي المعاصر: الدخول الغير شرعي للمهاجرين من شمال إفريقيا وأوربا الشرقية. متخذة خطوة متقدمة في هذا الاتجاه، نشرت في بداية آب ٤٠٠٠ جندياً مسلحاً للتحكم بالنقاط الحساسة في المدن الكبرى (محطات القطار، المراكز التجارية...) ولهذا رفعت مستوى الأمن العام، كما توجد خطط لاستعمال القوات

---

(١) Objet petit a: في نظرية التحليل النفسي عند جاك لاكان يسمى أحياناً الموضوع المسبب للرغبة.



Twitter: @ketab_n

المسلحة لحماية النساء من المغتصبين. ما تهم ملاحظته هنا هو أن حالة الطوارئ قُدّمت من دون أي اهتمام عظيم، الحياة تمضي بشكل عادي... أليست هذه الحالة التي قاربناها في البلدان المتطورة حول العالم، حيث هذا أو ذاك الشكل من حالة الطوارئ (انتشر ضد الإرهاب المدمر، ضد المهاجرين..إلخ) مقبول ببساطة كإجراء ضروري لحماية الاستمرار الطبيعي للأشياء؟

فما هي واقعية حالة الطوارئ هذه؟ عندما تمت محاكمة سبعة صيادين تونسيين في صقلية ٢٠ أيلول عام ٢٠٠٧ لارتكابهم جريمة إنقاذ أربعة وأربعين مهاجراً إفريقياً من موت محتم في البحر، هذه الحادثة ستجعل الأمر واضحاً، إذا ما أدينوا بتهمة «مساعدة وتحريض مهاجرين غير شرعيين»، فسيواجهون ما بين سنة وخمس عشرة سنة سجن. في السابع من شهر آب، رسا الصيادون على طبقة صخرية تبعد ثلاثين ميلا جنوب جزيرة لامبيدوزا[١] قرب صقلية، وغرقوا في النوم وصحوا على صراخ، رأوا قارباً مطاطياً مليئاً بأناس يتضورون جوعاً، بما فيهم نساء وأطفال، يتخبطون في الأمواج القاسية على حافة الغرق، قرر القبطان أن يجلبهم إلى أقرب مرفأ عند لامبيدوزا، حيث تم توقيفه هو وكامل طاقمه، عندئذٍ اتفق جميع المراقبين بأن الهدف الحقيقي لهذه المحاكمة العبثية هو ثني طاقم قارب آخر عن فعل الشيء نفسه: ما من تحرك

(١) لامبيدوزا: جزيرة في إيطاليا.



Twitter: @ketab_n

اتخذ ضد صيادين آخرين عندما وجدوا أنفسهم في حالة مشابهة، إذ أُبلغ عنهم عندما أبعدوا المهاجرين ضرباً بالعصي، تاركين إياهم يغرقون[١]. ما تبرهن عليه هذه الحادثة هو أن مفهوم آجامبين[٢] عن الـ homo sacer، المستثنى الوحيد من النظام المدني الذي يمكن أن يقتل بالحصانة، هو فعّال بالكامل في قلب أوربا ذاتها التي ترى نفسها المعقل النهائي لحقوق الإنسان والمساعدة الإنسانية، على النقيض من الولايات المتحدة الأمريكية وتجاوزات «الحرب على الإرهاب». كان الصيادون التونسيون هم الأبطال الوحيدون في هذه المسألة، وقد صرح قبطانهم عبد الكريم بيوض ببساطة: «أنا سعيد بما فعلته».

أفضل صياغة لـ» معاداة السامية المعقولة» تعود إلى عام ١٩٣٨ لروبرت برازيلاش[٣]، الذي رأى نفسه معادٍ«معتدل» للسامية:

نحن نمنح لأنفسنا الحق بالتصفيق لشارلي شابلن[٤]نصف اليهودي في الأفلام، وأن نعجب ببروست[٥] نصف اليهودي،

---

(١) انظر: تقرير بيتر بوفام، «صياد سمك تونسي يواجه ١٥ سنة حبس في إيطاليا لإنقاذه مهاجرين من البحار الهائجة»، الاندبيندنت، ٢٠ أيلول، ٢٠٠٧، ص٣٠.

(٢) جورجيو آجامبين: فيلسوف إيطالي، مفهوم «homo sacer» أو الشخص المقدس أو الملعون: هو شخص محظور في القانون الروماني، يمكن أن يقتل من دون اعتبار من قتله بأنه قاتل يجب تجريمه.

(٣) روبرت برازيلاش: كاتب وصحفي فرنسي.

(٤) شارلي شابلن: الممثل والمخرج الإنجليزي.

(٥) مارسيل بروست: الروائي الفرنسي.



Twitter: @ketab_n

للتصفيق ليهودي مينوحين[1] اليهودي، وصوت هتلر المحمول على موجات الراديو المسماة على اسم هيرتز اليهودي... نحن لا نريد أن نقتل أحداً، ولا نريد تنظيم أي برنامج، لكننا نفكر أيضاً بأن أفضل طريقة لإعاقة التحركات الغير متوقعة دائماً من معاداة السامية الفطرية هي بتنظيم معاداة معقولة للسامية[2].

أليس هذا السلوك نفسه في الطريقة التي تتعامل بها حكوماتنا مع ال» التهديد المهاجر»؟ بعد الرفض الشعبي المبرر أخلاقياً للعنصرية بوصفها «غير معقولة» ومعاييرنا الديمقراطية المقدمة الغير مقبولة، هم يصادقون بـ» معقولة» على إجراءات الوقاية العنصرية مثل البرازيلاشية الحديثة، يخبرنا بعض من الديمقراطيين الاجتماعيين: «نحن نمنح لأنفسنا الحق بالتصفيق للرياضيين الأفارقة والأوربيين الشرقيين، والأطباء الآسيويين، لمصممي البرامج الهنود، نحن لا نريد أن نقتل أحداً، ولا نريد تنظيم أي برنامج، لكننا نفكر أيضاً بأن أفضل طريقة لإعاقة التحركات الغير متوقعة دائماً من الاحتجاجات العنيفة ضد المهاجرين هي بتنظيم حماية معقولة من المهاجرين». هذه الرؤية عن إزالة سمّية الجار تقدم ممراً واضحاً من البربرية المباشرة إلى البرلسكونية البربرية بوجه بشري.

شخصية برلسكوني[3] بوصفه قائداً» إنساناً، كلي الإنسانية أيضاً»

---

(١) يهودي مينوحين: عازف كمان أمريكي.

(٢) مقتبس عن «عقل متحدي» لرادبود، المتاح على:
www.europalandofheroes.com

(٣) سيلفيو برلسكوني: كان رئيساً لوزراء إيطاليا.



Twitter: @ketab_n

حاسمة هنا، طالما أن إيطاليا اليوم بشكل فعلي تشكل نوعاً من مختبر تجريبي لمستقبلنا. إذا ما انقسم مشهدنا السياسي بين التكنوقراط الليبرالي المتساهل والتعصب الشعبي، فإنجاز برلسكوني العظيم هو توحيد الاثنين والإمساك بهما في وقت واحد. إنها التركيبة التي تجعله لا يُغلب، على الأقل في المستقبل القريب، الآن الباقي من الإيطاليين «اليسار» يقبلونه بإذعان كالقدر. يُعدّ هذا القبول الصامت لبرلسكوني المظهر الأكثر قتامة في حكمه، ديمقراطيته هي ديمقراطية هؤلاء الذين أينما كانوا يربحون بالإهمال، الذين يحكمون من خلال إرباك متهكم.

ما يجعل من برلسكوني مثيراً جداً للاهتمام كظاهرة سياسية هي أنه أكثر السياسيين النافذين في بلاده، يتصرف بوقاحة أكثر وأكثر، هو لا يتجاهل فقط أو يبطل أي تحقيق شرعي في نشاط إجرامي دعم زعماً مصالح أعماله الخاصة، بل أيضاً يقوّض بشكل منظم الوقار الأساسي المترافق مع كونه رأساً للدولة. كما أسقط وقار السياسيين التقليديين في صعوده على مسرحية مصالح خاصة في المجتمع المدني: السياسة «مبعدة» عن المجتمع المدني، إنها حاضرة بنفسها بوصفها فضاءً مثالياً لـ citoyen[1] على عكس نزاع المصالح الأنانية التي تشخص البرجوازيين. أبطل برلسكوني هذا الإبعاد: في إيطاليا المعاصرة، سلطة الدولة مجربة مباشرة من قبل قاعدة البرجوازيين التي تستثمر بقسوة وبحرية سلطة الدولة كوسيلة

(١) عن الفرنسية وتعني المواطن المدني.



Twitter: @ketab_n

لحماية مصالحها الاقتصادية، والتي تنظف الغسيل الوسخ لمشاكل زواجه الخاص في نظام استعراض الواقع السوقي أمام الملايين ممن يشاهدون شاشات تلفزاتهم.

ريتشارد نيكسون كان آخر رئيس أمريكي مأساوي بصدق. كما ظهر في فيلمين رائعين عنه (فيلم أوليفر ستون نيكسون وفيلم فروست/ نيكسون الأخير)[1] كان محتالاً، لكنه محتال وقع ضحية للهوة بين نماذجه وطموحاته وواقعية أفعاله، ولهذا السبب اختبر سقوطاً مأساوياً أصيلاً مع رونالد ريجان وكارلوس منعم في الأرجنتين، شخصية مختلفة عن الرئيس دخلت المنصة، الرئيس الـ «Teflon»[2] هو الوحيد الذي أغري ليشخص على أنه ما بعد أوديبي: رئيس «ما بعد حداثي» لم يعد مقبولاً أن يعود بثبات إلى برنامجه الانتخابي، لهذا أصبح غير نفاذ للنقاد (نتذكر كيف تنامت شعبية ريجان بعد كل ظهور شعبي، عندما عدد الصحفيين أخطاءه). هذا النوع الجديد من رئيس يمزج ما يبدو أنه انفجارات ساذجة عفوياً مع أكثر تلاعب عديم الرحمة.

إن رهان أعمال برلسكوني السوقية المخلة هو أن الناس سيشعرون معه كما لو أنه يجسد أو يشرع الصورة الأسطورية عن

---

(١) فيلم أخرج عام ٢٠٠٨ من إخراج رون هوارد.

(٢) تيفلون: هو اللقب الذي أطلق على الرئيس الأمريكي رونالد ريجان ويعني الرئيس الذي حافظ على شعبيته بالرغم من الانتقادات التي وجهت إليه، وتيفلون تعني الذي لا يلصق المستمدة من أدوات الطبخ.



Twitter: @ketab_n

الإيطالي العادي «أنا واحد منكم، فاسد قليلاً، لدي مشاكل مع القانون، لقد انفصلت عن زوجتي لأني انجذبت لامرأة أخرى..». حتى تشريعه الفخم للسياسي النبيل، il cavaliere[1]، يشبه بسخافة حلم رجل فقير أوبرالي عن العظمة. ومع ذلك يجب ألا يخدعنا ظهوره بأنه «فقط رجل عادي مثلنا»، هناك تحت القناع الفظ براعة من سلطة الدولة تعمل بكفاءة لا ترحم. حتى إذا ما كان برلسكوني مهرجاً من دون كرامة، علينا ألا نضحك عليه كثيراً، ربما نحن بالفعل نلعب لعبته. ضحكه كثيراً ما يشبه الضحك الفاحش المجنون لعدو البطل الخارق من أفلام بات مان أو سبايدر مان. لأخذ فكرة عن طبيعة حكمه، على المرء أن يتخيل شيئاً ما مثل الجوكر من باتمان في السلطة. المشكلة هي أن الإدارة التكنوقراطية المترافقة مع واجهة فظة لا تفي نفسها بالغرض: شيء ما مطلوب أكثر، تحديداً الخوف. هنا يدخل برلسكوني الوحش ذو الرأسين، مشدداً على المهاجرين والشيوعيين (الاسم العام الذي يطلقه برلسكوني على أي شخص يهاجمه، بما في ذلك على مجلة بريطانية من يمين الوسط، the economist).

كتبت أوريانا فالاتشي[2] (التي كانت بخلاف ذلك متعاطفة مع برلسكوني إلى حد ما): «لا تحتاج السلطة الحقيقية إلى غطرسة ولحية طويلة وصوت ينبح، السلطة الحقيقية تخنقك بشرائط

---

(١) الفارس.

(٢) أوريانا فالاتشي (١٩٢٩-٢٠٠٦): صحفية وكاتبة إيطالية.



Twitter: @ketab_n

حريرية، بالسحر والذكاء». رغبة في فهم برلسكوني، على المرء فقط أن يضيف لهذه السلسلة موهبة الاستهزاء الغبي بالنفس. يقدم كونج فو باندا[1] فيلم الرسوم المتحركة الشهير لعام ٢٠٠٨ الإحداثيات الأساسية لتشغيل الأيديولوجيا المعاصرة. يحلم دب الباندا السمين أن يصبح محارب كونج فو مقدساً، وعندما ـ من خلال حظ أعمى تندس تحته بالطبع يد القدر ـ يتم اختياره ليكون بطلاً منقذاً مدينته، ينجح، قُوّضت هذه الروحانية الشرقية الزائفة بثبات بواسطة روح النكتة البذيئة التهكمية. المفاجأة هي كيف أن هذا الاستهزاء المستمر بالذات من المستحيل أن يعيق تأثير الروحانية الشرقية، يحمل الفيلم بشكل غير محدود أضحوكة نكاته اللانهائية على محمل الجدّ بشكل مشابه لواحدة من حكاياتي المفضلة بخصوص نايلز بوهر[2]: تفاجأت لدى رؤية حدوة حصان فوق باب المنزل الريفي لبوهر، تعجب العالم الزميل الزائر له بأنه لا يشاطره المعتقدات الخرافية فيما يتعلق بإبعاد حدوة الحصان للأرواح الشريرة عن المنزل، والتي سخر منها بوهر: «لا أؤمن بها أيضاً، أنا أضعها هناك؛ لأنه قيل لي بأنها تعمل حتى عندما لا يكون المرء مؤمنا بها». هذه بالفعل الطريقة التي تعمل بها الأيديولوجيا اليوم، لا أحد يأخذ الديمقراطية أو العدالة على محمل الجد، نحن جميعنا نعي طبيعتها الفاسدة لكننا نشترك فيها، نحن نعرض معتقدنا فيها، لأننا نفترض بأنها تعمل حتى

---

(١) كونج فو باندا: فيلم من إخراج مارك اوزبورن وجون ستيفنسون.

(٢) نايلز بوهر (١٨٨٥-١٩٦٢): عالم فيزياء دانماركي.



Twitter: @ketab_n

وإن لم نكن نؤمن بها. لهذا برلسكوني هو الكونج فو باندا الكبير الخاص بنا. ربما ملاحظة الأخوة ماركس الكبار «هذا الرجل يبدو كأحمق فاسد ويتصرف كذلك، لكن هذا يجب ألا يخدعك، إنه أبله فاسد»، تنتهي هنا، بينما برلسكوني هو ما يظهر عليه، هذا الظهور مع ذلك يبقى مضللاً.

## ٥ ـ الرّوح الجديدة للرأسماليّة:

هكذا الخوف من الآخر «السامّ» هو الوجه الآخر لتعاطفنا مع الآخر المحوّل إلى زميل، لكن كيف ينشأ هذا التزامن؟ يتفحّص كتاب الروح الجديدة للرأسمالية لبولتانسكي وشيابيلو[١] هذه العملية بتفصيل ولاسيّما فيما يتعلق بفرنسا. في الأسلوب الفيبيري[٢] يميز الكتاب ثلاثة «أرواح» متعاقبة للرأسمالية؛ الأولى: الروح التجارية التي استمرت حتى الاكتئاب العظيم عام ١٩٣٠، الثانية: لم تتخذ رجل الأعمال مثالاً لها بل المدير ذي المرتب الكبير للشركة الكبيرة. (من السهل أن نرى هنا مواز قريب مع الممر المعروف جيداً من الرأسمالية البروتستانتية الفردية إلى الرأسمالية الإدارية المتعلقة بالشركات «للرجل المنظم»[٣] من السبعينات

---

(١) لوك بولتانسكي: عالم اجتماع فرنسي.
ايف شيابيللو: متخصصة في العلوم الإدارية والاجتماعية.

(٢) نسبة لماكس فيبر: عالم الاجتماع الألماني.

(٣) من أجل شرح مفصل لهذه الفقرة، انظر لوك بولتانسكي وايف شيابيللو، الروح الجديدة للرأسمالية، لندن، إصدار ٢٠٠٥.



Twitter: @ketab_n

وصاعداً، انبثق شخص جديد: بدأت الرأسمالية تتخلى عن البنية الفوردية[1] الهرمية في العملية الإنتاجية وفي مكانها تطورت شبكة مؤسسة من منظمة أوجدت مبادرة التوظيف والاستقلال في مكان العمل. بدلا من السلسلة المركزية الهرمية للقيادة، نحن نرى الآن شبكات مع كثرة من المشاركين، مع عمل منظم في صيغة الفرق أو المشاريع، وتجسيد عام لتركيز العمال على زبون راضٍ يشكر رؤية قائدهم. في هذه الأساليب تحولت الرأسمالية وأجيزت بوصفها مشروعاً يدعو إلى المساواة: إبراز التفاعل الشعري والتنظيم الذاتي العفوي، حتى أنه اغتصب خطاب أقصى اليسار للتدبير الذاتي للعمال، محولاً إياه من شعار معادي للرأسمالية إلى شعار رأسمالي.

بقدر ما تشكل هذه الروح الرأسمالية ما بعد الـ ٦٨ وحدة اقتصادية واجتماعية وثقافية خاصة، تبرر تلك الوحدة بذاتها الاسم «ما بعد الحداثي». لهذ السبب بالرغم من أن كثيراً من الانتقادات المبررة قدمت ما بعد الحداثة كشكل جديد للأيديولوجيا، على المرء أن يعترف بما قام به جين فرنسوا ليوتارد[2] في كتابه «شرط ما بعد الحداثة»؛ إذ رفع المصطلح من مجرد تسمية بعض الميول الفنية الجديدة (خاصة في الكتابة وفن العمارة) إلى تصميم عصر

---

(١) الفوردية: نسبة إلى هنري فورد؛ وهو مفهوم في النظام الاقتصادي والاجتماعي الحديث المؤسس على الشكل المعياري والصناعي من الإنتاج الضخم.

(٢) جان فرانسوا ليوتارد (١٩٢٤-١٩٩٨): فيلسوف فرنسي وعالم اجتماع.



Twitter: @ketab_n

جديد تاريخي، ثمة عنصر ترشيح أصيل في فعله. تعمل «ما بعد الحداثة» الآن بفعالية كدالة أساسية تقدم نظاماً جديداً من الوضوح للتعددية المشوشة من التجربة التاريخية.

عند مستوى الاستهلاك، هذه الروح الجديدة هي ما يسمى «الرأسمالية الثقافية»: نحن مبدئياً لا نشتري السلع بالنظر إلى استعمالاتها ورمزية حالتها، بل نشتريها للحصول على التجربة التي توفرها، نستهلكها رغبة في تقديم المتعة والمعنى لحياتنا. هذا الثلاثي لا يمكنه إلا أن يبرهن الثالوث اللا كاني RSI[1]: واقعية المنفعة المباشرة (الغذاء الصحي الجيّد، نوعية السيارة، الخ) رمزية الحالة (أشتري سيارة محددة لأدل على حالتي، منظور ثورستين فيبلين)[2] تخيلية التجربة الممتعة ذات المعنى. في ديستوبيا بول فيرهوفين[3] «total recall» استدعاء كليّ، تقدم وكالة تنصيب ذكريات عطلة مثالية في الدماغ، وسرعان ما يحصل المرء على سفر حقيقي إلى مكان آخر، إن شراء ذكريات الرحلة عملي أكثر وأرخص. نسخة أخرى من المبدأ نفسه ستجرب العطلة المرغوبة في واقع افتراضي طالما أن الذي يهم هو التجربة، لمَ لا نمضي فقط من أجل ذلك، عن طريق تمرير انعطاف أخرق عبر الواقع؟ من المفترض أن يحافظ الاستهلاك على نوعية الحياة، وأن يكون

---

(١) RSI: وهي الأحرف الأولى من real, symbolic, imaginary المنظومة الثلاثية عند جاك لاكان.

(٢) ثورستين فيبلين (١٨٥٧-١٩٢٩): اقتصادي أمريكي وعالم اجتماع.

(٣) بول فيرهوفين: مخرج وكاتب سيناريو هولندي، أُخرج فيلمه «استدعاء كلي» عام ١٩٩٠.



Twitter: @ketab_n

زمنه «زمن النوعية» وليس زمن اغتراب النماذج المقلدة المفروضة من قبل المجتمع خوفاً من عدم قدرتها «على مجاراة الجوار»، لكن زمن الوفاء الأصيل لحياتي الحقيقية، للعبة الحسية وللتجربة، وبالاهتمام بالآخرين، عبر انخراطك في الجمعيات الأهلية أو البيئية، .. الخ. هنا حالة نموذجية من «رأسمالية الثقافة»: «إعلان حملة ستاربكس»[1] ليس ما تشتريه وحسب، بل ما تشتريه من خلاله، بعد الاحتفال بنوعية القهوة نفسها يواصل الإعلان: لكن عندما تشتري ستاربكس، سواء أدركت أم لا، فأنت تشتري شيئاً ما أكثر من كوب قهوة، تشتري أخلاق القهوة. من خلال برنامج الكوكب المشترك الخاص بستاربكس، نحن نشتري قهوة التجارة الأكثر عدلاً من أي شركة في العالم، ضامنين أن المزارعين الذين زرعوا الحبوب يتلقون سعراً عادلاً لقاء عملهم الشاق. نستثمر ونطور في ممارسات زراعة القهوة ومجتمعات حول العالم. إنها كارما القهوة الجيدة...، وقليلاً من سعر كوب القهوة من ستاربكس يساعد بتنظيف المكان بكراسي مريحة، موسيقى جيدة، والجو المناسب للحلم، والعمل والمحادثة. نحن جميعنا في هذه الأيام بحاجة إلى مثل تلك الأماكن، عندما تختار ستاربكس فأنت تشتري فنجان قهوة من شركة تهتم، ليس مستغرباً أن يكون لها طعم جيد[2].

---

(١) ستاربكس هي شركة اميركية عالمية للقهوة وسلسلة مقاهي مقرها في واشنطن، سياتل.

(٢) مقتبس عن صفحة الإعلان كاملة في أمريكا اليوم، ٤ أيار، ٢٠٠٩، ص٩.



Twitter: @ketab_n

الفائض الثقافي هنا يعني: السعر أغلى من مكان آخر طالما أن ما تشتريه حقيقة هو «أخلاق القهوة» التي تتضمن العناية بالبيئة، المسؤولية الاجتماعية نحو المنتجين، فضلاً عن مكان يمكنك فيه المشاركة في الحياة الاجتماعية (من البداية، قدمت ستاربكس محلات قهوتها كمجتمع بديل). وإذا لم يكن هذا كافياً، وإذا لم تزل حاجاتك الأخلاقية غير مشبعة وأنت لا تزال قلقاً بشأن بؤس العالم الثالث، فهناك منتجات إضافية يمكنك شراءها. الوصف الخاص بستاربكس لبرنامجهم «الماء روح الشعب»:

Ethos water هو منتج له مهمة اجتماعية؛ يساعد الأطفال حول العالم للحصول على ماء نظيف ويصعد الوعي بأزمة الماء العالمية، كل مرة تشتري فيها قنينة من إيثوس واتر فإن إيثوس واتر سوف تسهم بـ ٠,٠٥ دولار أمريكي (٠,١٠ دولار كندي في كندا) نحو هدفنا برفع على الأقل ١٠ مليون دولار في الـ ٢٠١٠. تدعم إيثوس واتر عبر مؤسسة ستاربكس برامج الماء الإنسانية في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. إلى الآن كسبت إيثوس واتر التزامات تتجاوز ٦٠٢ مليون دولار. هذه البرامج ستساعد ٤٢٠,٠٠٠ شخص للوصول إلى الماء الآمن الصحي والتربية النظيفة[١].

(لا إشارة هنا عن حقيقة أن قنينة ماء إيثوس أغلى بخمسة سنتات في ستاربكس من أماكن مشابهة أخرى...) هكذا دمجت

(١) مقتبس عن www.starbucks.com.



Twitter: @ketab_n

الرأسمالية عند مستوى الاستهلاك تراث الـ ٦٨، نقد الاستهلاك الغريب: مسائل التجربة الأصيلة. تصر الحملة الشعبية لفنادق الهيلتون الأخيرة على ادعاء بسيط مفاده: «لا يأخذنا السفر فقط من مكان إلى مكان، بل عليه أيضاً أن يجعلنا أناساً أفضل». قبل عقد من الآن هل كان يمكن للمرء أن يتخيل ظهور مثل هذا الإعلان؟ أليس هذا أيضاً السبب الذي يجعلنا نشتري الغذاء العضوي؟ من يؤمن بأن نصف التفاح العضوي الفاسد والغالي السعر هو صحي أكثر من النوعيات الغير عضوية؟ الفكرة هي أننا بشرائها لا نشتري فحسب ونستهلك، نحن بشكل متواز نفعل شيئاً له معنى، مظهرين قدرتنا على الاهتمام ووعينا العالمي المشترك في مشروع جماعي، التجربة العلمية الأخيرة لهذه «الروح الجديدة» هي صعود المجال الجديد» دراسات السعادة». كيف يكون، وفي عصرنا عصر مذهب اللذة الروحاني، هدف الحياة محدد بشكل مباشر فيه بأنه السعادة، يزداد عدد الناس الذين يتعذبون من القلق والاكتئاب؟ إنه لغز هذا التخريب الذاتي للسعادة والمتعة التي تجعل رسالة فرويد[١] أكثر صلة من أي وقت مضى.

كما هو الحال في كثير من الأحيان، بلد من بلدان العالم الثالث النامية، تحديداً بوتان، تحدد العواقب السياسية الاجتماعية العبثية لأمة السعادة، منذ عقد مضى قررت مملكة بوتان التركيز على

(١) سيجموند فرويد: طبيب أعصاب نمساوي يعرف بأنه الأب المؤسس للتحليل النفسي.



Twitter: @ketab_n

قياس السعادة القومية الإجمالية (GNH)[١] بدلاً من الناتج القومي الإجمالي(GNP)[٢]، كانت الفكرة من بنات أفكار الملك السابق jigme singye wangchuck[٣] الذي أراد قيادة بوتان نحو العالم الحديث مع الإبقاء على هويتها الفريدة. في ظل ضغوط العولمة وصعود المادية، كان البلد الصغير يستعد لانتخاباته الأولى، أمر الملك الجديد المحبوب جداً خريج أكسفورد بعمر الـ ٢٧ جيجمي خيسار نامجيل وانجتشوك وكالة الدولة الرسمية بحساب عدد السعداء بين سكان المملكة البالغ عددهم ٦٧٠,٠٠٠ نسمة. أكّد ضباط أنهم أجروا إحصاء لحوالي ١٠٠٠ شخص ووضعوا قائمة من المعايير تحدد كون الإنسان سعيداً (شبيها لدليل التطور، المتتبع من قبل الأمم المتحدة). وقد حددت الشؤون الرئيسة بالرفاه النفسي، والصحة، والتعليم، والحكم الرشيد، ومعايير العيش، وحيوية المجتمع، والتنوع البيئي... وهذا يُعدّ ثقافة إمبريالية بامتياز[٤].

بالتوافق مع الروح الجديدة للرأسمالية، بُنيت الرواية الكاملة التاريخية الأيديولوجية لتظهر فيها الاشتراكية بوصفها محافظة هرمية وحكومية. خلاصة الـ ٦٨ هي «وداعاً سيد اشتراكية» والثورة

---

(١) GNH: gross national happiness.

(٢) GNP: Gross national product.

(٣) jigme singye wangchuck: الملك السابق لبوتان، تخلى عن الحكم لابنه جيجمي خيسار نامجيل وانجتشوك.

(٤) «بوتان تحاول قياس السعادة»، ABC news، ٢٤ آذار، ٢٠٠٨.



Twitter: @ketab_n

الحقيقية هي أن الرأسمالية الرقمية هي النتيجة المنطقية لأحداث الـ ٦٨ الموصوفة بالتحول النموذج. التوازي بين نموذج الدماغ في علم الأعصاب والنماذج الأيديولوجية المسيطرة للمجتمع هو دلالي هنا[١]. ثمة صدى واضح بين المدرسة المعرفية ورأسمالية «ما بعد الحداثة»: عندما أيّد دانيل دينيت[٢]، على سبيل المثال، التحول من فكرة ديكارت عن الذات بوصفها قوة التحكم المركزي للحياة النفسية إلى فكرة التفاعل الشعري لمراكز المنافسة المتعددة، ألا يعكس هذا التحول من تحكم البيروقراطية المركزية والتخطيط إلى نموذج شبكي؟ لهذا ليس فقط دماغنا تم تطبيعه فالمجتمع نفسه أيضاً تم تطبيعه في الدماغ، [٣] الذي بسببه مالابو على حق في تأكيدها على الحاجة لتحديد السؤال الرئيس: «ماذا يجب فعله لتجاوز مشاركة وعي الدماغ مباشرة وببساطة مع روح الرأسمالية؟»

حتى هاردت ونيجري[٤] يؤيدان الموازاة: بالطريقة نفسها كما تعلمنا علوم الدماغ أنه ما من ذات مركزية، فالمجتمع الجديد التعددي الذي يحكم نفسه سوف يكون مثل المفهوم المعرفي الحالي للأنا كجلبة وكالات التفاعل مع سلطة غير مركزية تشغل

---

(١) انظر: que faire de notre cerveau؟، كاثرين مالابو، باريس: بايارد ٢٠٠٤.

(٢) دانيل دينيت: فيلسوف أمريكي.

(٣) المرجع السابق، ص ٨٨.

(٤) ميشيل هاردت: مؤرخ أدبي أمريكي وفيلسوف سياسي، أنطونيو نيجري: عالم اجتماع إيطالي وفيلسوف سياسي.



Twitter: @ketab_n

العرض، لا عجب أن مفهوم نيجري عن الشيوعية يأتي بشكل خارق للطبيعة وقريباً من مفهوم رأسمالية «ما بعد الحداثة» الرقمية[١].

أيديولوجيا ـ وهنا نصل إلى النقطة الحاسمة ـ حدث هذا التحول كرد فعل على انتفاضات الستينيات (من أيار ١٩٦٨ في باريس، إلى الحركة الطلابية في ألمانيا، والهيبيين في أمريكا). أضاف المحتجون ضد الرأسمالية في الستينيات نقداً معيارياً للانفجار الاقتصادي الاجتماعي بجوانب جديدة عن النقد الثقافي: غرابة الحياة اليومية، تسليع الاستهلاك، زيف المجتمع الكبير الذي نحن مجبرون فيه على «لبس الأقنعة» والتعرض للاضطهاد الجنسي وسواه، أعادت الروح الجديدة للرأسمالية بنجاح المساواة والخطاب المعادي للهرمية الخاص بالـ ١٩٦٨، مقدمة نفسها بوصفها انتفاضة تحررية ناجحة ضد تنظيمات المجتمع الظالمة التي ميزت كل من رأسمالية الشركات والاشتراكية الموجودة واقعياً، تخلصت الروح الجديدة التحررية بواسطة رأسماليين «رابطي الجأش»[٢] لائقي المظهر؛ مثل بل جيتس ومؤسسي آيس كريم بن وجيري.

يمكننا الآن فهم سبب إصرار الكثيرين على أن تشي جيفارا ـ أحد رموز الـ ٦٨ ـ أصبح «أيقونة ما بعد الحداثة المثالية»، وهذا لا

---

(١) انظر: multitude، ميشيل هاردت وأنطونيو نيجري لندن: penguin press ٢٠٠٤.

(٢) Cool في الأصل.



Twitter: @ketab_n

يدل على كل شيء وفي الوقت نفسه يدل على كل شيء، وبتعبير آخر، أيّاً كان ما يريده المرء أن يدل عليه: ثائر شاب ضد الفاشستية، داعم للفقراء والمستغلين، قديس حتى يصل إلى روح الشيوعية الليبرالية للعمل على خير الجميع. منذ بضع سنوات صرح مصدر رفيع في الفاتيكان بأن الاحتفاء بتشي يفهم على أنه تعبير عن الإعجاب برجل خاطر بحياته ومنحها لخير الآخرين. وكالعادة تطويب غير مؤذ ممزوج بنقيضه وتسليع قذر، سوقت شركة أسترالية مؤخراً لآيس كريم «جيفارا الكرز»، مركزة إعلانها على «تجربة تناول الطعام»، بالطبع: «النضال الثوري للكرز كان هرس عندما كانوا يحصرونه بين طبقتين من الشوكولا. لتعش ذاكرتك في فمك!»[1]، ومع ذلك هناك شيء ما متهور في هذا الإصرار على أن تشي أصبح رمزاً سلعياً محايداً. تشهد سلسلة الإعلانات الأخيرة المحذرة لنا على أنه كان أيضاً قاتلاً بدم بارد نسق التصفيات في كوبا عام ١٩٥٩، ظهرت هذه التحذيرات عندما بدأ الثوار الجدد ضد الرأسمالية بأخذ دور حول العالم برمته، جاعلة أيقونته خطرة من جديد بشكل كامن. تحت عنوان «الوزيرة البولونية تريد فرض حظر على قمصان لينين، جيفارا «ذكرت صحيفة أوربا نيوز في ٢٣ نيسان ٢٠٠٩ أن وزيرة العدل البولونية ترغب بتوسيع الحظر على الفاشية أو الدعاية الشمولية لتتضمن الكتب، والثياب، وأشياء أخرى»:

(١) انظر: تسويق الماركسية، ميشيل جلوفر، التايمز، لندن، ٦ حزيران، ٢٠٠٦.



Twitter: @ketab_n

ترغب الوزيرة اليزابيتا رادزيسزفسكا[1] بتوسيع القانون الذي يحظر إنتاج الدعاية الفاشية أو الشمولية، سوف يحظر التشريع صور جيفارا الشهيرة على القمصان، الإعلانات والجداريات». أنا أدعم مثل هذا الحل» أخبر البروفسور wojcieh roszkowski[2] صحيفة rzeczpospolita[3]. الشيوعية كانت نظاماً قاتلاً رهيباً، مسؤولاً عن ملايين الضحايا، إنه مشابه جداً للاشتراكية القومية. ليس هناك سبب لمعاملة الأنظمة ورموزها بأي اختلاف».

كان مذهب اللذة المتسامح هو ما نجا من التحرر الجنسي للستينيات، المتحد بسهولة بأيديولوجيتنا القيادية الواقفة تحت دروع الأنا العليا، فما هو الأنا الأعلى؟ قرأت مؤخراً على ورقة معلومات في فندق نيويورك: «عزيزي الضيف! لضمان استمتاعك في إقامتك معنا، يمنع في هذا الفندق التدخين، تدفع مقابل أي انتهاك لهذا القانون ٢٠٠ دولار «يكمن جمال هذه الصيغة المأخوذ حرفياً في أنك ستكون معاقباً لرفضك الاستمتاع الكلي في إقامتك؛ لذا فأولوية الأنا الأعلى في الاستمتاع تعمل بشكل معاكس لقول كانت «dennu du solst! ، du kannt» (تستطيع، لأنه عليك ذلك!) إنه يكمن في «عليك، لأنك تستطيع!» مناف القول، إن مفهوم الأنا الأعلى لـ مبدأ اللذة «الغير قمعي» حالياً (الاستفزاز المستمر الذي نحن عرضة

---

(١) Elizabieta radziszewska: سياسيّة بولونيّة

(٢) Wojciech roszkowski: سياسي بولوني وعضو في البرلمان الأوربي.

(٣) تعني الجمهورية.



Twitter: @ketab_n

له، يأمرنا للمضي مباشرة نحو النهاية واكتشاف كل أشكال اللذة) يكمن في أن الطريق المصرح به للانتفاع يتحول بالضرورة إلى انتفاع إجباري، هذا يقود إلى انتفاع متوحد نقي (عبر المخدرات أو وسائل أخرى تحفز النشوة) ينشأ عند لحظة سياسية دقيقة: عندما استنفذ التسلسل التحرري لـ ١٩٦٨إمكاناته كان الخيار الوحيد الباقي مباشر ووحشي، passage a l'acte[١]، دفع نحو الواقع الذي افترض ثلاثة أشكال حقيقية: البحث عن أشكال نهائية من اللذة الجنسية، الإرهاب السياسي اليساري(الراف في ألمانيا، الألوية الحمراء في إيطاليا.. الخ.، كان رهانهم في عهد أصبحت فيه الجماهير منغمسة كلياً في مستنقع الأيديولوجيا الرأسمالية، النقد المعياري للأيديولوجيا لم يعد فعّالاً، وفقط اللجوء إلى العنف الحقيقي مباشرة ـ l'action direct[٢] ـ سوف يوقظ الجموع)، وأخيرا التحول نحو واقع التجربة الداخلية (التصوف الشرقي). كان ما تشاركه الثلاثة الانسحاب من اشتباك محدد سياسي اجتماعي إلى اتصال مباشر مع الواقع.

هذا التبدل من الاشتباك السياسي إلى واقع ما بعد سياسي ربما تجسد في أفلام برناردو برتولوتشي[٣] أفضل تجسيد، ذلك الغريم

---

(١) Passage a l'acte: المعبر إلى الفعل؛ التصرف المتسرع وهو مصطلح في الطب النفسي الفرنسي.

(٢) L'action direct: التحرك مباشرة.

(٣) برناردو برتولوتشي: مخرج سينمائي إيطالي.



Twitter: @ketab_n

المنشق الذي تتراوح أعماله من التحف الفنية المبكرة مثل «قبل الثورة» إلى الانغماس الروحاني الجمالي الأخير في «بوذا الصغير» المكروه. حققت هذه الفترة دورة كاملة مع «الحالمون»، آخر فيلم لبرتولوتشي عن باريس الـ ٦٨، الذي تعقد فيه صداقة بين ثنائي من الطلاب الفرنسيين أخ وأخت وأمريكي شاب خلال زوبعة الأحداث، في نهاية الفيلم تفرق الأصدقاء بعد أن تم القبض على الطالبين الفرنسيين في العنف السياسي، بينما بقي الأمريكي وفياً لرسالة الحب والتحرر العاطفي.

جان كلود ميلنر واعٍ تماماً لكيفية نجاح المؤسسات في التراجع عن عواقب مهددة لـ ١٩٦٨ من خلال دمج ما يسمى «روح الـ ٦٨ «وتحويلها ضد المركز الحقيقي للانتفاضة. منحت متطلبات الحقوق الجديدة التي ستعني إعادة توزيع صحيحة للسلطة، لكن في مظهر «التصاريح» فحسب» المجتمع المتساهل» كونه بالضبط مجتمع يوسع المجال لأية مواضيع مسموح فعلها من دون إعطائها أية سلطة إضافية:

هؤلاء الذين يمسكون بالسلطة يعلمون جيداً الفرق بين الحق والرخصة، الحق في مفهوم صارم لمصطلح يمنح نجاحاً لتجربة السلطة عند توسع سلطة أخرى، لا يقلل التصريح من سلطة الشخص الذي يمنحها، ولا يزيد السلطة للشخص الذي يحصل عليها؛ هو يجعل حياته أسهل وهذا ليس بالقليل[١].

---

(١) جان كلود ميلنر، l'arrogance du present. Regards sur une decennia: 1965 - 1975 grasset 2009, p.33 paris



Twitter: @ketab_n

هكذا يحصل مع الحق بالطلاق، الإجهاض، زواج المثليين..إلخ، وهذه كلها تصاريح مقنَّعة على أنها حقوق، إنها لا تغير بأية طريقة توزيع السلطات. هكذا كان أثر «روح الـ ٦٨» أنها ساهمت بشكل فعال في جعل الحياة أسهل، هذا كثير لكنه ليس كل شيء؛ لأنه لم يتجاوز السلطات[١]، وهذا هو «سر الهدوء الذي حكم فرنسا آخر أربعين سنة».

جعلت روح الـ ٦٨ من نفسها أفضل حليف للأحياء، مما ولد العنف المتزايد في ضواحي المدن: تستمر روح الـ ٦٨ الآن فقط مع هؤلاء الذين استوطنوا المدن، الشاب المفقر لا يعلم ما يفعله معها[٢].

في حين هدفت أيار الـ ٦٨ إلى نشاط كلي (وبشكل مسيّس تماماً)، نقلت روح الـ ٦٨ إلى نشاطات زائفة غير مسيّسة (أنماط حياة جديدة) الشكل نفسه من السلبية الاجتماعية. كانت النتيجة انفجارات العنف الأخيرة في الضواحي المحرومة من أي محتوى طوباوي أو تحرري. خلاصة ميلنر المريرة هي: «لا تتحدث إليّ بعد الآن عن الرُّخَص، والتحكم، والمساواة، أنا لا عرف سوى القوة، وسؤالي في وجه تصالح الوجهاء والتضامن من الأقوى: كيف يمكن أن يكون للضعيف سلطات؟»[٣]

(١) المرجع السابق، ص ٢٣٦.
(٢) المرجع السابق، ص٢٣٧.
(٣) المرجع السابق، ص ٢٤١.


Twitter: @ketab_n

إذا ما انسحب اليسار نحو حميميات الواقع الروحي والجنسي، ما حل بشكل المنظمة السياسية الأصولية، فرق شبه غير شرعية تعد من أجل معركة نهائية كاشفة في صدوع سلطة الدولة؟ هذه الخلايا التي ظهرت مجدداً في شكل مجموعات ناجية في أمريكا، بالرغم من رسالتها الأيديولوجية هي نوع من العرقية الدينية، نموذجها التنظيمي كله (مجموعات غير شرعية تقاتل الـ FBI ووكالات فيدرالية أخرى) يجعلها تظهر كبديل غريب عن الفهود السوداء من الستينيات. هذه كلمات هاردت ونيجري الغريبة من أغنية رافقت فيديو خلاصي تطرفي مستخدم في عام ١٩٨٢ :

الجموع، الجموع في وادي القرار

لأن يوم الرب قريب في وادي القرار.

سخرية الموقف هي أنه بالنظر إلى الشكل التنظيمي المروع لحالة الطوارئ (الوعي الجمعي بأنهم يعيشون في آخر الأيام)، المتطرفون الخلاصيون على حق، لكنهم مخطئون في منطقهم الشعبوي؛ الشعبوية دوماً مسندة إلى حد بعيد بالغضب المحبط للناس العاديين، بالصرخة» لا أعلم ما الذي يجري، لكن لدي ما يكفي منه تماما! لا يمكنني المضي! لا بد أن يتوقفّ» مثل هذه الانفجارات النافذة الصبر تنم عن رفض لفهم تعقيد الموقف أو الانخراط به، وتعلي الاتهام بأنه يجب أن يكون هناك شخص ما مسؤول عن الفوضى؛ ولهذا لابدّ أن تندس قوة ما خلف المشاهد.في هذه المسألة، وفي هذا الرفض للمعرفة يكمن البعد


Twitter: @ketab_n

الفيتيشي[1] المناسب للشعبوية. مناف القول، بالرغم من أنه عند مستوى رسمي صرف تتضمن الفيتيشية بادرة الانتقال (إلى موضوع فيتيشي)، إنها تعمل كالعكس تماماً للصيغة المعيارية للتحول (مع الموضوع المفترض معرفته): ما تعطيه الفيتيشية شكلاً هو بالضبط إنكاري للمعرفة، رفضي لما يفترض أن أعرفه شخصياً. لهذا السبب وللتعبير عنه بمصطلحات نيتشوية التي هي هنا مناسبة جداً، الفرق الأقصى بين السياسات التحررية الأصولية الحقيقية والسياسات الشعبوية هي أن السابقة نشطة وتفرض وجهة نظرها، بينما الشعبوية هي بشكل أساسي تفاعلية، نتيجة رد الفعل على الدخيل المقلق. بتعبير آخر، تبقى الشعبوية نسخة من سياسات الخوف؛ إنها تحشد الجموع بتخزين الخوف من عنصر خارجي فاسد.

هذا يقودنا إلى الموضوعة المهمة عن العلاقة المشوشة بين السلطة والمعرفة في المجتمعات الحديثة. فيما يدعوه لاكان الحديث الجامع، السلطة هي ممارسة من قبل معرفة (خبيرة). جاك آلان ميلر على حق حين سلط الضوء على أصالة لاكان الكامنة في التعامل مع ثنائية المعرفة والسلطة لم تلاحظ إلا قليلاً في ذلك الوقت. على العكس من فوكو[2]، الذي غير موضوع ارتباطها

---

(١) التوثين أو الفيتيشية: هي نوع من الشذوذ الجنسي والنفسي، يقوم على إشباع الرغبة الجنسية عن طريق الانجذاب المرضي إلى أجزاء من الجسد غير ذات صلة في الأصل بتلك الرغبة.

(٢) ميشيل فوكو: فيلسوف فرنسي، مؤرخ للأفكار، منظر اجتماعي وناقد أدبي.



Twitter: @ketab_n

بشكل لا نهائي (المعرفة ليست محايدة، إنها في حد ذاتها جهاز السلطة والحكم)، يطرح لاكان للعصر الحديث، اللا متصل، الممزق، المتنازع بين المعرفة والسلطة... التشخيص الذي يطرحه لاكان لتوعك الحضارة هو أن المعرفة افترضت «نمواً غير متجانس في العلاقة مع آثار السلطة». أثير في خريف عام ٢٠٠٧، نقاش عام في جمهورية التشيك متعلق بتنصيب رادارات الجيش الأمريكي على أراضي التشيك، على الرغم من أن الأغلبية الكبيرة من السكان (حوالي ٧٠٪) عارضت ذلك، إلا أن الحكومة استمرت بالمشروع. رفض ممثلو الحكومة نداءات من أجل استفتاء عام محتجين بأن المرء لا يتخذ قرارات حول مسائل الأمن القومي الحساسة هذه بالتصويت فحسب، بل يجب أن تترك للخبراء العسكريين. إذا ما تبع المرء هذا المنطق إلى النهاية، فسيصل إلى نتيجة خطيرة: ما الذي يترك إذن للتصويت؟ أليس على القرارات الاقتصادية، على سبيل المثال، أن تترك للخبراء وهلم جراً بالنسبة إلى كل العوالم الأخرى؟

هذه الحالة تقودنا إلى طريق مسدود «لمجتمع الخيار» المعاصر في أكثر أشكاله راديكاليةً. هناك استثمارات أيديولوجية متعددة في موضوعة الخيار اليوم، أشار علماء الدماغ إلى أن حرية الخيار وهمٌ، نحن نختبر أنفسنا بوصفنا أحراراً ببساطة عندما نكون قادرين على التصرف بالطريقة المقررة لعضويتنا، من دون عقبات خارجية تحبط نزعاتنا الداخلية. يشدد اقتصاديون ليبراليون على أن حرية


Twitter: @ketab_n

الاختيار مكوّن رئيس لاقتصاد السوق، فنحن عند شراء الأشياء بطريقة ما، نستمر بالتصويت بأموالنا. يحلو لمفكرين وجوديين «أعمق» نشر تنويعات على تيمة الاختيار الوجودي «الأصيل»، حيث مركز وجودنا نفسه مهدد بالضياع، الاختيار الذي يشتمل على ارتباط وجودي كامل، كمعارض لاختيارات سطحية لسلع من هنا أو هناك. في النسخة «الماركسية» من هذه التيمة، وفرة الاختيارات التي يمطرنا بها السوق فقط ملائمة للتشويش على غياب أي خيار أصولي حقيقي يهتم بالبناء الأساسي لمجتمعنا. ها هي سمة مفقودة بوضوح من هذه السلسلة: بالتحديد، النصيحة بالاختيار عندما نفتقد إحداثيات معرفية أساسية مطلوبة للاختيار العقلاني. كما يصفه ليوناردو بادورا: «من المروع عدم معرفة الماضي وأن تكون قادراً مع ذلك على التأثير في المستقبل»[1]، كونك مجبراً على اتخاذ قرارات في الحالة التي تبقى مبهمة هي شرطنا الرئيسي. نعلم الحالة المعيارية للخيار الإجباري التي أنا فيها حر بالاختيار في ظرف اتخذ فيه الخيار الصحيح، لذا إن الشيء الوحيد الذي عليّ فعله هو إلقاء نظرة فارغة من التظاهر بحرية إنجاز ما فرضته على المعرفة الخبيرة. لكن ماذا لو على العكس، الخيار حر حقيقة، ولهذا السبب بالذات، مختبر على أنه حتى أكثر إحباطاً؟ لهذا نجد أنفسنا بشكل دائم في وضع من ضرورة اتخاذ القرار حول مسائل سوف تؤثر بشكل أساسي على حياتنا، لكن من دون تأسيس مناسب على

(١) ذهب هافانا، ليوناردو بادورا، لندن: bitter lemon press 2008, pp233.



Twitter: @ketab_n

المعرفة. لأقتبس كلام جون جراي ثانية: «نحن مرميون في زمن فيه كل شيء مؤقت، التقنيات الحديثة تعدل حياتنا يومياً، تقاليد الماضي لا يمكن استرجاعها، وفي الوقت نفسه لدينا فكرة صغيرة عما سيجلبه المستقبل، نحن مجبرون على العيش كما لو كنا أحراراً»[1].

الضغط المستمر للاختيار لا يشتمل فقط على تجاهل موضوع الاختيار، لكن حتى أكثر جذرية، تشخيص استحالة الإجابة على مسألة الرغبة. عندما يقرّ لاكان بأن موضوع الرغبة مفقود في الأصل، ليست فكرته ببساطة هي أننا لا نعرف أبداً ما نرغب به ومحكومون بالبحث الأبدي عن موضوع الـ «الحقيقة»، الذي هو فجوة الرغبة في حد ذاتها، في حين كل المواضيع الإيجابية هي بدائل فحسب. فكرته أكثر راديكالية: الهدف المفقود هو الموضوع نفسه، الفاعل بوصفه مفعولاً به، والذي يعني بأن الإبهام الأصلي لمسألة الرغبة ليس بشكل أولي ما أريد؟، لكن ما الذي يرغبه الآخرون مني؟، أي شيء ـ objet a ـ يرونه في؟، السؤال الهستيري المناسب، لماذا أكون بهذا الاسم؟ (بمعنى آخر، أين تبدأ هويتي الرمزية، ما الذي يبررها؟) يشير لاكان إلى أن الموضوع هستيري، ويحدده بشكل متكرر على أنه «ذلك الذي ليس شيئاً»، ففكرة استحالة تحديد الشخص على أنه مفعولاً به (هذا هو، من معرفة ما أنا عليه كمشتهى للآخرين) هي أساس للموضوع. بهذه الطريقة

(١) كلاب القش، جراي، ص١١٠.



Twitter: @ketab_n

يولد لاكان كامل تنوع المواقف الشخصية «المرضية»، قراءتها كتنوع الأجوبة على السؤال الهستيري: تمثل الهستيريا والتملك دورين نموذجين من السؤال: الذهاني يعلم نفسه على أنه المفعول به لانتفاع الآخرين، بينما الشاذ يضع نفسه على أنه آلة لانتفاع الآخرين.

هنا تكمن فظاعة البعد الضاغط للاختيار، فالذي يرجع الصدى حتى في الاستعلام الأكثر براءة عندما يحجز المرء غرفة في فندق (وسائد ناعمة أم قاسية؟ أسرة مفردة أو مزدوجة؟) هو السبر الأكثر راديكالية: «أخبرني من أنت؟ أي نوع من الأشياء تود أن تكون؟ ما الذي سيشبع فجوة رغباتك؟» لهذا السبب فإن القلق الفوكوي المعادي للجوهرية بشأن «الهويات الثابتة» ـ الإلحاح المتواصل لممارسة الـ «عناية بالنفس»، لاستمرار إعادة اختراع خلق المرء وإعادته لنفسه ـ يجد صدى غريباً في آليات رأسمالية «ما بعد الحداثة». بالطبع، الوجودية القديمة الجيدة كانت قد ادعت أن الإنسان هو ما يفعله بنفسه، وربطت هذه الحرية الأصولية بالقلق الوجودي، هنا القلق من تجربة حرية المرء، نقص الحكم الواقعي للمرء هو اللحظة الأصيلة التي عندها تكامل الموضوع في ثبات عالمه الأيديولوجي. لكن أية وجودية لم تكن قادرة على التصور هي ما سعى ادورنو[1] لتغليفه بعنوان كتابه عن هيدجر[2]، «رطانة

---

(١) تيودور ادورنو: فيلسوف وعالم اجتماع ألماني.
(٢) مارتن هيدجر: فيلسوف ألماني.


Twitter: @ketab_n

الأصالة»، بالتحديد كيف لم يعد ببساطة يكبح النقص بالهوية المثبتة، تجسد الأيديولوجية المسيطرة بشكل مباشر النقص لتغذي العملية اللانهائية من استنفاذ «إعادة خلق النفس».

## ٦ ـ بين فيتيشتين:

كيف يكون هذا الظهور للأيديولوجيا كنظيرها، كـ لا أيديولوجيا، ممكناً؟ إنه يتوقف على تحول في النموذج السائد للأيديولوجيا: في عصرنا الـ«ما بعد أيديولوجي» المزعوم، تشتغل الأيديولوجيا أكثر فأكثر في طريقة فيتيشية كمناقض لنموذجها التقليدي العرضي. في النموذج الأخير الكذبة الأيديولوجية التي تبني تصورنا عن الواقع مدمرة بأعراض توصف بـ «عائدات الكبح»، يتحطم في بناء الكذبة الأيديولوجية بينما الصنم بشكل فعال هو نوع من envers[1] العرض. هذا يعني أن العرض هو الاستثناء الذي يقلق سطح الظهور المزيف، الفكرة التي ينفجر عندها كبت مشهد آخر، بينما الصنم هو تجسيد للكذبة التي تسمح لنا بتغذية الحقيقة الغير محتملة. خذ حالة موت شخص محبوب: في حالة العرض أنا «أكبح» هذا الموت، أحاول عدم التفكير به، لكن ألم الكبح يعود في العرض، في حالة الصنم على العكس «على نحو منطقي» أقبل كلياً الموت، وكذلك أتشبث بالصنم كهيئة تشخص بالنسبة لي إنكار الموت، بهذا المعنى يمكن للصنم أن يلعب دوراً بناءً من

(١) خلفيات.



Twitter: @ketab_n

خلال السماح لنا بالتغلب على الواقع القاسي. ليس الفيتيشون أناساً حالمين فشلوا في عوالمهم الخاصة، إنهم متطرفون واقعيون قادرون على قبول الأشياء كما هي؛ لأنهم بالتمسك بصنمهم قادرين على تسكين الصدمة الكلية للواقع.

بهذا المعنى الدقيق، المال عند ماركس هو صنم: أنا أتظاهر بأنني منطقي، موضوعي نفعي، واع تماما لكيفية بقاء الأشياء حقيقة، لكني أجسد معتقدي المنكر في صنم المال، أحياناً يكاد لا يمكن تمييز الفاصل بين الاثنين: شيء يمكن أن يعمل كعرض (للرغبة المكبوحة) وتقريباً بشكل عفوي كصنم (يجسد المعتقد الذي ننكره رسمياً). ما بقي من الشخص الميت، على سبيل المثال، مثل مادة من ملابسه، يمكن أن تعمل كصنم (يستمر الشخص من خلالها بشكل سحري بالحياة) وكعرض (التفصيل المشوش الذي يجلب للبال موته/ ها). أليس الضغط الغامض مشابهاً للذي بين الشيء الرهابي والفيتيشي؟ الدور البنيوي في كلتا الحالتين نفسه: إذا تم إقلاق هذا العنصر الاستثنائي، فالنظام كله ينهار. ليس فقط زيف الموضوع الكوني ينهار إذا ما أجبرته على مواجهة معنى عرضه، العكس أيضاً محتمل، بمعنى آخر، القبول «العقلاني» للموضوع لطريقة الأشياء في التبدد عندما يؤخذ صنمه بعيداً عنه.

«البوذية الغربية» هي وثن تسمح لك بمشاركة كاملة في اللعبة الرأسمالية المسعورة بينما تغذي التصور الذي لست عليه حقيقة، ذلك أنك واعٍ بشكل جيد كم هو باطل المشهد برمته، طالما الذي


Twitter: @ketab_n

يهم هو سلام النفس الداخلي، إذ تعلم أنه يمكنك دائماً الانسحاب، في تخصيص إضافي، على المرء أن يلاحظ أن الصنم يمكنه أن يعمل في طريقتين متقابلتين: من ناحية يبقى دوره ربما غير مدرك، ومن ناحية أخرى ربما يفكر المرء أن الصنم هو ما يهم حقيقة، طالما في حالة البوذية الغربية غير الواعية؛ لأن «حقيقة» هذا الوجود تكمن في العلاقات الاجتماعية نفسها التي يُمال إلى نبذها بوصفها لعبة مجردة.

ثمة اختلاف آخر بين شكلين مختلفين من الفيتيشية: يجب أن تكون الفيتيشية التهكمية المباحة المذكورة آنفاً مقابلة للفيتيشية الفاشية الشعبوية. دعنا نشرح هذا الشكل السابق مرة أخرى، بالمقارنة مع الإرباك الأيديولوجي الذي يشتمل على الإرباك الفاشستي الشعبوي. يشتمل الأوّل على عالمية مزيفة: الموضوع يؤيد الحرية أو المساواة، في حين أنه غير واعٍ للكفاءات الضمنية التي في شكلها نفسه تقيد فرصتها (الامتيازات لأطوار المجتمع المحددة: أن تكون غنياً أو سيئاً أو تنتمي إلى ثقافة معينة..الخ) يشتمل الثاني على تحديد مزيف لكل من طبيعة الخصومة والعدو: صراع الطبقات مستبدل ـ على سبيل المثال ـ بالنضال ضد اليهود، لذا فالغضب الشائع المستثمر أعيد توجيهه بعيداً عن علاقات الرأسمالية و«مؤامرة يهودية». للتعبير عنه بمصطلحات تفسيرية بسيطة؛ في الحالة الأولى: عندما يقول الموضوع الحرية والمساواة هو يعني حقيقة «حرية التجارة، المساواة أمام القانون..الخ»، وفي الحالة الثانية: «عندما يقول الموضوع «اليهود هم سبب بؤسنا»، هو


Twitter: @ketab_n

يعني حقيقة «الرأسمال الكبير هو سبب بؤسنا» اللاتناظر واضح. للتعبير عنه مجدداً بتعابير بسيطة؛ في الحالة الأولى: المحتوى «الجيد» الواضح (الحرية/ المساواة) يغطي المحتوى «السيء» الضمني (الطبقة واستثناءات وامتيازات أخرى)، بينما في الحالة الثانية: المحتوى «السيء» الظاهر (معاداة السامية) يغطي المحتوى «الجيد» الضمني (صراع الطبقات، كره الاستغلال).

كما يمكننا أن نرى بوضوح البنية الداخلية لهذين الإرباكين الأيديولوجيين هو من الثنائي عرَض/ وثن مجدداً: الحدود الضمنية (عند الحرية/ المساواة) هي أعراض القول بالمساواة التحررية (العائدات المفردة للحقيقة المكبوتة)، بينما «اليهود» هم وثن الفاشية المعادية للسامية (آخر شيء يراه الموضوع قبل مواجهة صراع الطبقات). هذا اللاتناظر كان له نتائج حاسمة على العملية الأيديولوجية النقدية: مذهب المساواة التحرري المناسب ليس كافياً لجعل إشارة الماركسية القديمة بشأن الهوة بين المظهر الأيديولوجي للشكل الشرعي العالمي والمصالح الخاصة التي تسنده بفعالية، طالما أنه شائع بين النقد الصحيح سياسياً على اليسار. الجدل المضاد عن أن الشكل ليس «شكلاً فحسب» أبداً لكن له آلية خاصة به تترك آثاراً في مادية الحياة الاجتماعية ـ تطور من قبل منظرين مثل كلود ليفورت[1] وجاك رانسيه[2] ـ صحيح تماماً ـ كان حرية

(١) كلود ليفورت: فيلسوف فرنسي.
(٢) جاك رانسيه: فيلسوف فرنسي.


Twitter: @ketab_n

«رسمية برجوازية» وضعت في تحفيز العملية متطلبات السياسية «المادية» والخبرات، من تجارة النقابات، إلى النسوية. على المرء أن يقاوم الإغراء المتشائم بدلاً من تقليله إلى وهم، مخفياً واقعية مختلفة، هذا ربما يكون السقوط في فخ نفاق الستالينية القديمة التي هزأت «شكلياً فحسب» من حرية البرجوازية، إذا كان مجرد شكل في كونه عاجزاً عن مقاطعة علاقات السلطة الحقيقية، لماذا إذن لم يسمح النظام الستاليني بمثل هذه الحرية، لم كان خائفاً جداً منها؟

لذلك التوضيح المفسر هنا سهل نسبياً، طالما أنه يحشد التوتر بين الشكل والمضمون: ليكون متسقاً، سيكون على الديمقراطي الليبرالي الشريف أن يعترف بأن محتوى افتراضه المنطقي الأيديولوجي يكذب شكله، ولهذا سيجعل الشكل راديكالياً (بديهة المساواة) بإنقاذ المحتوى أكثر من خلاله. (البديل الأساسي هو الانسحاب نحو التهكم: «نعرف أن المساواة حلم مستحيل، لذا دعنا نتظاهر بأننا من دعاتها، بينما نقبل بصمت الحدود الضرورية...»)

في حالة «اليهودي» كوثن fetish فاشي، إن التوضيح المفسر أكثر صعوبة (بذلك يعزز الرؤية التحليلية عن أن الفيتيشي لا يمكن أن يقوض بتأويل» معنى» صنمه، يشعر الفيتيشون بالرضى في أصنامهم، يختبرون عدم الحاجة للتخلص منهم). بتعابير سياسية عملية، هذا يعني أنه يكاد يكون مستحيلاً «تنوير» عامل مستغل يلوم «اليهود» على بؤسه، شارحاً له كيف أن «اليهودي» هو العدو


Twitter: @ketab_n

الخطأ، المدعم من عدوه الحقيقي (الطبقة الحاكمة) رغبة في جعل الكفاح الحقيقي مبهماً، وبالتالي تشتيت انتباهه عن «اليهود» ونحو «الرأسمالية» (وحتى الامبريالية، في حين انضم الكثير من الشيوعيين إلى النازية في ألمانيا في العشرينيات والثلاثينيات، وفي حين أن تصويت الكثير من الشيوعيين المحبطين في فرنسا خلال العقود الأخيرة تحول إلى جبهة لو بان[1] الوطنية، كانت العملية المقابلة نادرة جداً.) لصوغه في تعابير بسيطة سياسية، هذا هو التناقض. أما موضوع الإرباك الأوّل فهو العدو بشكل أولي (البرجوازية الليبرالية التي تظن أنه يقاتل من أجل المساواة العالمية والحرية)، بينما مواضيع الإرباك الثاني هي في المقام الأول» لنا» (المعدمون أنفسهم الذين أُغري بهم لتوجيه غضبهم على الهدف الخطأ)، «التوضيح» العملي والفعال أكثر سهولة في الحالة الأولى منه في الحالة الثانية.

لهذا ينقسم المشهد المهيمن والمعاصر للأيديولوجيا بين هذين النموذجين من الفيتيشية، المتهكم والمتطرف، كلاهما محصن على نقد جدلي «عقلاني». في حين يتجاهل المتطرف أو على الأقل «لا يثق» بالجدل، متمسكاً بشكل أعمى بوثنه، يتظاهر المتهكم بقبول الجدل، لكنه يتجاهل فعاليته الرمزية. بمعنى آخر، لا يؤمن المتطرف كثيراً بل «يعرف» مباشرة الحقيقة المجسدة في صنمه، يمارس المتهكم منطق الإنكار («أعلم جيداً، لكن...»)؛ لذا يمكننا

(١) جان ماري لو بان: سياسي فرنسي.



Twitter: @ketab_n

بناء مصفوفة مؤلفة من أربعة مواقف نحو الأيديولوجية: ١ ـ ليبرالي٢ ـ متهكم فيتيشي، ٣ ـ متطرف فيتيشي، ٤ ـ نقدي أيديولوجي. من غير المفاجئ، أنهم يشكلون مربع جريماس[١] الرمزي موزعة فيه المواقف الأربعة على طول محورين: العرَض مقابل الوثن، التماثل مقابل التفاوت. يتحرك كل من الليبرالي وناقد الأيديولوجيا على مستوى عرَضي: الأول محاصر فيها، والثاني مقوّض بتحليلات تفسيرية. يتمسك كل من الفيتيشي الشعبوي والمتهكم بوثنهما: الأول مباشرة، والثاني بسلوك متنصل. هما متماثلان بوضعهما (التشبث بوثنهما، آخذين على محمل الجد جدل ادعاءاتهما الأيديولوجية العالمية)، في حين يبعد كل من المتهكم وناقد الأيديولوجيا نفسيهما عن وضعهما (الإنكار الفيتيشي أو التأويل النقدي).

فيما يتعلق بالصراع الأيديولوجي، هذا يعني أنه على المرء على الأقل أن يرى بشك عميق هؤلاء اليساريين الذين يحاججون بأن الحركات الأصولية الشعبوية الإسلامية، تحررية ومعادية للإمبريالية، هي بشكل أساسي «في صفنا»، وبأن واقعة أنهم يصيغون برامجهم بمصطلحات صريحة معادية للتنوير والعولمة، أحياناً يقاربون معاداة السامية الظاهرية، ليس أكثر من التشويش الناجم عن كونهم محاصرين في بداهة الصراع. (عندما يقولون

(١) مربع جريماس السيميائي نسبة إلى الجيرداس جوليان جريماس، والمربع أداة تستخدم في التحليل البنيوي للعلاقات.



Twitter: @ketab_n

بأنهم ضد اليهود، فالذي يعنونه حقيقة هو فقط أنهم ضد الاستعمارية الصهيونية)، على المرء مقاومة الإغواء من دون شروط «لفهم» معاداة العرب للسامية (حيث نواجهها حقيقة) على أنها رد فعل «طبيعي» للحالة الحزينة للفلسطينيين: يجب ألا يكون هناك «فهم» لواقعة أن هتلر يُعدّ بطلاً من قبل الكثيرين في عدة بلدان عربية، أو أنه كل الأساطير المعادية للسامية التقليدية في كتبهم المدرسية الابتدائية التي تم تنسيقها من التزييف الشهير لبروتوكولات حكماء صهيون إلى فكرة أن اليهود يستعملون دم أطفال المسيحيين أو العرب لمناسبات مقدسة. إلى الادعاء بأن مفاصل معاداة السامية في نموذج مستبدل هي على هذا النحو شكل مقاوم للرأسمالية من المستحيل تبريره: الإحلال هنا ليس عملية ثانوية، لكنَ نظرة متزمتة لتشوش أيديولوجي. ما يشتمل عليه هذا الادعاء بأية حال هو فكرة أنه على المدى البعيد الطريق الوحيد لمحاربة معادي السامية هو ليس في التبشير بالتسامح الليبرالي وما يشبهه، بل في نطق ما يتضمنه محفز ضد الرأسمالية بطريقة مباشرة وغير مستبدلة. إن قبول المنطق الخاطئ المذكور آنفاً عن الأصولية هو الخطوة الأولى على الدرب نحو استنتاج «منطقي» تماماً، طالما أن هتلر أيضاً «قصد حقيقة «الرأسماليين عندما تحدث عن «اليهود»، يجب أن يكون حليفنا الإستراتيجي في صراع العالم ضد الإمبريالية، مع الإمبراطورية الأنجلو أميركية كعدو مبدئي. (وهذا التفكير ليس تمارين بلاغية فحسب: نشر النازيين صراعهم المعادي للاستعمار في البلدان العربية وفي الهند، ويتعاطف العديد من


Twitter: @ketab_n

النازيين الجدد مع الصراع العربي ضد دولة إسرائيل)[1]. سيكون خطأ مميتاً التفكير بأنه عند نقطة معينة في المستقبل سنقتنع بأن العدو «الحقيقي» الفاشية هو رأس المال، وأنه عليهم أن يرموا أديناً معينة/ إثنيات/ أعراق من أيديولوجيتهم رغبة في ضم القوى مع المساواة العالمية.

لهذا على المرء أن يرفض بوضوح الشعار الخطر «عدو عدوي صديقي» الذي يقودنا إلى رؤية «تقدمية» معادية للإمبريالية كامنة في الحركات الأصولية الإسلامية. العالم الأيديولوجي لمنظمات مثل حزب الله مؤسس على تشويه الفروق بين رأسمالية الإمبريالية الجديدة والتحرر التقدمي العلماني: ضمن الفضاء الأيديولوجي لحزب الله، فإن تحرير النساء، حقوق المثليين..إلخ، ليست سوى مظاهر أخلاقية «منحطة» للإمبريالية الغربية... يسلم باديو «بأن هناك حدوداً داخلية مقيدة لهذه الحركات كما هو حالها بخصوصية دينية» لكن هل هذا الحد مؤقت فقط، كما يبدو باديو ملمحاً، حد هذه الحركات سوف (عليه) يغلب في المرحلة المعبر عنها بـ» ثاني، أعلى» من تطورهم، عندما سوف (عليهم أن) يعممون أنفسهم؟ باديو على حق عندما لاحظ أن المشكلة هنا ليست دينية على هذا النحو، لكن هل خاصيتها ليست الآن تماماً حداً مقدراً لهذه الحركات التي أيديولوجيتها ضد التنوير مباشرةً؟

---

(١) الذي يجعل من شخصية جاك فيرجيس الفريدة «محامي الإرهاب» ظاهرة كونية هو أنه يجسد هذا التضامن بين الفاشية ومناهضة الاستعمار.



Twitter: @ketab_n

بدقة أكثر، على المرء أن يحدد أن التقييد الداخلي لا يهتم بالشخصية الدينية على هذا النحو، لا يهتم بشخصيتهم الدينية على هذا النحو، لا يهم إلى أي حد هي «متطرفة»، لكن بسلوكها الأيديولوجي العملي نحو المشروع التحرري العالمي المعتمد على بداهة المساواة. لتوضيح هذه النقطة الرئيسية، دعونا نستحضر الحالة المأساوية لمجتمع الكانودوس[1] في البرازيل في نهاية القرن التاسع عشر؛ كان مجتمعاً «متطرفاً» نموذجياً، يدار من قبل «مجلس» متعصب يؤيد التيوقراطية والعودة إلى الملكية. لكن في الوقت نفسه يسعى لخلق طوباوية شيوعية بملكية مشاعية، لا مال أو قوانين، تضامن عادل كامل، المساواة بين الرجال والنساء، الحق بالطلاق..الخ. هذا هو البعد الذي يفتقر إليه «التطرف» الإسلامي، لا يهم مدى تظاهره بكونه «معاد للإمبريالية».

مع هذا، حتى في حالة الحركات المتطرفة «بشكل واضح»، على المرء أن يأخذ حذره من الثقة بوسائل الإعلام البرجوازية. يتم تقديم الطالبان بانتظام على أنهم مجموعة إسلامية متطرفة تفرض حكمها باستعمال الإرهاب. بأية حال، عندما سيطروا في ربيع ٢٠٠٩ على وادي سوات في باكستان، ذكرت النيويورك تايمز أنهم صمموا انتفاضة طبقية فجرت شقاقاً عميقاً بين مجموعة صغيرة من أثرياء الملاكين ومستأجريهم من غير المالكين.

---

(١) كانودوس: بلدة وجدت في ولاية باهيا المتنوعة عرقياً شمال شرق البرازيل.



Twitter: @ketab_n

في سوات، [1] وضحت روايات هؤلاء الذين فروا الآن بأن الطالبان فرضوا السيطرة بإخراج حوالي خمسين ملاّكاً ممن يمسكون بغالبية السلطة. قام بذلك الفلاحون المنظمون عسكرياً في عصابات مسلحة أصبحت أساساً لقواتهم... قدرة الطالبان على تفجير التقسيم الطبقي أضاف بعداً جديداً على التمرد ونبّه حول الأخطار على باكستان التي بقيت إقطاعية على نطاق واسع.

قال محبوب محمود، المحامي الباكستاني الأميركي والزميل السابق للرئيس أوباما: «إن شعب باكستان جاهز نفسياً للثورة». يستغل القتال السني الانقسامات الطبقية العميقة التي فسدت لمدة طويلة في باكستان. «يعِد المقاتلون بأكثر من تحريم الموسيقى والتدريس»، وقال: «إنهم أيضاً يعِدون بالعدالة الإسلامية، بحكومة فعلية وإعادة توزيع للاقتصاد»[2].

وضّح توماس التيزر[3] المعاني المتضمنة ونتائج هذه المعطيات الجديدة بالنسبة إلى آذاننا الغربية: وأخيراً، الآن، تم الكشف عن أن الطالبان قوة تحررية أصيلة تهاجم الحكم الإقطاعي القديم في باكستان وتحرر الأغلبية الساحقة من الفلاحين من ذلك الحكم... على نحو مشجع سوف نسمع الآن نقداً صادقاً لإدارة أوباما التي

---

(١) سوات: وادي ومنطقة إدارية في باكستان.

(٢) طالبان تفجر شقاقاً طبقياً لتكسب شعبية في باكستان، جين بيرليز وبير زبير شاه، نيويورك تايمز، ١٦ نيسان٢٠٠٩.

(٣) توماس اليتزر، مقتبس من اتصال شخصي. وتوماس اليتزر لاهوتي راديكالي.



Twitter: @ketab_n

هي أكثر خطورة بكثير من إدارة بوش الأب والابن لسبب كونها أعطيت مثل هذه اليد الطويلة؛ ولأنها إدارة أكثر قوة بكثير.

النزعة الأيديولوجية في مقالة النيويورك تايمز قابلة للإدراك في طريقة كلامها عن «قدرة الطالبان على تفجير الانقسام الطبقي»، كما لو أن برنامج الطالبان «الحقيقي» يكمن في مكان آخر في التطرف الديني، وهم «يستفيدون» من حالة المزارعين الفقراء من غير المالكين فحسب، لهذا على المرء ببساطة إضافة أمرين؛ أولاً: هذا التمييز بين البرنامج «الحقيقي» والتلاعب الآلي هو مفروض خارجياً، كما لو أن المزارعين الفقراء من غير الملاكين أنفسهم لم يواجهوا محنتهم في شروط «دينية متطرفة»! ثانياً: إذا «بالاستفادة» من محنة المزارعين «يرفع الطالبان جرس الإنذار حول المخاطر على باكستان، التي تبقى إقطاعية على نطاق واسع» ما الذي يعيق الديمقراطيين الليبراليين كما في باكستان كذلك في أمريكا من استفادة مشابهة من الحالة ومحاولة مساعدة المزارعين الغير مالكين؟ الحقيقة الحزينة التي تكمن خلف الواقعة أن هذه المسألة الواضحة التي لم تبين في تقرير النيويورك تايمز أن القوى الإقطاعية في باكستان هم بأنفسهم «الحليف الطبيعي» للديمقراطية الليبرالية.

أحد أبرز النتائج السياسية لهذه الحالة المتناقضة هو التوتر الجدلي إلى حد بعيد بين الإستراتيجية البعيدة المدى والأحلاف التكتيكية قصيرة المدى. بالرغم من أنه في المدى البعيد يعتمد نجاح النضال التحرري الأصولي على حشد الطبقات الدنيا التي هي


Twitter: @ketab_n

اليوم غالباً في عبودية للشعبوية المتطرفة، ليس على المرء أن يشعر بوخز الضمير بشأن عقد تحالفات قصيرة المدى مع الليبراليين الداعين للمساواة كجزء من النضال المقاوم للعنصرية والجنسية.

ما ينجم عن قيام مثل ظاهرة الطالبان ليس فقط أن أطروحة فالتر بنيامين القديمة «كل صعود للفاشية يشهد على ثورة فاشلة» لا تزال صحيحة اليوم، لكنها ربما على صلة بالموضوع أكثر من أي وقت مضى. يحب الليبراليون الإشارة إلى التشابه بين «التطرفية» اليمينة واليسارية: إرهاب هتلر ومخيمات الموت شابهت الإرهاب البلشفي والكولاك[1]، النموذج اللينيني من الحزب الذي يحيا اليوم في القاعدة، نعم، لكن ماذا يعني هذا كله؟ يمكن أن يُقرأ أيضاً على أنه إشارة إلى الفاشية التي تستبدل حرفياً (تأخذ دور) الثورة اليسارية: صعودها هو فشل اليسار، لكن بشكل متزامن إثبات أنه كان هناك إمكانية ثورية واستياء، الأمر الذي لم يكن اليسار قادراً على توظيفه. وهل يصح الأمر نفسه على ما يسمى «الفاشية الإسلاموية»؟ أليس صعود الإسلامية الأصولية مرتبطاً تماماً باختفاء اليسار العلماني في البلاد الإسلامية؟ اليوم، عندما توصف أفغانستان بأنها مثال للبلد الإسلامي المتطرف، من لا يزال يتذكر أنه منذ ثلاثين سنة مضت، كان بلداً بتقليد علماني قوي، بما فيه الحزب الشيوعي القوي الذي كان له سلطة مستقلة عن الاتحاد السوفيتي؟ أين ذهب هذا التقليد العلماني؟ في أوروبا، بالضبط

(١) الكولاك: وكالة حكومية أدارت معسكرات السخرة السوفيتية خلال عهد ستالين.



Twitter: @ketab_n

الأمر نفسه ينطبق على البوسنة: في السبعينيات والثمانينيات، كانت كل من البوسنة والهرسك (متعددة) ثقافياً والأكثر حيوية وإثارة للاهتمام من بين الجمهوريات اليوغسلافية جميعها، بمدرستها السينمائية المشهود لها عالمياً ونمط موسيقاها الفريد من الروك. البوسنة الحالية، على العكس، معروفة بقوى متطرفة قوية، كما في الجمع المسلم الذي هاجم بوحشية الاستعراض المرح في سراييفو في أيلول عام ٢٠٠٨. يكمن السبب الجذري لهذا الارتداد في الحالة اليائسة لمسلمي البوسنة خلال حرب ١٩٩٢ ـ ١٩٩٥، عندما تم التخلي عنهم بشكل أساسي من قبل السلطات الغربية لبنادق الصرب.

علاوة على ذلك، هل تعابير «الفاشية الإسلاموية» أو «الإسلام الفاشي» المقترحة من قبل فرنسيس فوكوياما[١] (من بين آخرين) وبيرنارد هنري ليفي[٢] عادلة؟ ما يجعلها ملتبسة ليس فقط التأهيل الديني (حينها سيكون المرء جاهزاً لوصف الأشكال الغربية من الفاشية على أنها فاشية مسيحية؟ الفاشية في نفسها تكفي، إنها لا تحتاج إلى مؤهلين)، لكن تعيين الحركات الإسلامية «المتطرفة» المعاصرة والدول كـ «فاشية». ربما واقعة أن معاداة للسامية (الصريحة تقريباً) الحاضرة في هذه الحركات والدول، وأن هناك صلات تاريخية بين القومية العربية والفاشية الأوربية والنازية. بأية

---

(١) فرنسيس فوكوياما: عالم أمريكي في السياسة.

(٢) بيرنارد هنري ليفي: مفكر وكاتب فرنسي.



Twitter: @ketab_n

حال، معاداة السامية لا تلعب في التطرف الإسلامي الدور نفسه الذي تلعبه في الفاشية الأوربية؛ إذ التشديد هو على التطفل الخارجي المسؤول عن تحلل ما كان عليه المجتمع من «تجانس». هناك على الأقل فرق واحد كبير لا يمكن تجاهله بالنسبة إلى النازية، كان اليهود بدوا/ بلا دولة/ شعب بلا جذور يفسدون المجتمعات التي عاشوا بين ظهرانيها، من وجهة نظر النازية، دولة إسرائيل في حد ذاتها كانت حلاً ممكناً، لا عجب أنها، قبل أن تتخذ قراراً بإخراجهم، لعبت النازية بفكرة إعطاء اليهود أرض لإقامة دولة (بأماكن تتدرج من مدغشقر حتى فلسطين نفسها). بالنسبة إلى عرب اليوم المعادين للصهيونية، على العكس، دولة إسرائيل هي المشكلة، مع بعض المنادين من أجل إبادة الدولة وإعادة اليهود إلى شرطهم البدوي/ بلا دولة.

نعلم جميعاً أن التوصيف المعادي للشيوعية الماركسية على أنها «إسلام القرن العشرين»، نزع الصفة الدينية عن التعصب النظري للإسلام. وجه بيير اندريه تاجيف[1]، المؤرخ الليبرالي لمعاداة السامية، هذا التوصيف حول: يتحول الإسلام ليكون «ماركسية القرن الحادي والعشرين»، موجهاً بعد سقوط الشيوعية عنفه ضد الرأسمالية. إذا ما مضينا في اعتبار فكرة بنيامين عن احتلال الفاشية مكان الثورة الفاشلة، يمكن لله المركز المنطقي» لمثل هذه الانقلابات بسهولة أن يكون مقبولاً من قبل الماركسيين. وبهذا

(١) بيير اندريه تاجيف: فيلسوف فرنسي.


Twitter: @ketab_n

نستنتج أن أكثر ما يمكن لليسار أن يفعله هو الأمل بأن الأزمة ستكون محدودة خاطئ كلياً، وأن الرأسمالية ستستمر بتأمين مستوى عال نسبياً من العيش للعدد المتنامي من السكان، سياسات راديكالية غريبة أملها الرئيس هو استمرار الظروف في جعلها عديمة المفعول وهامشية... هذا يبدو أنه الخلاصة التي توصل إليها بعض اليساريين مثل مواش بوستون[1] وزملائه: طالما أن كل أزمة تفتح فضاءً لليسار الراديكالي وتمنح صعوداً لمعاداة السامية، فمن الأفضل لنا دعم الرأسمالية الناجحة ونأمل ألا يكون هناك أزمات. يدل هذا التفكر بوصوله إلى نهايته المنطقية على أن معاداة الرأسمالية في النهاية هي، على هذا النحو، معاداة للسامية. إنه ضد مثل هذا التفكير ذلك أنه على المرء أن يقرأ شعار باديو «mieus vaut un disaster qu'un desetre[2]»: على المرء أن يتحمل خطر الوفاء لحدث، حتى إذا ما انتهى هذا الحدث إلى «كارثة مظلمة». أفضل إشارة على نقص ثقة اليسار بنفسه هو خوفه من الأزمات، مثل هذا اليسار الذي يخاف على وضعه المريح بوصفه الصوت الانتقادي المدمج بالنظام، ليس جاهزاً للمخاطرة بشيء. لهذا السبب اليوم، أكثر من أي وقت مضى، شعار ماو تسي تونج[3] القديم وثيق الصلة: «كل شيء تحت السماء في فوضى تامة، الحالة ممتازة».

---

(١) مواش بوستون: مؤرخ ماركسي ألماني أميريكي.

(٢) mieus vaut un disaster qu'un desetre: الكارثة أفضل من العدم.

(٣) ماو تسي تونج: مؤسس الصين الشعبية.



Twitter: @ketab_n

يتعامل اليسار الحقيقي مع الأزمة بجدية من دون أوهام لكن بقدر كونه حتمياً، بقدر ما تكون الفرصة ليستغل بالكامل. الرؤية الأساسية لليسار الراديكالي هي أنه بالرغم من أن الأزمة مؤلمة وخطيرة فهم متعذر اجتنابهم، وأنهم الأرض التي عليها تشن المعارك وتربح. الاختلاف بين الليبرالية واليسار الراديكالي هو أنه بالرغم من أنهم يشيرون إلى العناصر الثلاثة نفسها (المركز الليبرالي، اليمين الشعبي، اليسار الراديكالي)، فهم يحددون مكانهم في طوبولوجيا[1] مختلفة جذرياً بالنسبة إلى المركز الليبرالي، اليسار الراديكالي واليمين هما شكلان لنفس زيادة «الاستبداد»، في حين الحقيقة البديلة الوحيدة بالنسبة إلى اليسار، هي ما بينه وبين الليبرالية الدارجة، ليس اليمين «الراديكالي» الشعبي سوى عرَض لعدم قدرة الليبرالية للتعامل مع التهديد اليساري. عندما نسمع اليوم سياسي أو أيديولوجي يعرض علينا خياراً بين الحرية الليبرالية والظلم التطرفي، يسأل بانتصار متكلف أسئلة مثل «هل تريد أن تُبعَد النساء من الحياة العامة وأن تحرمن من حقوقهن البسيطة؟ هل تود أن يكون كل ناقد أو مخادع معاقباً بالموت؟» الذي يجعلنا نزاعين إلى الشك هو الدليل الذاتي نفسه للإجابة، من سيرغب بذلك؟ المشكلة هي أن مثل هذه الكلية الليبرالية المبسطة فقدت منذ زمن طويل براءتها. لهذا السبب بالنسبة إلى اليساري الحقيقي النزاع بين الليبرالية الإباحية والتطرف هو نزاع زائف كلياً،

(١) طوبولوجيا: دراسة رياضية للأشكال والفضاءات الطوبوغرافية.



Twitter: @ketab_n

الدورة الفاسدة التي فيها قطبان متقابلان، يولدان ويستلزم أحدهما الآخر. هنا على المرء أن يأخذ خطوة هيجيلية إلى الخلف، متوضعاً في سؤال مناسب جداً تظهر منه التطرفية في رعبها كله. فقد الليبراليون منذ زمن بعيد حقهم في المحاكمة. ما قاله هورخيمر[1] مرة يجب أيضاً تطبيقه على التطرفية الحالية: هؤلاء الذين لا يرغبون بالكلام (بشكل نقدي) عن الديمقراطية الليبرالية ومبادئها النبيلة يجب أيضاً أن يسكتوا عن التطرفية الدينية. بوضوح أكثر، على المرء الإصرار بشكل حاسم على أن النزاع بين دولة إسرائيل والعرب هو نزاع زائف حتى إذا هلكنا جميعاً بسببه، إنه نزاع يشوه القضايا الحقيقية فقط.

كيف نفهم انعكاس الهجوم التحرري هذا إلى شعبوية تطرفية؟ في الماركسية الأصيلة ليست الكلية مفهوماً مثالياً، بل نقدياً لوضع الظاهرة في كليتها لا يعني رؤية الانسجام المخفي للكل، لكن تضمينه في نظام تتخاصم أعراضه كلها وتتضارب، كأجزاء متكاملة. بهذا المعنى إذن، تشكل التطرفية والليبرالية «وحدة كلية»، لأن مقابلهما مبني بحيث أن الليبرالية نفسها تولد مقابلها. هل تصمد القيم المركزية لليبرالية، والحرية، والمساواة، الخ. التناقض هو أن الليبرالية نفسها ليست قوية كفاية لتحفظ قيمها المركزية من هجوم التطرفية. مشكلتها هي أنها لا تستطيع الصمود وحدها: هناك شيء ما مفقود في الصرح الليبرالي. الليبرالية هي، في فكرتها بالذات،

(١) ماكس هورخيمر: فيلسوف ألماني.



Twitter: @ketab_n

«طفيلية» تعتمد كما تفعل على شبكة مستلزمة من قيم مشتركة قوضتها في طريق تطورها. التطرفية هي رد فعل زائف مربك ضد الخلل الواقعي المتأصل في الليبرالية، ولهذا السبب التطرفية تولد مراراً وتكراراً من قبل الليبرالية. اليسار يقول لنفسه: الليبرالية سوف تقوض نفسها ببطء، الشيء الوحيد الذي يمكن أن ينقذ مركزها هو تجديد اليسار. أو لنقل ذلك بمصطلحات معروفة من ١٩٦٨، رغبة في إنقاذ تراثها الرئيسي، ستحتاج الليبرالية لمساعدة أخوية من اليسار الراديكالي.

## ٧ ـ الشّيوعيّة مجدّداً!

وصل التحييد الأيديولوجي في الرأسمالية العالمية المعاصرة إلى مستوى غير مسبوق، فقلائل أولئك الذين يجرؤون على الحلم بأحلام طوباوية ببدائل ممكنة. تعيد الأنظمة الشيوعية القليلة الباقية الواحدة تلو الأخرى اختراع نفسها بوصفها حماة فاشية «للرأسمالية الفعالة الأكثر الحيوية، الجديدة بقيم آسيوية». بعيداً عن إثبات أن عصر الطوباويات الأيديولوجية قد تخطيناه، هذه الهيمنة التي لا اعتراض عليها للرأسمالية مدعومة بمركز طوباوي مناسب من الأيدلوجيا الرأسمالية. تطهرت طوباويات العوالم البديلة بالطوباوية في السلطة، مقنعة نفسها بقناع الواقعية البراجماتية. ليس فقط الحلم المحافظ بإعادة كسب بعض ماض تم جعله مثالياً قبل السقوط، أو صورة مستقبل مشرق عندما أنقصت العالمية الحالية من عقبته الأساسية، هذا طوباوي، ليست أقل طوباوية هي الفكرة البراجماتية


Twitter: @ketab_n

الليبرالية عن أنه يمكن للمرء أن يحل المشاكل تدريجياً واحدة فواحدة، (الناس يموتون الآن في راوندا، لذا دعنا ننسى النضال ضد الإمبريالية، دعنا فقط نمنع المجزرة، أو على المرء أن يحارب الفقر والعنصرية هنا والآن، لا أن ينتظر انهيار النظام الرأسمالي العالمي) كتب جون كابوتو[١] مؤخراً:

سأكون سعيداً تماماً إذا ما كان سياسيو أقصى اليسار في أمريكا قادرين على إعادة تشكيل النظام بتأمين عناية صحية عالمية، تعيد بفعالية توزيع الثروة بإنصاف أكثر بواسطة قانون الإيرادات الداخلي المعدل[٢]، تعيد تدقيق الحملة المالية بشكل فعال، تمنح حق الاقتراع لكل الناخبين، تعامل العمال المهاجرين بإنسانية، وسياسة خارجية متعددة الجوانب مؤثرة تدمج السلطة الأمريكية في المجتمع العالمي... الخ، وبمعنى آخر، الاعتراض على الرأسمالية بواسطة إصلاحات جدية نافذة جداً، بعد فعل كل ذلك إذا اشتكى باديو وجيجك من أن وحشاً ما يدعى رأسمال لا يزال يطاردنا، فسوف أنزع لتحية ذلك الوحش بتثاؤب[٣].

ليست المشكلة هنا استنتاج كابوتو بأنه إذا ما أمكن لشخص أن ينجز كل ذلك من خلال الرأسمالية، لم لا نبقى في النظام؟ تكمن

---

(١) جون كابوتو: فيلسوف أمريكي.

(٢) IRS: The Internal Revenue Service.

(٣) بعد موت الله، جون كابوتو زجياني فاتيمو، نيويورك: صحيفة جامعة كولومبيا، ٢٠٠٧، ص ١٢٤ ٥.



Twitter: @ketab_n

المشكلة في الفرضية «الطوباوية» بأنه من الممكن التوصل لكل ذلك من خلال إحداثيات الرأسمالية العالمية. ماذا لو أن حالات قصور محددة في الرأسمالية عددها كابوتو ليست اضطرابات عرضية فحسب بل بالأحرى ضرورة بنيوية؟ ماذا لو أن حلم كابوتو هو حلم بالكونية (بنظام رأسمالي كوني) من دون أعراضه، من دون أية نقاط حرجة تتوضح فيها «حقيقته المكبوتة» نفسها؟

هذا التقييد على الإصلاح التدرجي أيضاً يؤدي بنا إلى حدود التهكم السياسي. هناك أمر واحد بشأن هنري كيسينجر[١]، الواقعي[٢] التهكمي بلا حدود' الذي من غير الممكن ألا يلاحظ المراقبون جميعهم كل تنبؤاته الخاطئة تماماً. على سبيل المثال، عندما وصلت الأخبار إلى الغرب حول الانقلاب العسكري على جورباتشوف عام ١٩٩١، قبل كيسينجر في الحال النظام الجديد (الذي انهار على نحو مذل بعد ثلاثة أيام) كحقيقة، باختصار، لما كانت النظم الاشتراكية في حالة احتضار بالفعل، كان يعتمد على ميثاق طويل المدى معها. ما يظهره هذا المثال هو عجز السلوك التهكمي، التهكميون هم les non dupes errent[٣]، ما يخفقون في إدراكه هو الفعالية الرمزية للأوهام، الطريقة التي ينظمون فيها النشاط الذي يولد الواقع الاشتراكي. موقف التهكم هو تلك

---

(١) هنري كيسنجر: سياسي ودبلوماسي أمريكي.

(٢) Realpolitiker بالألمانية في الأصل.

(٣) les non dupes erren: غير المغفلين التائهين.



Twitter: @ketab_n

الحكمة الشعبية، التهكم النموذجي يخبرك على انفراد بصوت منخفض سري: «لكن ألم تفهمه؟ عن أنه حقيقي بالكامل بشأن (المال، السلطة، الجنس...)، إن كل تلك المبادئ العليا والقيم هي محض جمل فارغة تماماً لا تهم؟ بهذا المعنى يؤمن الفلاسفة بفعالية «سلطة الأفكار»، إنهم يؤمنون بأن «الأفكار تحكم العالم»، والمتهكمون لهم كامل الحق في اتهامهم بهذا الإثم. ما لا يدركه المتهكمون، بأية حال، هو سذاجتهم. إن الفلاسفة هم الواقعيون؛ إنهم يعون جيداً بأن موقف المتهكم مستحيل ومتضارب؛ لأن المتهكمين يتبعون بشكل فعال المبادئ التي يسخرون منها علانية. كان ستالين متهكماً نموذجياً، لكن على هذا النحو بالضبط، آمن بإخلاص بالشيوعية.

بعد اتهام كل «المشتبه بهم المألوفين» للطوباوية، ربما حان الوقت للتركيز على الطوباوية الليبرالية نفسها. بهذا الشكل على المرء أن يجيب هؤلاء الذين ينبذون أية محاولة للشك بمتطرفي النظام الرأسمالي الديمقراطي الليبرالي لكونهم طوباويين بشكل خطير، إن ما نواجهه في الأزمة الحالية هو عواقب المركز الطوباوي لهذا النظام نفسه. في حين أن الليبرالية تقدم نفسها بوصفها تجسيداً لمعاداة الطوباوية، وانتصار الليبرالية الجديدة كإشارة تركناها خلف المشاريع الطوباوية المسؤولة عن الرعب الشمولي للقرن العشرين، يصبح الآن واضحاً أن العصر الطوباوي الحقيقي كان في التسعينيات كلينتونية سعيدة بإيمانها عن وصولنا


Twitter: @ketab_n

«نهاية التاريخ»، وجدت الإنسانية أخيراً صيغة للنظام الاقتصادي الاجتماعي الأمثل، لكن تجربة العقود الأخيرة تظهر بوضوح بأن السوق ليست آلية حميدة أفضل أعمالها عندما تترك لأدواتها الخاصة، إنها تتطلب قدراً كبيراً من عنف السوق الإضافي لتؤسس وتصلح شروط تشغيلها.

يُظهر الانهيار المالي الحاصل مدى صعوبة تشويش الأرضية السميكة للفرضيات الطوباوية التي تحكم أفعالنا كما يصفها الآن باديو[1] ببلاغة، على المواطن العادي أن «يفهم» أن من المستحيل اختلاق العجز في الضمان الاجتماعي، لكن هذه ضرورة لحشو البلايين الهائلة في حفرة البنوك المالية؟ علينا أن نقبل على نحو كئيب أنه ما من أحد يتخيل إمكانية تأميم مصنع مولع بالمنافسة بعد الآن، مصنع يوظف آلاف العمال، لكن من الواضح أن ذلك جرى لمصرف أفلس بالمضاربة؟[2]

على المرء أن يستقرئ من هذا التصريح: بالرغم من أننا أدركنا دوماً إلحاح المشاكل عندما كنا نحارب الإيدز، والجوع، ونقص المياه، والاحتباس الحراري..إلخ، كان يبدو أن هناك وقتاً للتفكير ملياً لتأجيل القرارات (نتذكر أن الخلاصة الأساسية للقاء القادة الأخير في بالي[3]، الذي عُدّ لقاء ناجحاً، هي أنهم سوف يلتقون

---

(١) الآن باديو: فيلسوف فرنسي.

(٢) de quell reel cette crise est elle le spectacle?، آلان باديو، اللوموند، ١٧ تشرين الأول، ٢٠٠٨.

(٣) بالي: جزيرة في إندونيسيا.



Twitter: @ketab_n

مجدداً خلال سنتين لمواصلة حديثهم...) لكن مع الانهيار المالي، كانت ضرورة التحرك غير مشروطة، أموال بأحجام لا يمكن تخيلها كان لابد من إيجادها في الحال. إنقاذ الأنواع المعرضة للخطر، إنقاذ النباتات من الاحتباس الحراري، إنقاذ مرضى الايدز وهؤلاء الذين يموتون بسبب نقص الأموال للعلاجات الغالية الثمن، إنقاذ الأطفال المتضورين جوعاً... كل هذا يمكن أن ينتظر قليلاً. النداء لـ «أنقذوا البنوك!»، على العكس، أمر غير مشروط يجب أن يقابل بتحرك سريع. الرعب كان تاماً جداً؛ لأن الاتفاق الغير تحزبي والعالمي قد تم تأسيسه في الحال، ونُسيت كل الأحقاد بين قادة العالم في التو رغبة في تجنب الكارثة. لكن ما عنته هذه النظرة «ثنائية الحزب» الشهيرة جداً هو أنه حتى الإجراءات الديمقراطية كانت de facto محرمة: لم يكن هناك وقت للانخراط في نقاش صحيح، وهؤلاء الذين عارضوا الخطة في الكونجرس الأمريكي سرعان ما أبرموا اتفاقاً مع الأغلبية. اجتمع بوش وماكين وأوباما بالسرعة الكلية، موضحين لرجال ونساء الكونجرس المشوشين أنه لم يكن هناك ببساطة وقت للنقاش، كنا في حالة طوارئ، والأشياء كان يجب إنجازها بسرعة... ودعنا أيضاً لا ننسى أن المبلغ الهائل جداً من المال لم يُصرف على مشكلة ملموسة أو «واقعية» واضحة، لكن بشكل أساسي رغبة في إعادة الثقة بالأسواق، ذلك، ببساطة لتغيير معتقدات الناس.

هل نحتاج الى أي إثبات إضافي على أن رأس المال هو حقيقة حياتنا، الحقيقة التي أولوياتها أكثر قطعية بكثير من أغلب


Twitter: @ketab_n

المتطلبات الضاغطة أيضاً على واقعنا الطبيعي والاجتماعي؟ قدّم جوزيف برودسكي[١] حلاً مناسباً للبحث عن «العناصر الخمسة» الغامضة، مقدار مثالي لحقيقتنا: «سوية مع الهواء، والأرض، والماء، والنار، المال هو القوة الطبيعية الخامسة التي وجب على الإنسان تقديرها في أغلب الأحيان».[٢] إذا ما كان لدى المرء أية شكوك حول هذا، فإن نظرة سريعة على الانهيار المالي الأخير يجب أن تكون أكثر من كافية لتبديدها.

في نهاية عام ٢٠٠٨ نشرت مجموعة باحثة تدرس الاتجاهات في وباء السل في أوربا الشرقية خلال العقود القليلة الأخيرة ما توصلت إليه للعلن؛ بعد تحليل بيانات لأكثر من عشرين حالة، أسس الباحثون من كامبريدج ويال[٣] ارتباطاً حقيقياً بين قروض أعطيت لهذه الحالات من قبل صندوق النقد الدولي[٤] والارتفاع في حالات السل، عندما توقفت هذه القروض تراجع الوباء. تفسير هذا الارتباط الغريب ظاهرياً بسيط: كان الشرط لمنح القروض هو أن تقدم الحالة المستقبلة «التزاماً مالياً»، بمعنى آخر، خفض الانفاق الوطني، والضحية الأولى للإجراءات التي قدر لها إعادة تأسيس «الصحة المالية» هي الصحة نفسها، بتعبير آخر، الإنفاق

---

(١) جوزيف برودسكي: شاعر وكاتب مقالات روسي.

(٢) أقل من واحد: مقالات مختارة، جوزيف برودسكي، نيويورك، فارار شتراوس وجيرو، ١٩٨٦، ص١٥٧.

(٣) كامبريدج: جامعة إنجليزية، ويال: جامعة أمريكية.

(٤) IMF: International Monetary Fund.



Twitter: @ketab_n

على خدمات الصحة العامة فتح حينها الفضاء للخيرين الغربيين للشك بالشرط الكارثي للخدمات الطبية في هذه البلاد ولتقديم المساعدة في شكل الإحسان.

مكن الانهيار المالي تجاهل اللاعقلانية الصارخة للرأسمالية العالمية. قارن الـ ٧٠٠ بليون دولار المصروفة من قبل أمريكا وحدها رغبة في استقرار النظام المصرفي بواقعة أن الـ ٢٢ بليون دولار التي تعهدت بها الأمم الغنية لمساعدة زراعة الأمم النامية الأكثر فقراً في مواجهة أزمة الغذاء الحالية، لم يتم توفير سوى ٢,٢ بليون فقط منها حتى الآن. لا يمكن إلقاء اللوم في أزمة الغذاء على مشبوهين اعتياديين مثل الفساد، اللافعالية وسياسة التدخل في دول العالم الثالث، على العكس، إنه يقع مباشرة على عولمة الزراعة، كما وضح بيل كلينتون في تصريحاته حول الأزمة في اجتماع للأمم المتحدة في يوم الغذاء العالمي المعنون، بعنوان دلالي[١]: «we blew it' on global food»[٢]. كان فحوى خطاب كلينتون أن الأزمة المعاصرة تظهر كيف «أننا كلنا ساهمنا في تفجيرها، بما فيهم أنا عندما كنت رئيساً»، باعتبار المحاصيل الزراعية سلعا بدلاً من كونها مصادر حيوية جداً لفقراء العالم. كان كلينتون شديد الوضوح بعدم إلقائه اللوم على دول بعينها أو حكومات، لكن على السياسات الغربية طويلة المدى التي فرضت من قبل أمريكا والاتحاد

(١) كما ذكر من قبل الاشويتيد برس في ٢٣ تشرين الأول، ٢٠٠٨.
(٢) نحن أتينا بها على الغذاء العالمي.


Twitter: @ketab_n

الأوربي، وطبقت لعقود بواسطة البنك الدولي، ومنظمة الغذاء العالمية، ومؤسسات عالمية أخرى. أكرهت هذه السياسات البلدان الآسيوية والإفريقية على حسر الإعانات الحكومية بالأسمدة، البذار المطورة، ومساهمات زراعية أخرى، مما فتح الطريق لاستعمال أفضل الأراضي للمحاصيل المصدرة وبالتالي تدمير قدرة هذه البلاد على الاكتفاء الذاتي في إنتاج الغذاء. كانت نتيجة هذه «التعديلات البنيوية» تكامل الزراعة المحلية مع الاقتصاد العالمي، بما أن المحاصيل المحلية كانت مصدرة، كان على البلدان الاعتماد على الغذاء المستورد أكثر فأكثر، في حين ترك المزارعون أراضيهم وأجبروا على الانتقال إلى الأحياء الفقيرة، حيث العمل الوحيد المتاح كان في محلات العمل الشاق غير المنتج. بهذه الطريقة ظلت بلاد كثيرة في حالة تبعية ما بعد استعمارية وأصبحت ضعيفة أكثر وأكثر عرضة لتقلبات السوق، تسبب الارتفاع في أسعار القمح خلال السنوات الأخيرة (أيضاً سببه استعمال المحاصيل كوقود حيوي بدلاً من غذاء) بالجوع في بلدان من هاييتي إلى إثيوبيا.

أصبحت مثل هذه الإستراتيجيات في السنوات الأخيرة أكثر شمولاً، الآن تنظر حكومات شركات عالمية كبرى لتعويض النقص في الأرض الصالحة للزراعة في بلدانها بإقامة زراعات صناعية هائلة في الخارج[1]. على سبيل المثال، في تشرين الثاني من عام

(١) انظر: سلة خبز كوريا الجنوبية: مدغشقر، فيفيان والت، التايم، ٢٣ تشرين الثاني، ٢٠٠٨.



Twitter: @ketab_n

٢٠٠٨، أعلنت دايو للإمداد[١] في كوريا الجنوبية أنها أجرت تفاوضاً على إيجار مدته ٩٩ عاماً لمجموع ٣,٢ مليون أكر[٢] من الأرض الزراعية في مدغشقر، ما يعادل تقريباً نصف أرضها الصالحة للزراعة. تخطط دايو لوضع حوالي ثلاثة أرباع هذه الأرض لصالح زراعة الذرة، والباقي يستعمل لإنتاج زيت النخيل المحصول الرئيس في سوق الوقود الحيوي العالمي. لكن هذه قمة جبل الجليد فقط: أبرمت شركات عديدة أوربية عقود إيجار لأراض خلال السنتين الأخيرتين لزراعة محاصيل للغذاء والوقود الحيوي، مثل شركة شمس البريطانية للوقود الحيوي التي زرعت محاصيل الوقود الحيوي في إثيوبيا وموزمبيق وتنزانيا. تجذب تربة إفريقيا الخصبة أيضاً البلدان في الخليج الفارسي الغنية بالنفط الذين تجبرهم صحاريهم الواسعة على استيراد أغلب أغذيتهم. على الرغم من أن مثل هذه الدول الغنية قادرة بسهولة على دفع ثمن الغذاء المستورد إلا أن الاضطراب في أسواق الغذاء العالمية زاد فقط حافزهم لتأمين مصادرهم الخاصة من الموارد.

إذن ما الحافز، بالنسبة إلى تلك البلدان الإفريقية التي يتفشى فيها الجوع، ويفتقر المزارعون إلى الأدوات الأساسية، والسماد، والوقود، والبنية التحتية للنقل المطلوبة لزراعة المحاصيل بشكل كفء وإيصالها إلى الأسواق؟ يدعي ممثلو دايو بأن اتفاقهم سوف

---

(١) Daewoo logistics.

(٢) وحدة قياس المساحة ويقابلها في العربية الفدان وتعادل ٥٦٠.٤٣ متراً مربعاً.



Twitter: @ketab_n

يفيد أيضاً مدغشقر، ليس فقط الأرض التي يستأجرونها والغير مستخدمة حالياً، تخطط دايو لتصدير محصول الأرض، واستثمار حوالي ٦ بليون دولار خلال السنوات العشرين القادمة لبناء تسهيلات الميناء، والطرقات، وأنظمة الري، ومحطات الكهرباء الضرورية لدعم أعمالها الزراعية هناك، وسوف تخلق آلاف الأعمال للمدغشقريين من غير العاملين. الأعمال سوف تساعد الشعب في مدغشقر على كسب المال لشراء غذائهم حتى إذا ما تم تصديره[١]؛ لهذا أغلقت حلقة التبعية ما بعد الاستعمارية ثانية، التبعية الغذائية وحدها ستتفاقم.

ألسنا لهذا نقترب تدريجياً إلى حالة عالمية ستصبح فيها الندرة المحتملة للمصادر المادية الأساسية الثلاثة (الوقود، الماء، الغذاء) هي العنصر المقرر للسياسات العالمية؟ أليس نقص الغذاء الذي يظهر نفسه في الوقت الحاضر على شكل أزمة متقطعة هنا وهناك هو واحدة من إشارات نهاية العالم القادمة؟ في حين أن حدوثها مرتبط بعوامل متعددة مثل نمو الطلب في الدول السريعة النمو مثل الهند والصين، حالات ضعف الحصاد بسبب الاضطرابات البيئية، استعمال أجزاء كبيرة من الأراضي الصالحة للزراعة في بلدان العالم الثالث لتصدير المنتجات، استعمال السوق المحدد للقمح لأغراض أخرى مثل الوقود الحيوي، يبدو واضحاً أن هذه ليست مسألة قصيرة المدى يمكن التغلب عليها سريعاً من خلال تنظيم ملائم

---

(١) المرجع السابق.



Twitter: @ketab_n

للسوق، لكنها أيضاً تدل على مشكلة طويلة المدى من المستحيل حلها بوسائل اقتصاد السوق. يشير بعض المدافعين عن نظام العالم الجديد إلى أن النقص في الغذاء هو بذاته مؤشر على تقدم مادي، طالما أن الناس في دول العالم الثالث السريعة النمو يكسبون أكثر ولهذا يمكن أن يتحملوا أكل المزيد. المشكلة مع ذلك هي أن هذا الطلب الجديد على الغذاء يؤدي بالملايين إلى الجوع في هذه البلدان التي ينقصها مثل هذا النمو الاقتصادي السريع.

ألا ينطبق الأمر نفسه على أزمة الطاقة القادمة والنقص المرتقب في موارد المياه؟ كي نقترب من هذه المشاكل بشكل كافٍ سيكون من الضروري اختراع أشكال جديدة من العمل الجماعي على نطاق واسع، لن تكون فعالة صيغ تدخل الدولة القياسية ولا الأشكال الشهيرة من التنظيم الذاتي المحلي، إذا لم تحل مثل هذه المشاكل بطريقة أو بأخرى، سيكون السيناريو الأكثر احتمالاً هو عصر جديد من التفرقة العنصرية فيه الأجزاء المعزولة من العالم المتمتعة بوفرة الغذاء، الماء والطاقة مفصولة عن «الخارج» الفوضوي المميز بفوضى واسعة الانتشار، وبجوع وحرب دائمين. ما الذي يتوجب على الناس فعله في هاييتي ومناطق أخرى منكوبة بنقص الغذاء؟ ألا ينبغي أن يكون لديها الحق كله بالعنف الثوري؟ الشيوعية ثانية عند البوابات.

كان كلينتون محقاً في قوله: إن «الغذاء ليس سلعةً كباقي السلع. علينا العودة إلى سياسة الاكتفاء الذاتي بالغذاء. سيكون جنونياً


Twitter: @ketab_n

تفكيرنا بأننا نستطيع تنمية البلدان حول العالم من دون زيادة قدرتها على تغذية نفسها». ثمة على الأقل نقطتان تضافان هنا، أولاً: كما أشير سابقاً فيما يتعلق بمالي، في حال فرض عولمة الزراعة في بلدان العالم الثالث، فإن البلدان الغربية المتطورة تلقي أهمية شديدة كي تبقى مكتفية بذاتها غذائياً بالدعم المالي لمزارعيها، (نستحضر الدعم المالي لحسابات المزارعين بمبالغ تزيد عن نصف ميزانية الاتحاد الأوربي، لم يتخلّ الغرب أبداً عن سياسة الاكتفاء الذاتي الأقصى بالغذاء!)، ثانياً: على المرء أن يلاحظ أن قائمة المنتجات والخدمات مثل الغذاء ليست «سلعاً كباقي السلع» تتوسع أكثر لتتضمن ليس فقط الدفاع (كما يعرف كل الوطنيين)، لكن قبل كل شيء الماء، والطاقة، والبيئة، والثقافة، والتعليم، والصحة... من الذي يقرر الأولويات هنا، وكيف، إذا كان من غير الممكن ترك مثل هذه القرارات للسوق؟ فمن هنا يجب أن تعلو مسألة الشيوعية مرة ثانية.


Twitter: @ketab_n

## الفصل الثّاني

# الفرضيّة الشيوعيّة

### ١ ـ الفهم الجديد للمشاعات:

بعد انتصارهم عام ١٩٢٢في الحرب الأهلية ضد كل الغرباء، كان على البلاشفة التراجع نحو «سياسة اقتصادية جديدة» (NEP)[١]، أفسحت مجالاً أكثر اتساعاً لاقتصاد السوق والملكية الخاصة، كتب لينين نصاً قصيراً عنونه بـ «عن صعود جبل عال». استخدم التشبيه بمتسلق كان عليه النزول إلى الوادي بعد أول محاولة فاشلة ليبلغ قمة جبلية جديدة كوسيلة لوصف معنى القيام بالتراجع في العملية الثورية. السؤال هو: كيف يمكن للمرء القيام بمثل هذا التراجع دون أن يخون بانتهازية إخلاص المرء للقضية؟ بعد تعداد كل من إنجازات وإخفاقات الدولة السوفيتية، يختتم لينين: «الشيوعيون الذين ليس عندهم أوهام، الذين لا يستسلمون لليأس، والذين يحفظون قوتهم ومرونتهم» ليبدؤوا من البداية» مراراً

---

(١) New Economic Policy. (المترجمة)



Twitter: @ketab_n

وتكراراً في مباشرة مهمة صعبة للغاية، ليسوا مدانين وفي أسوأ الاحتمالات لن يندثروا»[١]. هذا لينين في أقصى بيكيتيته[٢]، مردداً سطراً من worst ward Ho[٣]: «حاول ثانية، افشل ثانية، افشل أكثر». جملته «للبدء من البداية مراراً وتكراراً» توضح أنه لا يتكلم عن إبطاء التقدم فحسب رغبة في تحصين ما تم إنجازه مسبقاً، لكن أكثر جذرية بشأن العودة إلى نقطة البداية، على المرء البدء من البداية، ليس من القمة التي قد وصلها المرء بنجاح في الجهد السابق.

بمصطلحات كيركيجاردية[٤]، لا تشمل العملية الثورية تقدماً تدرجياً، لكن حركة تكرارية، حركة تكرار البداية مراراً وتكراراً. وهنا تماماً حيث نجد أنفسنا اليوم، بعد «الكارثة الغامضة» لعام ١٩٨٩، النهاية الحتمية للعهد الذي بدأ مع ثورة أكتوبر. لذلك على المرء رفض أي إحساس بالتواصل مع ما عناه اليسار خلال القرنين الأخيرين. مع أن لحظات مهيبة مثل ذروة اليعاقبة[٥] في الثورة الفرنسية وثورة أكتوبر ستبقيان إلى الأبد جزءاً رئيساً من ذاكرتنا،

---

(١) ف. ا. لينين، «ملاحظات المروج: في صعود جبل عال»، في الأعمال الكاملة، المجلد ٣٣، موسكو: التقدم للنشر ١٩٦٥، ص ٢٠٤ ١١.

(٢) نسبة إلى صموئيل بيكيت. (المترجمة).

(٣) worst ward Ho: عاهرة ورست ورد، رواية لصموئيل بيكيت.

(٤) نسبة إلى كيركيجارد. (المترجمة).

(٥) وهو الاسم الذي كان شائعاً إطلاقه على كل داعمي الآراء الثورية وعلى وجه الخصوص على أعضاء نادي اليعاقبة وهو النادي السياسي الأكثر شهرة خلال الثورة الفرنسية.



Twitter: @ketab_n

الإطار العام لا بد أن يتم تجاوزه، وكل شيء يجب إعادة التفكير فيه، بداية من نقطة الصفر. هذه البداية، بالطبع، هي ما يدعوه باديو» الفرضية الشيوعية»:

تظل الفرضية الشيوعية الفرضية الصحيحة، كما قلت، وأنا لا أرى سواها. إذا كان لا بد من التخلي عن هذه الفرضية، فما من عمل جدير فعله طلباً لتحرك جماعي إذن. من دون النظرة الشيوعية، من دون هذه الفكرة لا يوجد أمر في المستقبل السياسي والتاريخي من ذلك النوع الذي يهم الفيلسوف. يمكن لكل فرد متابعة عمله الخاص، ولن نشير إليه ثانية... لكن التمسك بالفكرة، وجود الفرضية، لا يعني بأنه يجب الإبقاء على شكل ظهورها الأول الذي ركز على الملكية والدولة، كما هو تماماً. في الحقيقة، ما اعتبرناه مهمة فلسفية، يمكننا القول حتى كواجب، هو من أجل المساعدة على تكون شرط وجود جديد للفرضية. جديد من ناحية نمط التجريب السياسي الذي يمكن لهذه الفرضية أن تقيمه[1].

لا بد للمرء أن يكون حذراً فلا يفسر هذه الأسطر بطريقة كانطية، تصور الشيوعية كـ «فكرة تنظيمية»، تنعش بذلك خيال «الاشتراكية الأخلاقية» التي تعد المساواة قاعدتها ومعيارها البديهي. على المرء إبقاء الإشارة الدقيقة لمجموعة العوامل المضادة الاجتماعية الفعلية التي تولد الحاجة للشيوعية، إن فهم ماركس

(١) معنى ساركوزي، آلان باديو، لندن، فيرزو، ٢٠٠٨، ص ١١٥.



Twitter: @ketab_n

للشيوعية بوصفها حركة تستجيب لمثل هذه العوامل، وليست كمثال، لا يزال مناسبا كلياً. بأية حال، إذا تصورنا الشيوعية على أنها «فكرة خالدة»، فهذا ينطوي بداهةً على أن الحالة التي تولدها ليست أقل خلوداً، بمعنى آخر، إن العامل المضاد الذي تستجيب له الشيوعية سيكون موجوداً دائماً، هي خطوة واحدة صغيرة فقط لتفسير «تفكيكي» للشيوعية بوصفها حلم المجيء، إلغاء كل تمثيل معزول، الحلم الذي يحيا على استحالته. كيف لنا عندها كسر هذه الشكلية رغبة في صياغة عوامل مضادة ستستمر بتوليد الفكرة الشيوعية؟ أين سنبحث عن نمط الفكرة الجديد هذا؟

من السهولة بمكان الضحك من فكرة فوكوياما عن «نهاية التاريخ»، لكن معظم الناس اليوم فوكوياميين، يقبلون بالرأسمالية الديمقراطية الليبرالية بوصفها الصيغة التي وجدت أخيراً لأفضل مجتمع ممكن، على هذا النحو كل ما يمكن للمرء فعله هو محاولة جعلها أكثر عدلاً وتسامحاً، يطرح هنا سؤال بسيط ولكن وثيق الصلة بالموضوع: إذا كان واضحاً أن الرأسمالية الديمقراطية الليبرالية تعمل بشكل أفضل من كل البدائل المعروفة، إذا لم تكن الرأسمالية الديمقراطية الليبرالية الأفضل، إذن على الأقل الشكل الأقل سوءاً للمجتمع، لماذا لا نسلّم لها أنفسنا ببساطة ونضج، ونقبلها بصدق؟ لماذا نصرّ، عكس كل الآمال، على فكرة الشيوعية؟ أليس مثل هذا الإصرار هو حالة نموذجية لنرجسية القضية الخاسرة؟ أليست هذه النرجسية تشكل أساساً للسلوك


Twitter: @ketab_n

المهيمن لليساريين الأكاديميين الذين انتظروا المنظرين ليقولوا لهم ما عليهم فعله؟ هم يريدون تسليم أنفسهم بتهور، لكن لا يعرفون ما يجب عليهم فعله بشكل شديد التأثير، إنهم ينتظرون الجواب من المنظرين. مثل هذا السلوك هو زائف في ذاته، كما لو أن النظرية ستقدم الصيغة السحرية القادرة على كسر الجمود العملي. الجواب الوحيد الصحيح هنا هو إذا كنت لا تعلم حقيقة ما عليك فعله، فما من أحد يمكنه إخبارك، والقضية خاسرة بشكل مستعصٍ.

كانت المشكلة الحاسمة العظيمة للماركسية الغربية النقص في الموضوع أو العامل الثوري. لم لا تكمل الطبقة العاملة العبور بواسطتها لأجلها وتنصب نفسها أداة ثورية؟ هذه المشكلة هي الدافع الرئيس للتحول إلى التحليل النفسي المستدعى رغبةً في شرح الآليات الشهوانية libidinal اللا واعية التي كانت تمنع صعود الوعي الطبقي، الآليات المحفورة في وجود (الحالة الاجتماعية) الطبقة العاملة. بهذه الطريقة، أمكن إنقاذ حقيقة التحليل الاقتصادي الاجتماعي الماركسي، ولم يكن هناك حاجة للتنازل لنظريات «منقحة» بشأن صعود الطبقات الوسطى. لهذا السبب نفسه كانت الماركسية الغربية أيضاً منخرطة في بحث مستمر عن أدوات اجتماعية أخرى يمكن أن تلعب دور الموضوع الثوري بوصفها بدائل جاهزة يمكن أن تحل محل الطبقة العاملة المترددة؛ مثل فلاحي العالم الثالث، والطلبة، والمفكرين، والمستبعدين...


Twitter: @ketab_n

يكمن فشل الطبقة العاملة كموضوع ثوري أصلاً في مركز الثورة البلشفية ذاتها؛ كمنت براعة لينين في قدرته على اكتشاف» الغضب الكامن» لدى الفلاحين المحبطين. حدثت ثورة أكتوبر تحت راية «الأرض والسلام» التي خاطبت الأغلبية الساحقة من الفلاحين منتهزةً اللحظة الموجزة لاستيائهم الجذري. كان لينين يفكر بموازاة هذه المجريات منذ عقد سابق، لهذا كان شديد الذعر إزاء فرصة نجاح إصلاح ستوليبين[1] الزراعي، الذي هدف إلى خلق طبقة جديدة أكثر قوة من المزارعين المستقلين. كان على ثقة من أنه إذا نجح سوتليبين، فستخسر الثورة فرصتها لعقود.

تبعت كل الثورات الاجتماعية الناجحة من كوبا إلى يوغسلافيا النموذج نفسه بانتهاز الإمكانية المحلية في الحالة الحرجة والمتطرفة، وكسب الرغبة بالتحرر الوطني أو أشكال أخرى من «شهوة رأس المال». بالطبع، سيشير مؤيد لمنطق الهيمنة هنا إلى أن هذا هو المنطق العادي للثورة، وأن الجمع الحاسم تم بلوغه من خلال سلسلة معادلات من بين متطلبات متعددة، السلسلة المشروطة والمعتمدة دائماً بشكل راديكالي على مجموعة من الظروف الدقيقة والفريدة. لا تحدث الثورة أبداً عندما ينهار كل الأخصام أمام أكبرهم، لكن فقط عندما يجمعون قوتهم بشكل تعاضدي. لكن المشكلة هنا أكثر تعقيداً: ليست الفكرة فقط أن

---

(١) سلسلة من التغييرات في القطاع الزراعي للإمبراطورية الروسية في عهد بيوتر ستوليبين رئيس مجلس الوزراء في ذلك الحين.



Twitter: @ketab_n

الثورة لم تعد تواكب التاريخ وتتبع قوانينه، طالما أن ليس هناك تاريخ، وأن التاريخ هو عملية محتملة ومفتوحة، ثمة مشكلة أخرىإنها كما لو أن هناك قانوناً للتاريخ، مجرى أكثر أو أقل وضوحاً وهيمنة للتطور التاريخي، لكن تلك الثورة يمكن أن تحدث فقط في فتراته الفاصلة، «عكس التيار» على الثوريين الانتظار بصبر لحظة (التي تكون قصيرة عادة) انهيار النظام أو عندما يكون عجزه صريحاً، عليهم تفجير نافذة الإمكانية، للاستيلاء على السلطة التي تكمن عند تلك اللحظة في الشارع ثم يحكمون قبضتهم عليها، يبنون الأجهزة القمعية، وغير ذلك، لذا عندما تنتهي لحظة التشوش وتصحو الأغلبية لتكون مخيبة بالنظام الجديد، من المتأخر جداً قلب الأشياء؛ لأن الثوار الآن محصنين بحزم.

حالة شيوعيي يوغسلافيا السابقة نموذجية هنا: خلال الحرب العالمية الثانية سيطر الشيوعيون بشدة على المقاومة ضد قوى الاحتلال الألماني، محتكرين دورهم في النضال ضد الفاشية ينشدون فعلياً تحطيم كل قوى المقاومة «البرجوازية» البديلة، في حين ينكرون في الوقت نفسه الطبيعة الشيوعية لنضالهم (هؤلاء الذين شككوا بأن الشيوعيين خططوا للإمساك بالسلطة وتحريك الثورة في نهاية الحرب سرعان ما أدينوا بوصفهم ناشرين لدعاية معادية) بعد الحرب، عندما استولوا فعلاً على السلطة الكاملة، تغيرت الأشياء بسرعة وعرض النظام صراحة طبيعته الشيوعية الحقيقية. بالرغم من شعبيتهم الأصيلة حتى عام ١٩٤٦، زور


Twitter: @ketab_n

الشيوعيون بصراحة الانتخابات العامة لتلك السنة، وعندما سئلوا عن سبب حصول ذلك ـ طالما يمكنهم بسهولة الفوز في انتخابات حرة بأية حال ـ كان جوابهم (سراً، بالطبع) أن ما حدث كان حقيقة، لكن بعد أربع سنوات سيخسرون الانتخابات التالية، لذا كان من الأفضل توضيح أي نوع من الانتخابات كانوا مهيئين لتحمله. باختصار، كانوا مدركين تماماً للإمكانية الفريدة التي أتت بهم إلى السلطة. اعتمد إدراك فشل الشيوعيين التاريخي في بناء ودعم هيمنة طويلة الأمد أصيلة على الدعم الشعبي، وهذا كان منذ البداية مأخوذاً في الحسبان.

ليس كافياً ببساطة أن تظل مخلصاً للفكرة الشيوعية، على المرء أن يحدد له موقعاً ضمن خصومات الواقع التاريخية التي تمنح لهذه الفكرة ضرورة عملية. السؤال الوحيد الحقيقي اليوم هو: هل نصادق على الأقلمة السائدة للرأسمالية، أو أن الرأسمالية العالمية الحالية تحتوي عوامل مضادة لها من القوة ما يكفي لمنع إعادة إنتاجها غير المحدود؟ هناك أربعة من العوامل المضادة: التهديد الوشيك للكارثة البيئية، ولا تلائمية فكرة الملكية الخاصة في العلاقة مع ما يسمى «الملكية الفكرية»، والتضمينات الاجتماعية الأخلاقية للتطورات الجديدة التقنية العلمية (بخاصة في علم الجينات الحيوي)، وأخيراً خلق أشكال جديدة من التفرقة العنصرية (الأبارتيد)، جدران وأحياء فقيرة جديدة. هناك فرق نوعي بين هذه السمة الأخيرة ـ الفجوة التي تفصل المستبعد من المتضمن ـ والعوامل الثلاثة الأخرى التي تشير إلى مفاهيم جديدة أطلق عليها


Twitter: @ketab_n

هاردت ونيجري تسمية «المشاعات»، المادة المشتركة لكينونتنا الاجتماعية، والتخصيص الذي يشتمل على أفعال عنيفة التي عليها أن تقاوم بوسائل عنيفة:

مشاعات الثقافة، الأشكال الاجتماعية الحالية من رأس المال «المعرفي»، اللغة في المقام الأول، ووسائلنا للتواصل والتعليم، والبنية التحتية المشتركة للنقل العام، والكهرباء، والنظام البريدي...إلخ.

مشاعات الطبيعة الخارجية المهددة بالتلوث والاستغلال (من النفط لغابات الأمطار والبيئة الطبيعية نفسها)،

مشاعات الطبيعة الداخلية (ميراث علم الجينات الحيوي للإنسانية)، مع تقنيات جديدة لعلم الوراثة خلق الإنسان الجديد بالمعنى الحرفي لتغيير الطبيعة البشرية وليصبح مفهوماً واقعياً.

ما تتقاسمه النضالات في كل هذه المجالات هو الوعي بالدمار المحتمل، يصل ليتضمن الإبادة الذاتية للبشرية نفسها، على المنطق الرأسمالي الذي يغلف المشاعات أن يسمح بإدارة حرة. كان نيكولاس ستيرن[1] على حق بتشخيص الأزمة المناخية على أنها «فشل السوق الأعظم في تاريخ البشرية»[2]، فعندما كتب كيشان خوداي قائد فريق في الأمم المتحدة مؤخراً: «هناك شعور متصاعد بالمواطنة البيئية العالمية، رغبة في تنصيب تغير المناخ كمسألة

(١) نيكولاس ستيرن: اقتصادي وأكاديمي بريطاني.
(٢) مقتبس من مجلة التايم، ٢٤ كانون الأول، ٢٠٠٧، ص٢.


Twitter: @ketab_n

اهتمام مشترك لكل البشرية»[1]، على المرء أن يمنح كل الثقل لمصطلحات «المواطنة العالمية» و«الاهتمام المشترك» حتى يصل إلى الحاجة لتأسيس منظمة سياسية عالمية تعدل وتوجه آليات السوق، وتشرح وجهة نظر الشيوعية بطريقة مناسبة.

إنها الإشارة إلى المشاعات التي تبَرر إحياء فكرة الشيوعية؛ فهي تسمح لنا برؤية «التضمين» التقدمي للمشاعات مثل عملية ضم هؤلاء الذين أبعدوا عن جوهرهم الخاص إلى طبقة البروليتاريا. علينا ألا نتخلى عن الفكرة البروليتارية أو عن الموقف البروليتاري، على العكس، الأزمة الحالية تجبرنا على تجذيرها على المستوى الوجودي جيداً ما بعد تخيل ماركس. نحتاج إلى مفهوم أكثر تجذراً من الموضوع البروليتاري، الموضوع المختزل إلى نقطة سريعة الزوال للكوجيتو الديكارتي) أنا أفكر إذن أنا موجود).

لهذا السبب لن تنجم السياسات الجديدة التحررية بعد الآن عن أداة اجتماعية خاصة، لكن من مجموعة متفجرة من عوامل مختلفة. ما يجمعنا هو أنه على العكس من الصورة التقليدية للطبقة الكادحة التي «ليس لديها شيء لتخسره إلا قيودها» نحن مهددون بفقدان كل شيء؛ التهديد هو أننا سنكون مختزلين إلى مواضيع مجردة تخلو من كل محتوى جوهري، مطرودين من جوهرنا الرمزي، قاعدتنا الأصلية تمت معالجتها بشدة، مزروعين في بيئة غير صالحة للحياة.

---

(١) مقتبس من المرجع السابق.



Twitter: @ketab_n

هذا الدمار الثلاثي لكينونتنا الكاملة يجعلنا جميعنا بروليتاريين مختزلين إلى «ذاتية مادية»، كما عبر عنها ماركس في Grundrisse. التحدي السياسي الأخلاقي هو إدراك أنفسنا في هذه الشخصية بطريقة ما، نحن جميعنا مستبعدون من الطبيعة كما من جوهرنا الرمزي. اليوم كلنا homo sacer محتملون والطريقة الوحيدة لمنع ذلك من أن يصبح واقعاً هو التحرك وقائياً.

إذا كان هذا يبدو نبوئياً (apocalyptic)، يمكن للمرء فقط الرد بأننا نعيش في أزمنة نبوئية. من السهل رؤية كيف أن كل من العمليات الثلاثة للبروليتارية[1] تشير إلى نهاية نبوئية: الانهيار البيئي، والاختزال الوراثي للبشر إلى آلات يتم التلاعب بها، كل التحكم الرقمي بحياتنا... عند كل هذه المستويات تقترب الأشياء من نقطة الصفر، «نهاية الأزمان قريبة»، هنا وصف إيد آيريس[2]:

نحن نواجه شيئاً ما خارجاً تماماً عن تجربتنا الجمعية، لا نراه حقيقة حتى وإن كان الدليل ساحق. بالنسبة إلينا ذلك «الشيء» هو غارة من تناوبات مادية وحيوية هائلة في العالم الذي يحملنا[3].

عند مستوى حيوي وجيولوجي يعدد آيريس أربعة «زوائد حادة» (تطورات متسارعة) تصل مقاربة نقطة الصفر التي سيبلغ عندها

---

(١) Proletarianism: عملية تحويل أرباب العمل أو العاطلين أو الذين يعلمون لحسابهم الخاص إلى موظفين بأجر لدى صاحب عمل.

(٢) ايد آيريس: محرر ومؤسس وناشر مجلة runner times.

(٣) ايد اريس، «لماذا نحن لسنا مندهشين» ساعة العالم، المجلد ١٢، أيار ١٩٩٩.



Twitter: @ketab_n

التوسع الكمي إلى حد سيحدث التغير الكيفي عنده. «الزوائد» هي النمو السكاني، واستهلاك المصادر المحدودة، وإشعاعات غاز الكربون، والانقراض الهائل للأنواع. وللتغلب على هذه التهديدات تحشد الأيديولوجية المهيمنة آليات النفاق وخداع النفس التي تتضمن إرادة التجاهل: «نمط عام من السلوك ضمن المجتمعات البشرية المهددة لتصبح أكثر تعمية، بدلاً من أكثر تركيزاً على الأزمة، عندما يفشلون»، يجري الأمر نفسه على الأزمة الاقتصادية المستمرة: في آخر ربيع ٢٠٠٩ كانت «إعادة التطبيع» ناجحة، نُسي الهلع وأعلن أن الحالة «تتحسن»، أو على الأقل تم التحكم بالضرر (الثمن المدفوع من أجل هذا «الشفاء» في بلدان العالم الثالث، كان بالطبع نادراً ما أشير إليه)، ولذلك تشكيل تحذير مشؤوم من أن الرسالة الحقيقية للأزمة تم تجاهلها، وبأنه يمكننا أن نسترخي مرة ثانية، ونواصل مسيرنا الطويل نحو نهاية العالم.

شخّصت نهاية العالم بنموذج زمني خاص، يقابل بشكل واضح النموذجين المسيطرين الآخرين: الزمن السيّار التقليدي (زمن منظم ومضبوط على المبادئ الكونية، يعكس نظام الطبيعة والسماء، الزمن الذي منه الانسان والكون يصدحان في انسجام)، والزمن الخطي الحديث للتقدم التدريجي أو النمو. زمن الأبوكاليبتيك هو «زمن نهاية الزمن»، زمن الطوارئ، زمن «حالة الاستثناء» حيث النهاية قريبة ولا بد أن نتحضر لها. هناك على الأقل أربع نسخ مختلفة من الأبوكاليبتيك اليوم: الأصولية المسيحية، وروحانية


Twitter: @ketab_n

العصر الجديد، وما بعد إنسانية تقنية رقمية، والبيئية العلمانية. وعلى الرغم من أنها تتشارك بالمفهوم الأساسي بأن الإنسانية تقترب من نقطة الصفر للتحول الجذري إلا أن أدبياتهم (ontologies) الخاصة مختلفة جذرياً: الأبوكاليبتيك الرقمي التقني (التي يمثلها راي كورزويل[١] بشكل رئيس) تبقى خلال حدود الطبيعة العلمية، ورؤى في تطور الأنواع البشرية تحيط بتحولنا إلى «ما بعد بشر». تمنح روحانية العصر الجديد هذا التحول التواءً إضافياً، تفسيره باعتباره التبدل من أحد نماذج «الوعي الكوني» إلى نموذج آخر (عادة التبدل من موقف آلي ثنائي إلى نموذج الغمر الشمولي). قرأ الأصوليون المسيحيون بالطبع سفر الرؤيا في معانٍ إنجيلية صارمة، ولهذا يبحثون (ويجدون) في العالم المعاصر عن إشارات تفضي إلى أن المعركة الأخيرة بين المسيح والمسيح الدجال وشيكة. أخيراً، يتقاسم البيئيون العلمانيون موقف أنصار الطبيعة لدى ما بعد الإنسانيين، لكنهم يمنحونه التواءً سلبيا يصل «نقطة الأوميجا»[٢] التي نقترب منها، ليست تقدم لمستوى «ما بعد الانسان» أعلى، لكن التدمير الذاتي الكارثي للإنسانية. على الرغم من أن apocaliptism[٣] لدى الأصوليين المسيحيين يعد الأكثر سخافة

---

(١) رايموند كورزويل: كاتب أمريكي، مخترع وعالم، يشغل منصب مدير الهندسة في جوجل.

(٢) نقطة الأوميجا: مصطلح ابتدعه اليسوعي الفرنسي بيير تيلار دي شاردان (١٨٨١-١٩٥٥) للدلالة على حالة تطور الكون بحيث يصل إلى أقصى تعقيد منظم.

(٣) الإيمان بأن العالم سيصل إلى نهاية الزمن قريباً.



Twitter: @ketab_n

وخطورة في محتواه إلا أنه يبقى النسخة الأقرب لمنطق «الألفية» الراديكالي التحرري. فالمهمة هي الإتيان به إلى اتصال أقرب مع البيئة العلمانية، بذلك اعتبار تهديد الإبادة كفرصة لتجديد التحرر الراديكالي.

## ٢ ـ الاشتراكيّة أو الشّيوعيّة؟

مثل هذه البروليتارية الأبوكاليبتيكية هي، بأية حال، ناقصة إذا ما أردنا أن نكون جديرين باسم «الشيوعيين». المضمون المتطور للمشاعات يتعلق بعلاقة الناس بالشروط الموضوعية لعمليات حياتهم تماماً كما بالعلاقة بين الناس أنفسهم: تمت خصخصة المشاعات على حساب الأغلبية من الطبقة الكادحة، لكن هناك فجوة بين هذين النوعين من العلاقات، يمكن أن تعاد المشاعات أيضاً إلى مجموع الإنسانية من دون الشيوعية في النظام الفاشي بطريقة مماثلة، الموضوع «غير المتجذر» والمفرغ من المحتوى يمكن أيضاً إبطاله بطرق تدور في فلك الطائفية، والموضوع يجد مكانه المناسب في مجتمع جديد واقعي. بهذا المعنى الدقيق نجد أن عنوان نيجري المعادي للاشتراكية «وداعاً سيد اشتراكية» كان صحيحاً: الشيوعية ستعارض الاشتراكية التي بدلا من جماعة دعاة المساواة، تقدم جماعة عضوية (النازية كانت اشتراكية وطنية، ليست شيوعية وطنية). بكلمات أخرى، في حين ربما يكون هناك اشتراكي معاد للسامية لا يمكن أن يكون شكلاً شيوعيا. (إذا ما ظهر بخلاف ذلك، كما في سنوات ستالين الأخيرة، فهو فقط مؤشر


Twitter: @ketab_n

على نقص في الإخلاص للحدث الثوري)، نشر إريك هوبزباوم[1] مؤخراً عموداً صحفياً بعنوان: «الاشتراكية فشلت، الرأسمالية أفلست، ماذا بعد؟» الجواب هو: الشيوعية. ترغب الاشتراكية بحل أول ثلاث خصومات من دون تسمية الرابعة «الكونية الفريدة للبروليتاريا». الطريق الوحيد لإنقاذ النظام الرأسمالي العالمي هو خصومة طويلة المدى وتجاوز الحل الشيوعي، وإعادة اختراع نوع ما من الاشتراكية في مظهر الطائفية أو الشعوبية أو الرأسمالية بقيم آسيوية، أو نوع آخر من الشكل المستقبلي سوف يكون شيوعياً لهذا السبب أو اشتراكي.

وقد عبّر ميشيل هاردت؛ إذا ما كانت الرأسمالية تقوم على الملكية الخاصة والاشتراكية على ملكية الدولة، فالشيوعية تقوم على تجاوز الملكية كما في المشاعات[2]. الاشتراكية هي ما دعاه ماركس «الشيوعية السوقية» التي فيها نحصل على ما يدعوه هيجل الإنكار المجرد للملكية، هذا الإنكار للملكية في حقل الملكية هو «ملكية خاصة معولمة». لهذا السبب عنوان قصة غلاف النيوزويك في ١٦ شباط ٢٠٠٩: «نحن جميعا اشتراكيون الآن»، وعنوانه الفرعي» بشكل أو بآخر يشبه اقتصادنا الآن الاقتصاد الأوربي» مبرر كلياً إذا تم فهمه بشكل مناسب: حتى في الولايات المتحدة

(١) إريك جون إرنست هوبزباوم: مؤرخ ماركسي بريطاني (١٩١٧-٢٠١٢)

(٢) في مداخلته في المؤتمر «فكرة الشيوعية»، كلية بيركبيك، لندن، ١٣-١٥ آذار ٢٠٠٩.



Twitter: @ketab_n

الأميركية معقل الاقتصاد الحر يتوجب على الرأسمالية إعادة اختراع الاشتراكية رغبة في إنقاذ نفسها[1]. تكمن سخرية الواقعة في أن هذه العملية من الوصول إلى» شبه أوربا» وصفت بالنبوءة «إننا نحن في أميركا سنصبح حتى أكثر فرنسة» وهذا ما يصدم القارئ. مع ذلك، كان ساركوزي رئيس فرنسا على حافة الإنهاء الأخير لتقليد دولة الرفاه الأوربية الاشتراكية والانضمام ثانية إلى النموذج الليبرالي الأنجلو ساكسوني، ذلك النموذج الذي اقترح تقليده هو الآن يعود إلى ما رغب بالانتقال بعيداً عنه: الممر غير الموثوق زعماً من تدخل الدولة الواسع في الاقتصاد. النموذج الاشتراكي الأوربي المفترى عليه مدان بوصفه غير كفء وقد أكل عليه الدهر وشرب تحت شروط رأسمالية ما بعد الحداثة، ذاق طعم انتقامه. لكن ليس هناك سبب للبهجة هنا: لم تعد الاشتراكية «المرحلة الدنيا» السيئة السمعة للشيوعية، إنها منافسها والتهديد الأعظم لها. ربما حان الوقت لتذكر أنه خلال القرن العشرين كانت الديمقراطية الاشتراكية آلة للتعبئة للوقوف في وجه التهديد الشيوعي للرأسمالية؛ لهذا يجب أن يكون عنوان نيجري: وداعاً سيد اشتراكية... ومرحباً بالرفيق شيوعية!

ما يشتمل عليه وفاء الشيوعية للموقف البروليتاري هو بهذا رفض واضح لأي أيديولوجيا تدل على العودة إلى أي نوع من وحدة

(١) نحن جميعاً اشتراكيون الآن، جون ميكام وإيفان توماس، النيوزويك، ١٦ شباط، ٢٠٠٩.



Twitter: @ketab_n

متماسكة بريئة[1]. في ٢٨ تشرين الثاني عام ٢٠٠٨ أصدر ايفو موراليس رئيس بوليفيا رسالة عامة عن موضوع «التغير المناخي: أنقذ النباتات من الرأسمالية». وهذه مقدمتها:

الأخوات والإخوة: أمّنا الأرض مريضة اليوم... بدأ كل شيء مع الثورة الصناعية عام ١٧٥٠ التي ولدت النظام الرأسمالي. خلال قرنين ونصف استهلك ما يسمى بالبلدان «المتطورة» جزءاً كبيراً من الوقود المتحجر المخترع عبر خمسة ملايين قرناً.... دمرت منافسة وجشع النظام الرأسمالي بهدف الربح دونما حدود النباتات. نحن في ظل الرأسمالية لسنا كائنات بشرية بل مستهلكين. في ظل الرأسمالية أمّنا الأرض غير موجودة، هناك بدلا منها مواد خام. الرأسمالية هي مصدر عدم التناسق وعدم التوازن في العالم[2]

السياسة المتبعة من قبل حكومة موراليس في بوليفيا في طليعة الكفاح التقدمي المعاصر، ومع ذلك، تظهر السطور التي تم اقتباسها وضوح حدوده الأيديولوجية (التي من أجلها يدفع المرء دوماً الثمن عملياً)، يعتمد موراليس بطريقة بسيطة على رواية السقوط الذي حدث في لحظة تاريخية دقيقة: «كل شيء بدأ مع الثورة الصناعية عام ١٧٥٠...»، وبشكل متوقع يتضمن هذا السقوط

---

(١) Prelapsarian: تشير الكلمة إلى حالة الانسان البريء وغير الملوث التي كان عليها آدم وحواء قبل السقوط.

(٢) التغير المناخي: أنقذوا النباتات من الرأسمالية، إيفو موراليس، متاح على الشبكة www.climateandcapitalism.com.



Twitter: @ketab_n

فقداننا لجذورنا في أمنا الأرض: «في ظل الرأسمالية الأرض الأم غير موجودة». (لهذا المرء مغرى لإضافة أنه إذا ما كان هنالك شيء واحد جيد في الرأسمالية، فهو بشكل دقيق أن الأم الأرض الآن لم تعد موجودة.)، «الرأسمالية هي مصدر اللاتناظر والاختلال في العالم»، معنى ذلك أن هدفنا يجب أن يكون إعادة التوازن «الطبيعي» والتطابق. الذي هوجم ورفض هو العملية نفسها التي ترفعت الذاتية الحديثة وتزيل تجنيس علم الكونيات للأرض الأم والسماء الأب جنباً إلى جنب مع فكرة أن جذورنا تكمن في النظام «الأمومي» المتين للطبيعة.

الوفاء للفكرة الشيوعية يعني ترداد ما قاله آرثر رامبو، il faut etre absolument modern ـ علينا أن نبقى بشكل حازم حداثيين وننبذ كل تعميم مرتجل جداً حيث نقد الرأسمالية مقاطع في نقد «السبب الآلي» أو «الحضارة التقنية الحديثة». لهذا السبب علينا الإصرار على الاختلاف الكيفي بين الخصومة الرابعة، الفجوة التي تفصل المستبعد من المتضمن والثلاثة الأخر: فقط هذه الإشارة إلى المستثنى التي تبرر استعمال مصطلح الشيوعية. ليس هناك ما هو أكثر «خصوصية» من حالة المجموعة التي تدرك المستثنى بوصفه تهديداً، وتقلق حول كيفية إبقائه على مسافة مناسبة.

توجد في سلسلة الخصومات الأربعة التي بين المتضمن والمستبعد واحدة حاسمة، تفقد من دونها كل الأخريات حدها المدمر، إذ تتحول البيئة إلى مشكلة تطور قابل للإسناد، الملكية


Twitter: @ketab_n

الفكرية إلى تحد معقد قانوني، علم الجينات الحيوي إلى مسألة أخلاقية. يمكن للمرء أن يقاتل بإخلاص للحفاظ على البيئة، وأن يدافع عن فكرة أوسع من الملكية الفكرية، أو يعارض حقوق نشر الجينات من دون مواجهة الخصومة التي بين المتضمن والمستبعد. فضلاً عن إمكانية المرء صياغة مفاهيم محددة من هذه النضالات في مصطلحات المتضمن المهدد من قبل تلوث المستبعد. بهذه الطريقة لا نحصل على كونية حقيقية، فقط شؤون «خاصة» في المفهوم الكانطي للمصطلح. شركات مثل WHOLE FOODS[1] وستاربكس تواصل التمتع بالتأييد بين الليبراليين حتى بالرغم من أنهما منخرطتان في نشاطات ضد الاتحاد، الخدعة هي أنهم سيبيعون منتجاتهما بدوامة تقدمية؛ واحدة تشتري القهوة المصنوعة من خبوب مشتراة بسعر أعلى من سعر السوق العادل، واحدة تقود عربة هجينة، واحدة تشتري من شركات تضمن منافع جيدة لعمالها ومستهلكيها (وفقا لمعايير الشركة الخاصة)..إلخ، باختصار من دون الخصومة بين المتضمن والمستبعد ربما سنجد أنفسنا أيضاً في عالم فيه بيل جيتس هو أعظم انساني يحارب ضد الفقر والأمراض، وروبرت ميردوخ أعظم نصير للبيئة يحشد مئات الملايين من خلال إمبراطوريته الإعلامية.

ثمة اختلاف رئيس آخر بين أول ثلاث خصومات ورابعها:

---

(١) Whole Foods: سلسلة مخازن في أميركا وكندا وبريطانيا متخصصة ببيع الأغذية الطبيعية والعضوية.



Twitter: @ketab_n

الثلاثة الأولى تهتم فعلياً بمسائل (اقتصادية، والعلوم الإنسانية، وحتى فيزيائية) إنقاذ البشرية، لكن الرابعة هي مسألة العدالة إلى أبعد حد. إذا لم تحل البشرية مأزقها البيئي، قد نتلاشى جميعنا، لكن يمكن للمرء أيضاً تصور مجتمع بطريقة ما يحل أول ثلاث خصومات من خلال مقاييس فاشية التي تقوي التدرجات الاجتماعية الموجودة والتقسيمات والاستثناءات. في اللاكانية نحن نتعامل مع الفجوة التي تفصل سلسلة من الدوال العادية (S2)[١] عن الدالة الرئيسة (S1)[٢]، تلك التي بالكفاح من أجل الهيمنة: أي قطب في الخصومة بين المشمل والمستبعد سوف» يهيمن» على الثلاثة الأخر؟ لم يعد يمكن للمرء الاعتماد على منطق الماركسية القديمة «الضرورة التاريخية» التي تدعي بأن أول ثلاث مشاكل ستحل فقط إذا ما فاز المرء في الصراع «الطبقي» الرئيسي بين المشمل والمستبعد، منطق التغلب على الامتيازات الطبقية يمكنه حقيقة حل مأزقنا البيئي. هناك سمة عامة مشتركة بين الخصومات الأربعة: العملية البروليتارية، إنقاص العوامل البشرية لتنقية المواضيع المحرومة من جوهرها، هذه البروليتارية، بأية حال، تعمل بطرق مختلفة. في أول ثلاث حالات تحرم العوامل من محتواها الجوهري، وفي الحالة الرابعة إنها واقعة شكلية من استبعاد شخصيات محددة من فضاء سياسي اجتماعي. علينا إخفاء

---

(١) هي مجموعة من الدوال وتشير إلى المعرفة.

(٢) الدالة الرئيسة: تشير إلى الحلقة الملحوظة لمجال الآخر.



Twitter: @ketab_n

هذه البنية من ٣+١، تحديدا انعكاس الضغط الخارجي بين الموضوع والجوهر، التوتر الخارجي بين موضوع ومادة إنسان محروم من جوهره خلال المجموع البشري. هناك مواضيع من خلال المجموع البشري تحشد مباشرة الموقف البروليتاري للذاتية المادية. لهذا السبب فالرهان الشيوعي هو الطريق الوحيد لحل المشكلة «الخارجية» (إعادة تخصيص المادة المحولة) لتحويل العلاقات الذاتية الداخلية (الاجتماعية) جذرياً.

لهذا الإصرار حاسم على فكرة التحررية العادلة الشيوعية، والإصرار عليها بمعنى ماركسي دقيق جداً: هناك مجموعات اجتماعية نتيجة افتقارها لمكان محدد في نظام «خاص» في الهرم الاجتماعي، تقاوم مباشرة من أجل الكونية، هي ما دعاه رانسييه «جزء اللا جزء» من الجسد الاجتماعي. كل سياسات تحررية حقيقة مولدة بحلقة قصيرة بين كونية «الاستعمال العام للسبب» وكونية «جزء اللاجزء»؛ هذا كان الحلم الشيوعي لماركس الشاب: جمع كونية الفلسفة مع كونية البروليتاريا. من الإغريقية القديمة لدينا اسم لتدخل المستبعد في الفضاء السياسي الاجتماعي: الديمقراطية. سؤالنا اليوم هو: هل لا تزال الديمقراطية اسماً مناسباً لهذا التفجر المؤيد للمساواة؟ لدينا موقفان حدّيان هنا، من جهة الطرد السريع للديمقراطية كالخداع المجرد لظهور نقيضها (سيطرة الطبقية)، ومن جهة أخرى الادعاء بأن الديمقراطية التي لدينا الموجودة واقعياً، هي تحريف للديمقراطية الحقيقية، مع سطور غاندي الشهيرة في جوابه على الصحفي البريطاني الذي سأله عن الحضارة الغربية:


Twitter: @ketab_n

«فكرة جيدة. ربما علينا وضعها في موضع التطبيق!» من الواضح أن النقاش المتنقل بين هذين الحدين مجرد جداً: ما نحتاج لمعالجته هو السؤال عن كيفية ارتباط الديمقراطية ببعد الكونية المجسدة في المستبعد.

هذا التركيز على الجدران التي تفصل المستبعد عن المشمل ربما تكون بسهولة يساء فهمها بوصفها عودة سرية إلى موضوعة التعدد الثقافي المتسامح الليبرالي «الانفتاح» (يجب ألا يترك أحد خارجاً، كل الأقليات، أنماط الحياة... إلخ، يجب أن يسمح لها بالدخول) على نفقة مفهوم ماركسي مناسب للخصومة الاجتماعية. ربما أيضاً يكون منتقداً من وجهة النظر المعارضة» الما بعد حداثية» كإشارة لارتداد تاريخي إلى معارضة متضمن/ مستبعد/ ساذجة التي تتجاهل الجهاز «السياسي الدقيق» المعقد للتحكم الاجتماعي والتنظيم المحلل من قبل فوكو. بيتر هالوارد[1] قدم إشارة نقدية مشابهة في الرد على مفهوم باديو عن الخفائية، «لا يعد شيئاً» للعنصر العرضي للصرح الاجتماعي (رانسيه «جزء اللاجزء»):

كثيراً ما اهتم العمل السياسي العملي بالناس أو بالحالات التي ليست خافية كثيراً أو غير مرئية نتيجة عدم تسليط الضوء عليها إلا على نطاق ضيق. لا يعول عليهم كثيراً باعتبار ما يتعلق بصغر حجمهم. هم ليسوا مستبعدين بوصفهم مضطهدين ومستغلين. هذا الاختلاف يشتمل على أكثر من فرق دقيق. كما ناقش عدة أجيال

(١) بيتر هالوارد: فيلسوف سياسي كندي.


Twitter: @ketab_n

من المفكرين التحرريين، الأشكال الحديثة للسلطة لا تستبعد مبدئيا أو تمنع لكن تعدل، توجه أو تحسن التصرف والمعايير الباعثة على الوضع الراهن، نموذج السلطة الذي يبدو ضمنياً للإعلام عمل باديو الأخير، على العكس، لا يزال يبدو سابقا لفوكو، إذا لم يكن لجرامشي[1].

في هذا الخيار من «باديو مقابل فوكو» على المرء مع هذا الإصرار على بعد متجاهل من قبل المقاربة الفوكوية، البعد الذي ركزت عليه فكرة باديو عن الخفائية. بمعنى آخر، في الفكرة الفوكوية عن الطاقة الإنتاجية التي لا تعمل بطريقة إبعادية، بل بطريقة تمكينية/ تنظيمية، ليس هناك مجال لفكرة باديو عن نقطة التضارب أو «الالتواء العرضي» للحالة، عنصر الحالة ذلك الذي ليس له مكان مناسب (مع) في الحالة، ليس لأسباب عرضية لكن لأن إزاحته/ استثناءه هي جوهر الحالة نفسها. خذ مسألة البروليتاريا: بالطبع، الطبقة العاملة «مرئية» بطرق متعددة ضمن العالم الرأسمالي (مثل هؤلاء الذين يبيعون مجاناً طاقتهم العاملة في السوق كرعاع وخدم أوفياء ومنضبطين للمدراء الرأسماليين، الخ.) بأية حال، ما من واحد من نماذج الرؤية هذه يغطي الدور العرضي للبروليتاريا بوصفها «جزء اللاجزء» من الكون الرأسمالي. لذا «خفائية» باديو هي ملاحظة الرؤية من خلال هيمنة الفضاء

(١) نظام وحدث، مراجعة اليسار الجديد ٥٣، بيتر هالوارد، أيلول تشرين الأول ٢٠٠٨، ص ١٠٤.



Twitter: @ketab_n

الأيديولوجي، إنها ما عليه أن يظل خفياً لذا فالمرئي قد يكون مرئياً. أو للتعبير عنه بطريقة أخرى أكثر تقليدية: الذي لا يمكن أن تستوعبه المقاربة الفوكوية هو فكرة العنصر العرضي ذي الوجهين، أحد وجوهه هو حادث هامشي للحالة، ووجهه الآخر (للمساندة) هو حقيقة هذه الحالة نفسها، وبالطريقة نفسها» المستبعدون» بالطبع، مرئيون بالمعنى الدقيق، تناقضياً، استثناؤهم هو نموذج تضمينهم: «مكانهم المناسب» في الجسم الاجتماعي هو ذلك الاستثناء (من الفضاء العام).

لهذا ادعى لاكان بأن ماركس اخترع مسبقاً الفكرة (الفرويدية) عن العرض: بالنسبة لكل من ماركس وفرويد، الطريق نحو حقيقة نظام (المجتمع، علم النفس) يؤدي من خلال ما يبدو بالضرورة كتشوّه «مرضي» هامشي وعرضي لهذا النظام: زلات اللسان، والأحلام، والأعراض، والأزمة الاقتصادية. لذا فاللاوعي الفرويدي «خافٍ» بطريقة متشابهة تماماً، ولا يوجد مكان له في صرح فوكو. رفض فوكو «فرضيات الكبت» الفرويدية، فكرته عن محادثات الطاقة التنظيمية التي تولد الجنسية في الفعل وصفها وتنظيمها ذاته تفوتها الفكرة «الفرويدية». كان كل من فرويد ولاكان واعياً تماماً أن ليس هناك كبت من دون عودة القمع، كانا واعيين جيداً إلى أن المحادثة المكبوتة تولد ما يقمع. بأية حال، ما تقمعه هذه المحادثة ليس ما يبدو للقمع، ليس ما يأخذه بنفسه ليكون التهديد x الذي يبغي التحكم به. أشكال «الجنسية» تصور كالتهديد


Twitter: @ketab_n

المسيطر عليه مثل شكل المرأة التي جنسيتها غير المسيطر عليها هي تهديد للنظام الذكوري، هي بنفسها إرباكات وهمية. على الأصح، ما «تقمعه» هذه المحادثة هو (من بين أشياء أخرى) تلوثها الخاص بما تحاول التحكم به، طريقة التضحية بالجنسية تجعل التضحية جنسية بنفسها، أو السلوك الذي يجنس فيه الجهد للتحكم بالجنسية هذا النشاط التحكمي نفسه. الجنسية هي لهذا بالطبع ليست «خفية» إنها متحكم بها ومنظمة. ما هو «خاف» هو تجنيس هذا العمل التحكمي نفسه، ليس الموضوع المراوغ الذي نحاول التحكم به، بل نموذج مشاركتنا فيه.

الليبراليون الذين يقرون بمشاكل هؤلاء المستبعدين من العملية الاجتماعية السياسية جعلوا لهم هدف تضمين هؤلاء الذين لا صوت لهم: كل المواقف يجب أن تسمع، كل المصالح تؤخذ في الحسبان، حقوق الانسان لكل شخص مكفولة، كل أساليب الحياة، الثقافات والخبرات محترمة.. إلخ. هاجس هذا الحوار الديمقراطي هو حماية كل أنواع الأقليات: الثقافية، والدينية، والجنسية، وكل ذلك «e tutti quanti». صيغة الديمقراطية هي مفاوضات ومساومات صبورة. الذي فُقد هنا هو الموقف البروليتاري، موقف الكونية المحتشدة في المستبعد. لهذا السبب من خلال نظرة عن كثب، يصبح واضحاً أن ما بدأ هوجو تشافيز في فعله في فنزويلا مختلف بشكل ملحوظ عن الشكل الليبرالي المعياري للمتضمن: تشافيز لا يضمن المستثنين في الإطار


Twitter: @ketab_n

الديمقراطي الليبرالي السابق، بل على العكس، يعدّ سكان الأحياء الفقيرة «المستثنين» قاعدته، ثم يعيد تنظيم الفضاء السياسي والأشكال السياسية للتنظيم حيث هذا الأخير سوف يلائم المستثنين. هذا الفرق الذي قد يبدو متحذلقاً وتنظيرياً بين «الديمقراطية البرجوازية» و«ديكتاتورية البروليتاريا» ـ هو حاسم.

منذ قرن مضى، كان فيلفريدو باريتو[1] أول من وصف ما يدعى قاعدة ٢٠/ ٨٠ للحياة الاجتماعية (وليس فقط الاجتماعية): ٨٠٪ من الأرض مملوكة من قبل ٢٠٪ من السكان، ٨٠٪ من الأرباح منتجة من قبل ٢٠٪ من الموظفين، ٨٠٪ من القرارات اتخذت خلال ٢٠٪ من زمن اللقاء، ٨٠٪ من الروابط على الشبكة تشير إلى أقل من ٢٠٪ من صفحات الويب، ٨٠٪ من البازلاء تأتي من ٢٠٪ من قرون البازلاء. كما عرض بعض المحللين الاجتماعيين والاقتصاديين، التفجر المعاصر للإنتاجية الاقتصادية يواجهنا بحالة لا متناهية من هذه القاعدة: سينحو الاقتصاد العالمي القادم نحو حالة فيها فقط ٢٠٪ من قوه العمل قادرة على القيام بكل العمل الضروري، لذا أولئك الـ ٨٠٪ من الناس سيكونون بشكل أساسي دونما صلة وبلا فائدة عاطلين بالفعل. عندما يصل هذا المنطق إلى أقصاه لن يكون معقولاً جمعه مع نقيضه: أليس النظام الذي يجعل ٨٠٪ من الناس غير ذوي علاقة وبلا فائدة هو بنفسه غير ذي صلة وبلا فائدة؟

---

(١) فيلفريدو باريتو: عالم اجتماع، فيلسوف واقتصادي إيطالي.



Twitter: @ketab_n

أجرى طوني نيجري مقابلة مع اللوموند[1] تجول خلالها على طول شارع من ضواحي فينيزيا ميستري مع الصحفي، اجتاز صفاً من عمال يحرسون خارج مصنع للنسيج. علق مشيراً نحو العمال متجاهلاً: «إنه جنون، إنه مثل فيلم فلليني!»[2]، إن وقوف العمال بالنسبة إلى نيجري خاطئ مع النقابات المهنية الاشتراكية التقليدية المركزة على أمن عمل الشركات، عادت الاشتراكية مهجورة بشدة من قبل قوى رأسمالية «ما بعد الحداثة» والمركز المهيمن للعمل المعرفي. وفقا لنيجري، بدلاً من الاستجابة لهذه «الروح الجديدة للرأسمالية» في زي ديمقراطي اجتماعي تقليدي، بالنظر إليها على أنها تهديد، على المرء أن يتقبلها كلياً رغبة برؤية بذار الشيوعية من خلالها، في قوى العمل المعرفي بأشكاله اللا تراتبية واللامركزية للتفاعل الاجتماعي، لكن إذا تبعنا هذا المنطق إلى نهايته، يصبح من الصعوبة بمكان عدم الاتفاق مع النقاش النيو ليبرالي التهكمي حول وجوب أن تكون المهمة الأساسية للنقابات المهنية إعادة تأهيل العمال ليتم استيعابهم في الاقتصاد الرقمي الجديد.

لكن ماذا بشأن الرؤية المقابلة؟ طالما أن الرأسمالية تقدم أعظم نسبة مئوية على الإطلاق من العمال الفائضين، ماذا عن مشروع إعادة توحيد الـ «ميت الحي» للرأسمالية العالمية، كل هؤلاء الذين تخلفوا عن ركب «التقدم» النيو رأسمالي، كل هؤلاء الذين جعلوا

---

(١) Le Monde.

(٢) نحن الآن الرجال الجدد، اللوموند، ١٣ تموز ٢٠٠٧.



Twitter: @ketab_n

بلا فائدة وتم إلغاءهم، كل أولئك القابلين للتعديل وفقاً للشروط الجديدة؟ الرهان هو أن المرء قد يشرع حلقة قصيرة مباشرة بين بقايا التاريخ والمفهوم الأكثر تقدما للتاريخ.

## ٣ ـ الاستعمال العام للعقل:

وما سبق يقودنا إلى الأولي للشيوعية: تشير الشيوعية على عكس الاشتراكية إلى كونية مفردة نحو رابط مباشر بين المفرد والكون، بتجاوز تصميمات معينة. عندما يقول بولس بأنه ـ من وجهة نظر مسيحية ـ «لا يوجد نساء ولا رجال، لا يهود ولا إغريق»، هو بذلك يدعي بأن الجذور الإثنية، الهويات القومية..إلخ، ليست صنفاً حقيقياً. للتعبير عنه بمصطلحات كانطية دقيقة: عندما نظهر بجذورنا الإثنية، نشارك في استعمال «خاص» للعقل، معاقا بافتراضات دوجمائية(جازمة) عرضية، ولذلك نتصرف كأفراد «غير ناضجين»، وليس كبشر أحرار يقيمون في البعد العالمي للعقل. المعارضة بين كانت ورورتي[1] بالنظر إلى هذا الامتياز للعام والخاص نادراً ما تم لحظها، لكن مع ذلك هي مؤثرة. كلاهما تميزان بحدة بين مجالين لكن بطريقتين متعارضتين؛ عند رورتي: الليبرالي المعاصر العظيم parexcellence (بامتياز)، الخاص هو فضاء خواصنا حيث الإبداعية وقاعدة التخيل الجامح والاعتبارات الأخلاقية معلقة (تقريباً)، العام هو فضاء للتفاعل

(١) ريتشارد رورتي (١٩٣١-٢٠٠٧): فيلسوف أمريكي.


Twitter: @ketab_n

الاجتماعي حيث نحن مجبرون على إطاعة القواعد رغبة في عدم إيذاء الآخرين. في مصطلحات رورتي: الخاص هو فضاء التجاهل، بينما العام هو فضاء التعاضد. أما عند كانط فالعام فضاء «للمجتمع المدني العالمي» يمثل تناقض التفرد الكوني للموضوع المفرد الذي في نوع من دورة قصيرة يتجاوز وساطة مشاركة مباشرة خاصة في الكوني. هذا إذن ما يعنيه كانط في فقرة شهيرة من مقالته «ما هو التنوير؟» بـ «العام» كمعارض لـ «الخاص»: «الخاص» لا يدل على فردية المرء كمعارض للروابط العمومية، لكن نفس النظام التأسيسي الشائع لتعريف خاص للمرء، في حين «العام» يشير إلى كونية عالمية لتمرين عقل المرء:

الاستعمال العام لعقل المرء يجب أن يكون حراً دوماً، وهو وحده يمكن أن يصل إلى التنوير بين البشر. الاستعمال الخاص لعقل المرء من ناحية أخرى قد يكون غالباً مقيداً بشكل ضيق من دون إعاقة خاصة لتقدم التنوير. بالاستعمال العام لعقل المرء أفهم الاستعمال الذي يقوم به المرء كعالم قبل القراءة العامة. أسمي الاستعمال الخاص ذلك الذي قد يجعل منه المرء في بريد مدني معين أو مكتب يعهد إليه[1].

تناقض صيغة كانط» فكر بحرية، لكن اخضع!» التي تفرض بالطبع سلسلة من مشاكلها، طالما أنها أيضاً تعتمد على التمييز بين

---

(١) ايمانويل كانط، ماهو التنوير؟ in Isaac kramnick (ed.), the portable enlightenment reader, new York: penguin books 1995, p5.



Twitter: @ketab_n

المستوى «الأدائي» للسلطة الاجتماعية ومستوى التفكير الحر حيث الأدائية معاقة؛ لذلك يشارك المرء في البعد الكوني للفضاء العام بدقة كفرد متفرد منتزع أو معارض للتعريف الشائع الكبير، المرء هو عالمي بحق فقط عندما يكون فرداً بشكل جذري في صدوع الهويات المشاعية. إن كانط هو من يجب أن يقرأ هنا كناقد لرورتي، في رؤيته للفضاء العام المميز بتمرين العقل المنطلق، يبرهن بعد الكونية التحررية خارج حدود هوية المرء الاجتماعية، موقف المرء ضمن نظام الكائن الاجتماعي بدقة البعد مفقود عند رورتي بشكل مؤثر جداً.

فضاء العالمية المتفردة هو ما يظهر ضمن المسيحية بوصفه «الروح القدس»، فضاء مجموع المؤمنين المطروحين من حقل المجتمعات العضوية أو من عوالم حياة بعينها (لا إغريق ولا يهود). ولذلك أليس قول كانط «فكر بحرية، لكن اخضع!» هو نسخة جديدة من قول المسيح «أعط ما لقيصر لقيصر، وما لله لله؟» «اعط ما لقيصر لقيصر»: بمعنى آخر، احترم واخضع لعالم الحياة الخاصة «الشخصية» لمجتمعك، «واعط ما لله لله»: بمعنى آخر، شارك في الفضاء الكوني لمجتمع المؤمنين. مجموع المؤمنين البولسي هو نموذج بروتو(عينة) من «المجتمع المدني العالمي» الكانطي ومجال الدولة نفسه هو في طريقها «شخصي»: شخصي بمعنى كانطي دقيق «للاستعمال الشخصي للعقل» في إدارة الدولة والأجهزة الأيديولوجية.


Twitter: @ketab_n

في كتابه الأخير صراع الكليات، يطيل كانط هذه التأملات في توجيه سؤال بسيط لكن تصعب الإجابة عليه: هل هناك تقدم حقيقي في التاريخ؟ (يعني تقدم أخلاقي، ليس فقط التطور المادي) هو يعترف بأن التاريخ الحالي مشوش ويسمح بإثبات غير واضح لمسألة (فكر بمثال كيف أن القرن العشرين جاء بتوسع لم يسبق له مثيل من الديمقراطية والرفاهية الوفيرة، لكن أيضاً بالهولوكوست والكولاك...)، لكن مع ذلك هو يختتم بأنه على الرغم من أن التقدم لا يمكن أن يكون مثبتاً إلا أنه بالإمكان رؤية إشارات تفيد بأنه ممكن. يفسر كانط الثورة الفرنسية كواحدة من هذه الإشارات التي تشير نحو إمكانية الحرية: المستحيل حدوثه حتى الآن، كل الناس دافعوا بشجاعة عن الحرية والمساواة. بالنسبة إلى كانط حماس تلك الأحداث كان أكثر أهمية حتى من الواقع الدموي الغالب في شوارع باريس الذي بدا في عيون المراقبين المتعاطفين في كافة أنحاء أوربا:

ثورة الناس الحالية الغنية بالروح ربما قد تفشل أو تنجح، تراكم البؤس والوحشية، لكنها مع ذلك تحث قلوب كل المشاهدين (الذين ليسوا عالقين فيها بأنفسهم) على الانحياز وفقاً للرغبات التي تحيط بالحماس وطالما أن تعبيرها نفسه لم يكن خالياً من الخطر، من الممكن أن النزعة الأخلاقية ضمن الجنس البشري فقط تسببت بها[1].

---

(١) نزاع الكليات في كتابات سياسية، إيمانويل كانط، صحافة جامعة كامبريدج، ١٩٩١، ص١٨٢.



Twitter: @ketab_n

على المرء أن يلحظ بأن الثورة الفرنسية ولدت حماساً ليس فقط في أوربا، بل أيضاً في أماكن بعيدة مثل هاييتي. الحماس هناك لم يكن فقط من ذلك النوع الذي لمشاهد كانطي، لكنه أخذ شكلاً عملياً متورطاً عند لحظة رئيسة في حدث تاريخي عالمي آخر: الانتفاضة الأولى للعبيد السود المقاتلين من أجل مشاركة كاملة في المشروع التحرري للثورة الفرنسية.

انتصار أوباما الانتخابي في أميركا ينتمي إلى الخط نفسه. يمكن للمرء أن يضمر شكوكاً تهكمية حول النتائج الواقعية لانتصار أوباما: من منظور واقعي براجماتي، من الممكن تماماً أن أوباما سيتحول ليكون «بوش بوجه إنساني»، ولن يقوم بأكثر من تحسينات تجميلية بسيطة. سوف يتبع السياسات الأساسية نفسها لكن بنموذج أكثر جاذبية وهكذا من الممكن حتى تقوية الهيمنة الأمريكية التي تأذت بكارثة سنوات بوش. هناك مع ذلك شيء ما خاطئ بشدة في رد الفعل (بُعد رئيسي مفقود). في ضوء المفهوم الكانطي للحماس الذي رافق نصر أوباما نرى أنه ليس ببساطة كتحول آخر في النضال الأبدي البرلماني للأغلبية الساحقة، مع كل حساباته وتلاعباته البراجماتية. إنه إشارة إلى شيء ما أكثر. هذا ما جعل صديقي الأميركي ـ يساري صلب من دون أوهام ـ يبكي لساعات عندما أعلنت الأخبار نصر أوباما. أيا كانت شكوكنا ومخاوفنا وتسوياتنا من هذا الحماس السريع، كل واحد منا كان حراً ومشاركاً في الحرية العالمية للإنسانية.

لم يكن سبب هذا الحماس الناتج عن انتصار أوباما لأن الواقعة


Twitter: @ketab_n

حصلت ضد كل الفرقاء، لكن إمكانية حدوث شيء من هذا القبيل كانت ظاهرة. الشيء نفسه ينطبق على كل التمزقات التاريخية العظيمة مثل سقوط جدار برلين. بالرغم من أننا عرفنا جميعنا فساد كفاءة الأنظمة الشيوعية، لكننا بشكل ما «لم نصدق حقيقة» أنها سوف تنهار، كثيراً ما كنا ضحايا للتهكمية البراجماتية مثل هنري كيسنجر. هذا السلوك هو أفضل ما يغلف التعبير الفرنسي je sais bien, mais quand meme ـ أعرف جيداً جداً أنه ممكن الحدوث، لكن لا يهم (لا يمكنني القبول حقيقة بأنه سوف يحدث). لهذا السبب بالرغم من أن انتصار أوباما كان متوقعاً بشكل صريح على الأقل في آخر أسبوعين قبل الانتخاب، إلا أن انتصاره الواقعي كان لا يزال مختبراً على أنه مفاجأة؛ أي أن المستحيل حدث، شيء ما لا نصدقه ممكن الحدوث. لاحظ أن هناك أيضاً نسخة تراجيدية من المستحيل الذي يحدث فعلاً: الهولوكوست، الكولاك... كيف يمكن للمرء أن يقبل إمكانية حدوث مثل ذلك الشيء؟

بهذا أيضاً يمكن للمرء أن يجيب أولئك الذين يشيرون إلى كل التسويات التي كان على أوباما أن يصنعها ليكون منتخبا. الخطر الذي راود أوباما في حملته هو أنه كان مطبقاً على نفسه ما طبقته الرقابة التاريخية الأخيرة على مارتن لوثر كينج، بالتحديد، تطهير برنامجه من موضوعات معقدة رغبة في ضمان استحقاقه. هناك حوار شهير في محاكاة مونتي بيثون[1] الدينية الساخرة حياة برايان،

(١) مجموعة كوميدية سريالية بريطانية.



Twitter: @ketab_n

في فلسطين أيام المسيح: يحاول قائد المنظمة المقاومة الثورية اليهودية أن يبرهن بشكل عاطفي أن الرومان لم يجلبوا سوى البؤس لليهود، عندما أشار أتباعه إلى أنهم مع ذلك قدموا التعليم، بنوا الطرقات، نظموا الري..إلخ، خاتمته الانتصارية: «حسنا، لكن بعيداً عن الصرف الصحي، والتعليم، والطبابة الخمر، والنظام العام، والري، والطرقات، ونظام الماء العذب والصحة العامة، ماذا فعل الرومان لنا؟» ألا تتبع إعلانات أوباما الأخيرة الخط نفسه؟ «أنا أؤيد الاستراحة الجذرية لسياسة بوش! حسناً، لقد ناشدت من أجل الدعم الكامل لإسرائيل، متابعه الحرب على الإرهاب في أفغانستان وباكستان لرفض الادعاءات ضد هؤلاء ممن نظموا التعذيب.. إلخ، لكني أبقى مؤيداً لاستراحة جذرية لسياسة بوش!» خطاب تنصيب أوباما اختتم عملية «التطهير الذاتي السياسي» التي كانت مخيبة بالنسبة للكثيرين من اليسار الليبرالي في أميركا. كان الخطاب مصاغاً بشكل جيد لكنه خطاب عدو بشكل غريب كانت رسالته» لكل الشعوب الأخرى والحكومات التي تشاهد اليوم»: «نحن جاهزون للقيادة مرة ثانية»، «لن نعتذر عن طريقتنا في الحياة ولا نتردد في الدفاع عنها».

خلال الحملة الانتخابية كثيراً ما لوحظ اعتماد أوباما لدى تحدثه عن «جرأة الأمل» حول التغير الذي يمكننا الإيمان به على خطابات افتقدت لأي محتوى خاص: للأمل بماذا؟ لتغيير ماذا؟ الآن الأشياء أوضح قليلاً: يقترح أوباما تغييراً تكتيكياً يهدف إلى إعادة


Twitter: @ketab_n

توكيد الأهداف الأساسية لأميركا: الدفاع عن الطريقة الأمريكية في الحياة والقيام بدور عالمي لأمريكا. ستكون الإمبراطورية الأميركية الآن أكثر إنسانية ومحترمة من قبل الآخرين، ستقود من خلال الحوار بدلاً من فرض إرادتها بأسلوب وحشي. إذا ما كانت إدارة بوش امبراطورية بوجه وحشي، فسيكون لدينا الآن امبراطورية بوجه إنساني، لكنها ستكون الإمبراطورية نفسها. في خطاب أوباما في حزيران عام ٢٠٠٩ في القاهرة، حاول فيه الوصول إلى العالم الإسلامي، صاغ النقاش بمصطلحات حوار الأديان بأسلوب غير لبق (ليس حضاري)، كان أوباما في أسوأ ألفاظه politically-correct[١].

مع ذلك، مثل هذه النظرة المتفائلة سرعان ما تسقط. الحال العالمي ليس فقط واقعاً قاسياً، إنه أيضاً معرفة بمحيطاته الأيديولوجية، بما هو مرئي وغير مرئي من خلاله، ما يقال وما لا يقال. نتذكر رد إيهود بارك على جيدون ليفي[٢] في الها آرتز، منذ أكثر من عقد مضى، عندما سئل عما قد يفعله إذا ما ولد فلسطينياً: «سأنضم إلى لمنظمات الإرهابية»، هذا البيان لم يكن له علاقة مطلقاً بالإرهاب، لكن كان لديه كل العلاقة مع فتح الفضاء للحوار مع الفلسطينيين. تذكر إطلاق جورباتشوف لشعارات إعادة البناء والشفافية، لا يهم إلى أي حد كان يقصدهما، أطلق العنان للانهيار

(١) أي توخي الحذر في الكلام كي لا يتسبب بالإساءة للآخر.
(٢) صحفي إسرائيلي.


Twitter: @ketab_n

الذي غيَّر العالم. أو لنأخذ المثال السلبي: اليوم، حتى هؤلاء الذين يعارضون التعذيب يقبلون به كموضوعه للنقاش العام، الارتداد الساحق في أحاديثنا العامة، والكلمات ليست أبداً مجرد كلمات، إنها تهم لأنها تحدد محيط ما يمكننا فعله.

أظهر أوباما في هذا المجال إذن مسبقاً قدرة استثنائية لتغيير حدود ما يمكن أن يطرحه المرء في العلن. إنجازه الأعظم حتى الآن هو أنه في تنقية طريقة غير استفزازية، قدم في الخطاب العام موضوعات كانت حتى الآن لا تطرح: الأهمية المستمرة للعرق في السياسات، والدور الايجابي للملحدين في الحياة العامة، وضرورة التحدث مع «أعداء» مثل إيران أو حماس...إلخ. هذا تماماً ما تحتاجه السياسة الأميركية اليوم أكثر من أي شيء آخر، إذا كانت تود الفرار من مأزقها: كلمات جديدة ستغير طريقة تفكيرنا وتصرفنا.

أشارت أيضاً العديد من أفعال أوباما كرئيس سابقاً في هذا الاتجاه خططه التعليمية والصحية، وانفتاحه على كوبا ودول «مارقة» أخرى، وكما لوحظ سابقاً، المأساة الحقيقة لأوباما هي أن لديه كل الحظوظ ليتحول إلى المنقذ النهائي للرأسمالية وعلى هذا النحو، واحد من الرؤساء الأمريكيين المحافظين العظماء. هناك أمور تقدمية لا يمكن أن يفعلها إلا محافظ بأوراق اعتماد وطنية متشددة صحيحة: فقط دو جول كان قادراً على منح الاستقلال للجزائر، فقط نيكسون كان قادراً على تأسيس علاقات مع الصين،


Twitter: @ketab_n

في الحالتين لو أن الرئيس التقدمي قام بهذه الأشياء، كان سيتهم في الحال بخيانة المصالح الوطنية، متملقاً للشيوعيين والإرهابيين..إلخ. يبدو أن مأزق أوباما بالضبط هو العكس: أوراق اعتماده «التقدمية» تسمح له بفرض «التعديلات الهيكلية» الضرورية لترسيخ النظام.

مع ذلك، هذه العواقب حتمية كما قد تثبت، من المستحيل خفض قيمة الحماس الكانطي الأصيل الناجم عن انتصار أوباما. الأخير كان إشارة للتاريخ بمعنى كانطي ثلاثي عن الإثبات والنفي ونفي النفي signum rememorativum, demonstrativum, prognosticum: إشارة فيها ذاكرة لماض طويل من العبودية والنضال من أجل إلغائه المدوي، حدثاً يظهر تغييراً الآن، وأملاً بإنجازات مستقبلية. لا عجب أن انتصار أوباما ولد هذا الحماس الكوني نفسه حول العالم، الناس يرقصون في الشوارع من برلين إلى ريو دي جانيرو. دُحضت كل الشكوك المستعرضة خلف الأبواب المغلقة، حتى من قبل العديد من التقدميين القلقين (ماذا لو في خصوصية حجيرة التصويت، التمييز العنصري المستنكر عامة كان قد ظهر مجدداً؟).

## ٤ ـ في هاييتي..

يبقى كل هذا غير كاف إذا ما أردنا الكلام عن الشيوعية. ما المفقود هنا إذن، في مثل هذا الحماس الكانطي؟ لمقاربة الجواب على المرء التحول إلى هيجل الذي يقاسم كانط الحماس في وصفه تأثير الثورة الفرنسية:


Twitter: @ketab_n

كان فجراً عقلياً مجيداً، شاركت كل الكائنات المفكرة في هتافات انتصار هذا العهد، حركت مشاعر الشخص النبيل عقول الرجال في ذلك الوقت، حماس روحاني مبتهج عبر العالم، كما لو أن المصالحة بين المقدس والعلماني كانت الآن المنجز الأول[١].

لكنه أضاف شيئاً حاسماً ضمنياً على الأقل، كما أظهرت سوزان بوك مورس[٢] في مقالتها «هيجل وهاييتي»، [٣] انتفاضة العبيد الناجحة في هاييتي التي أفضت إلى جمهورية هاييتي الحرة، كانت نقطة مرجعية صامتة ـ ولذلك السبب، كلية التأثير ـ (أو السبب الغائب) لجدل هيجل عن السيد والعبد، قدمت أولاً في مخطوطات جينا وتطورت أكثر في كتابه ظاهرة الروح phenomenology of spirit. بيان بوك مورس البسيط «لا شك بأن هيجل وهايتي ينتميان أحدهما للآخر» بإيجاز تأسر النتيجة المتفجرة للحلقة القصيرة بين هذين المصطلحين المتباينين[٤]، «هيجل وهاييتي» هذه أيضاً ربما الصيغة الأكثر اختصاراً للشيوعية.

كما عبر عنها لويس سالا مولينز[٥] بوحشية فظة: «ندد فلاسفة

---

(١) فلسفة التاريخ، ج.ف.و. هيجل، نيويورك: دوفر، ١٩٥٦.
(٢) فيلسوفة أمريكية.
(٣) نشرت أول مرة عام ٢٠٠٠ كمقالة في critical inquiry ثم توسعت في كتاب: «هيجل، هاييتي، والتاريخ الكوني»، صحافة جامعة بيتسبورج، ٢٠٠٩.
(٤) «هيجل، هاييتي، والتاريخ العالمي»، ص٢٠.
(٥) كاتب وسياسي فرنسي وأستاذ للفلسفة.


Twitter: @ketab_n

أوربيون متنورون بالعبودية، إلا حيثما وجدت حرفياً»[1]. على الرغم من أنهم اشتكوا من أن الناس كانوا (كلام مجازي) «عبيداً» للسلطات الملكية الاستبدادية، إلا أنهم تجاهلوا الاستعباد الحرفي الذي كان يتفجر في أطراف المستعمرات، مبررين بأنها خلفيات عرقية ثقافية. عندما ترددت الثورة الفرنسية، انتفض العبيد السود في هاييتي باسم المبادئ نفسها من الحرية، والمساواة، والأخوة، كانت هذه التجربة القاسية، الاختبار بالنار لأهداف التنوير الفرنسي. وكل أوروبي كان جزءاً من جمهور القراء البرجوازيين الذين عرفوا ذلك. «عيون العالم الآن على سانت دومينجو»[2]، في هاييتي المستحيل حدث (بالنسبة إلى التنوير الأوربي): الثورة الهايتية «دخلت التاريخ بخاصية غريبة عن كونها مستحيلة حتى وإن حدثت»[3]. أخذ العبيد السابقون في هاييتي شعارات الثورة الفرنسية بحرفية أكثر مما فعل الفرنسيون أنفسهم، تجاهلوا كل المؤهلات الضمنية التي تكاثرت في الأيديولوجية التنويرية (الحرية لكن فقط بالنسبة لرعايا بالغين عقلانيين، ليس لبرابرة غير ناضجين وحشيين الذين أولا عليهم أن يخضعوا لعملية طويلة من التعليم رغبة في استحقاق الحرية والمساواة...) هذا أدى إلى لحظات شيوعية رفيعة مثل تلك التي حدثت عندما اقترب الجنود الفرنسيون الذين أرسلوا

---

(١) المرجع السابق، ص ١٤٩.

(٢) المرجع السابق، ص٤٢.

(٣) ميشيل رولف ترويو، مقتبس في المرجع السابق، ص٥٠.



Twitter: @ketab_n

من قبل نابليون لقمع الثوار وإعادة العبودية من جيش السود من العبيد المحررين ذاتياً. عندما سمع الجنود دندنة غامضة قادمة من الجمع الأسود، افترضوا أولا أنه لا بد أن يكون أنشودة حرب عشائرية، لكن وهم يقتربون أكثر، أدركوا أن الهايتيين كانوا يغنون المارسييز[1] وبدؤوا يتساءلون فيما إذا كانوا يقاتلون على الجبهة الخاطئة. أحداث مثل هذه تشرع الكونية كفئة سياسية. فيها ـ كما وصفتها بوك مورس ـ «الإنسانية الكونية مرئية على الحواف»[2].

بدلاً من منح ثقافات متعددة متميزة متساوية حقاً، حيث الناس معترف بهم كجزء من الإنسانية بشكل غير مباشر من خلال وساطة الهويات الثقافية الجمعية، تتولد الكونية الإنسانية في الحدث التاريخي عند نقطة التمزق. إنها في توقفات التاريخ ذلك أن الناس الذين توترت ثقافتهم نحو النقطة الفاصلة يمنحون تعبيراً للإنسانية بأنها تتجاوز الحدود الثقافية.

وهو في تماثلنا الرائع مع هذه الحالة الحرة الحساسة والخام، عن أن لدينا الفرصة لفهم ما يقولون. الإنسانية المشتركة موجودة بالرغم من اختلافات الثقافة. انعدام هوية شخص في المجموع يسنح بتكافل خفي لديه حظ بتأييد الكونية، عاطفة أخلاقية، مصدر الحماس والأمل الحاليين[3].

---

(١) النشيد الوطني الفرنسي.
(٢) المرجع السابق، ص ١٥١.
(٣) المرجع السابق، ص ١٣٣.


Twitter: @ketab_n

تقدم بوك مورس حجة دقيقة ضد شعر تنوع ما بعد الحداثة: الأخير يقنع التشابه الخفي للعنف الوحشي المشرع من قبل الأنظمة والحضارات المتنوعة ثقافياً: «هل يمكن لنا أن نبقى راضين مع النداء من أجل الاعتراف «بعصريات متعددة» بسياسة «التنوع»، أو «الكونية المتعددة» في حين أنه واقعياً عدم إنسانية هذه التعددية غالباً متشابهة على نحو مدهش؟»[1] لكن قد يسأل المرء: هل كان غناء العبيد السابقين للمارسييز في النهاية دليلاً على التبعية الاستعمارية حتى في تحررهم الذاتي، أليس على السود أن يتبعوا النموذج التحرري للعاصمة الاستعمارية؟ أليس هذا مشابهاً لفكرة أن المعارضة المعاصرة للسياسات الأميركية يجب أن تغني النجوم والشرائط؟[2] بالتأكيد الفعل الثوري الحقيقي كان يمكن أن يكون بالنسبة إلى لامستعمِرين أن يغنوا أغاني المستعمَرين؟ الخطأ في هذا اللوم مزدوج؛ أولاً: على عكس ما هو ظاهر، إنه من المقبول أكثر بكثير بالنسبة إلى السلطة الاستعمارية أن ترى شعبها يغني أغاني الآخرين (المستعمَرين) بدلاً من الأغاني التي تعبر عن هويتهم كإشارة عن التحمل والاحترام المتفضل، المستعمِرون يحبون ويتعلمون ويغنون أغاني المستعمَرين، ثانيا: وأكثر أهمية بكثير، رسالة المارسييز للجنود الهايتيين لم تكن» انظر، نحن السود البدائيين قادرون على استيعاب أنفسنا في ثقافتك العالية

(١) المرجع السابق، ص ١٣٨.
(٢) المارش الوطني للولايات المتحدة الأميركية.


Twitter: @ketab_n

وسياساتك، بتقليدها كنموذج!» لكن الأكثر دقة: «في هذه المعركة، نحن فرنسيون أكثر منكم، نحن نتحمل من أجل نتائج أعمق لأيديولوجيتكم الثورية، النتائج نفسها التي لم تكونوا قادرين على التوصل إليها». مثل هذه الرسالة لا يمكن إلا أن تكون مقلقة جداً للمستعمرين، وبالتأكيد لن تكون رسالة هؤلاء الذين اليوم، قد يغنوا النجوم والشرائط عندما يواجهون الجيش الاميركي. (بالرغم من اعتبارها تجربة فكر، إذا تخيلنا الحالة التي فيها قد تكون هذه هي الرسالة، فلن يكون هناك شيئاً إشكالياً في فعل ذلك.)

عندما ندمج هذه الرسالة بالكامل، نحن الرجال والنساء البيض اليساريين أحراراً في التخلي عن العملية الصحيحة سياسياً لذنب تعذيب النفس اللانهائي. بالرغم من أن نقد باسكال بروكنر[1] لليسار المعاصر غالباً ما يقارب السخرية[2]، إلا أن هذا لا يمنعه من توليد رؤى وثيقة الصلة أحياناً، لا يمكن للمرء إلا أن يتفق معه عندما يستكشف في جلد الذات الأوربي الصحيح سياسياً شكلاً معكوساً من التعلق بتفوق المرء. أينما هوجم الغرب، فإن رد فعله الأول ليس دفاعاً عدوانياً بل تقصياً ذاتياً: ما الذي فعلناه لنستحق هذا؟ نحن الملامون إلى أبعد حد عن شرور العالم، كوارث العالم

---

(١) كاتب فرنسي.

(٢) انظر على سبيل المثال، هامشه الذي يتوسع على زعم الآن باديو المعادي للسامية، في كتاب بروكنر la tyrannie de la penitence، باريس: جراسيت ٢٠٠٦، ص ٩٣.



Twitter: @ketab_n

الثالث والعنف الإرهابي هي مجرد ردود أفعال على جرائمنا. الشكل الإيجابي لعبء الرجل الأبيض (مسؤوليته عن تمدين واستعمار البرابرة) هكذا مستبدل بشكله السلبي فحسب (عبء ذنب الرجل الأبيض): إذا لم يعد بإمكاننا أن نكون أسياد العالم الثالث المحسنين، فسيمكننا على الأقل أن نكون مصدر الشر صاحب الامتياز، نتفضل بحرمان الآخرين من المسؤولية عن قدرهم (عندما ينخرط بلد من العالم الثالث في جرائم رهيبة فهي أبداً ليست مسؤوليته الكاملة، لكنها أثراً للاستعمار، هم فحسب يقلدون ما اعتاد أسيادهم الاستعماريون على فعله)

نحن بحاجة إلى miserabilist clichés (كليشيهات من أشخاص يستمتعون ببؤسهم) بشأن إفريقيا، وآسيا، وأميركا اللاتينية، رغبة في تحويل كليشيه الغرب القاتل اللصوصي. وسوماتنا المفعمة بالضجيج التي تلائم فقط تقنيع حب الذات الجريحة، نحن لم نعد نصنع القانون، الثقافات الأخرى تعرفه، وهم يواصلون لومنا فقط للهرب من أحكامنا عليهم[1].

الغرب واقع في مأزق الأنا الأعلى النمطي الذي قدم أفضل تقديم في جملة دوستويفسكي الشهيرة من الأخوة كارامازوف: «كل واحد منا مذنب أمام الجميع تجاه الجميع، وأنا أكثر من الآخرين». لذا الغرب يعترف بالمزيد من جرائمه، مما يجعله

(١) المرجع السابق، ص ٤٩.



Twitter: @ketab_n

مستحقاً اللوم أكثر. هذه البصيرة تسمح لنا أيضاً بتتبع ازدواجية متماثلة في الأسلوب المحدد الذي تنتقد فيه بلدان العالم الثالث الغرب: إذا ما كان استمرار الغرب في جلد الذات يعمل كمحاولة يائسة لإعادة تأكيد تفوقنا، السبب الحقيقي الذي يجعل البعض في العالم الثالث يكره ويرفض الغرب لا يكمن في الماضي الاستعماري وآثاره المستمرة لكن روح النقد الذاتي التي استعرضها الغرب في التنصل من هذا الماضي، مع ندائه الضمني للآخرين لممارسة المقاربة نفسها في النقد الذاتي: «الغرب لا يمقت من أجل أخطائه الحقيقية، لكن لمحاولته تحسينها؛ لأنه كان أول واحد حاول تمزيق نفسه من وحشيته، داعياً بقية العالم ليتبعوه»[1].

الإرث الغربي هو بالفعل ليس من البعد الإمبريالي الما بعد استعماري فقط، لكن أيضاً من امتحان النقد الذاتي للعنف والانفجار الذي جلبه الغرب بنفسه إلى العالم الثالث. الفرنسيون استعمروا هاييتي، لكن الثورة الفرنسية أيضاً قدمت الأساس الأيديولوجي الذي حرر العبيد وأسس هاييتي المستقلة، عملية تصفية الاستعمار كانت قد بدأت عندما طالبت الأمم المستعمرة بالحقوق نفسها التي أخذها الغرب لنفسه. باختصار، على المرء ألا ينسى أبداً أن الغرب زود المعايير نفسها التي بها (ونقاده) يقيس ماضيه الإجرامي. نحن نتعامل هنا مع جدل الشكل والمضمون: عندما طالبت البلدان المستعمرة بالاستقلال وشرعت» العودة إلى

---

(١) المرجع السابق، ص٥١.



Twitter: @ketab_n

الجذور» الشكل ذاته لهذه العودة (للأمم والدول المستقلة) هو غربي في هزيمته نفسها (خسارة المستعمرات)، الغرب مع ذلك يربح من خلال فرض شكله الاجتماعي على الآخرين.

العبرة من مقالتي ماركس القصيرتين ١٨٥٣ عن الهند («البريطانيون يحكمون الهند» «المستقبل الناجم عن حكم البريطاني للهند») نبذت من خلال دراسات ما بعد استعمارية بوصفها حالات مربكة من «المركزية الأوربية»، لدى ماركس هي اليوم أكثر مناسبة من أي وقت آخر، ماركس يسلم بدون تأهيل الوحشية والاستغلالية المنافقة للاستعمار البريطاني للهند، حتى يشمل الاستعمال المنظم للتعذيب المحرم في الغرب «المستقدم من الخارج» على الهنود (لا يوجد هناك جديد تحت الشمس ـ جوانتانامو وجدت مسبقاً في وسط القرن التاسع عشر للهند البريطانية): «النفاق العميق والبربرية الفطرية للبرجوازية المتحضرة يكمن عارياً قبالة أعيننا متحولاً من موطنه، حيث يفترض أشكال محترمة للمستعمرات حيث يتعرى»[١] كل ما أضافه ماركس هو حطمت إنجلترا إطار المجتمع الهندي كاملاً من دون ظهور أعراض إقامة دستور. هذه الخسارة لعالمها القديم من دون كسب عالم جديد، يعطي نوعاً معيناً من الكآبة نحو الحاضر البائس للهندوس، ويفصل الهندوسية المحكومة

---

(١) النتائج المستقبلية للحكم البريطاني في الهند: في تقارير من المنفى، كارل ماركس، تحرير وتقديم: ديفيد فيرنباخ، هارموندسورث، بنجوين ١٩٧٣، ص٣٢٤.



Twitter: @ketab_n

من قبل البريطانيين عن تقاليدها القديمة، وتاريخها السابق... إنجلترا، إنها حقيقة في التسبب بثورة في هندوستان، تم تحريكها فقط من قبل المصالح الأكثر وضاعة، وكانت حمقاء في سلوكها على إجبارهم. لكن هذه ليست المسألة. المسالة هي، هل يمكن للجنس البشري انجاز مصيره من دون ثورة أساسية في الحالة الاجتماعية لآسيا؟ إذا لم يكن كذلك، أيا كانت الجرائم إنجلترا كانت أداة غير واعية للتاريخ في جلب تلك الثورة[١].

ليس على المرء أن ينبذ الحديث عن «الأداة اللا واعية للتاريخ» كتعبير عن الغائية الساذجة، للثقة في مكر العقل الذي يجعل حتى أتفه الجرائم آلات للتقدم، الفكرة هي ببساطة أن الاستعمار البريطاني للهند خلق شروطاً من أجل التحرر المزدوج للهند من حالات تقييد تقليدها كما من استعمارها نفسه. في استقبال مارجريت تاتشر في عام ١٩٨٥ الرئيس الصيني طبق على الصين بيان ماركس عن دور الاستعمار البريطاني في الهند: «الاحتلال البريطاني أيقظ الصين من نومها القديم»[٢]. بعيداً عن إذلال الذات المستمر واللافت في مواجهة السلطات الاستعمارية السابقة، بيانات مثل هذه تعبر عن «ما بعد استعمارية» تحديداً الاستقلال الناضج: للاعتراف بالأثر الإيجابي للاستعمار، على المرء أن يكون حراً وقادراً على التخلي عن ندباته. (وفي الوقت نفسه، رفض لوم

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٠٢ ـ ٣٠٦.

(٢) مقتبس من بروكنر، la tyrannie de la penitence، ص ١٥٣.



Twitter: @ketab_n

الذات، في حين الادعاء الكلي بفخر إرث تحرر المرء، هو sin qua non أمر مطلوب قطعاً من أجل تجديد اليسار).

الشخص الذي لا يمكن أن يكون متهماً بالرقة نحو الاستعمار هو فرنتز فانون[1]: أفكاره عن السلطة التحررية للعنف مربكة للكثير من النظريات الما بعد استعمارية الصحيحة سياسياً. بأية حال، كمفكر واضح تدرب في التحليل النفسي، قدم في عام ١٩٥٢ التعبير الأكثر حدة عن رفض الاستفادة من ذنب المستعمرين:

أنا إنسان، وما عليَّ استرداده هو ماضي العالم كله. أنا لست مسؤولاً وحدي عن انتفاضة العبيد في سانتو دومينجو. أشعر بالتضامن مع كل إنسان يسهم في انتصار نبل الروح، مع كل إنسان يقول لا لمحاولة إخضاع رفاقه. من المستحيل أن تكون مهمتي الأساسية التخلص من ماضي الشعوب الملونة. من المستحيل عندي تكريس نفسي لإحياء الحضارة السوداء المتجاهلة على نحو ظالم. لن أجعل من نفسي رجلاً لأي ماض... جلدي الأسود ليس مخزناً لأية قيم محددة... أليس علي امتلاك أشياء أفضل لفعلها على هذه الأرض أكثر من الانتقام لسود القرن السابع عشر؟ أنا كرجل ملون أليس لدي الحق بالأمل بأنه سيكون في الرجل الأبيض اعترافاً بالذنب المقترف في الماضي بحق عرقي. أنا كرجل ملون أليس

---

(١) فرانتز عمر فانون: المولود في المارتينيك، إفريقي ـ فرنسي، كاتب وطبيب نفسي، فيلسوف.



Twitter: @ketab_n

لدي الحق بالبحث عن وسائل تطبع فخر سيدي السابق. ليس لدي الحق ولا الواجب بطلب إصلاح أسلافي المستعبدين. ليس هناك مهمة سوداء، ليس هناك عبء أبيض... لا أريد أن أكون ضحية خدعة العالم الأسود... هل أنا ذاهب كي أطلب من الرجل الأبيض المعاصر ليجيب تجار العبيد في القرن السابع عشر؟ هل أنا ذاهب لأحاول بكل الوسائل المتاحة لأتسبب في تبرعم الذنب في أرواحهم؟.. أنا لست عبداً للعبودية التي جردت أسلافي من إنسانيتهم... ستكون مصلحة هائلة في اكتشاف أدب السود أو فن عمارتهم من القرن الثالث قبل المسيح. سنكون مبتهجين لتعلم وجود مراسلة بين فيلسوف أسود وأفلاطون. لكن يمكننا بالتأكيد ألا نرى كيف أن هذه الواقعة ستغير حياة أطفال بعمر ثماني سنوات يعملون في حقول القصب في المارتينيك أو الجوادلوب... أجد نفسي في العالم أو أدرك بان لدي حقاً واحداً وحيداً هو الطلب من الآخر أن يتصرف بشكل إنساني[1].

على طول الأسطر نفسها، على المرء أن يواجه نقدياً النبذ الكريه لصادري خياري[2] لمحاولات اليسار الفرنسي لتأمين أوراق مناسبة (للمهاجرين غير الشرعيين):

أبيض اليسار أيضاً لديه يقظة من أجل الـ «بدون أوراق» -sans

(١) جلد أسود..أقنعة بيضاء، فرانتز فانون، نيويورك، جروف للصحافة٢٠٠٨، ص ٢٠١.

(٢) ناشط تونسي.



Twitter: @ketab_n

papiers. بلا شك لأن الأخير غير موجود على الإطلاق. وبسبب رغبة في الوجود فقط هو مجبر على طلب مساعدة اليسار، كان عليه التهديد بإنهاء وجوده. إثبات أني موجود، يقول، هو أني أموت. ويتوقف عن تغذية نفسه. ويرى اليسار في هذا سبباً جيداً لإعلان الحق: «أعطه الأوراق حتى يغذي نفسه وينقطع عن الوجود!» طالما أنه إذا حصل على الأوراق، فلن يعود بدون أوراق، وإذا لم يكن موجوداً على الإطلاق باعتباره بدون أوراق، عندما حصل على الأوراق، هو ليس موجوداً تماماً، هذا كل شيء. هذا نوع من تقدم[1].

المنطق المخفي واضح ومقنع: العامل المهاجر «الغير موثق» ليس لديه حالة شرعية، إذا ما تم لحظه كلياً، فسيكون تهديداً خارجياً مظلماً لطريقتنا في الحياة، لكن لما يحصل على أوراقه وحالته تم تشريعها، هو ثانية يتوقف عن الوجود بشكل مناسب، طالما أنه يصبح غير مرئي في حالته الخاصة. بطريقة ما، يصبح أكثر خفاء عندما يتم قوننته: هو لم يعد تهديداً مظلماً، لكنه مطبع كلياً، غرق في الحشد الغير متميز من المواطنين. لكن ما يفتقر إليه رفض خياري مع ذلك هو كيف الإمساك» بالأوراق» يفتح المجال لتنظيم ذاتي سياسي أكثر، وعندما يملك المرء «الأوراق »، يفتح حقلاً واسعاً من الحشد السياسي والضغط، منذ الآن ينخرط

(١) الثورة المضادة الاستعمارية في فرنسا، صادري خياري، باريس، لا فابريك، ٢٠٠٩، ص ١١.



Twitter: @ketab_n

مواطنون شرعيون من دولة «نا»، لا يمكن أن يكونوا منبوذين بوصفهم خطراً يهدد من الخارج.

عندما نتحدث عن الإجراءات المعادية للهجرة بشأن الأشكال المختلفة من المهاجر المبعد، علينا دائماً أن نضع في بالنا أن سياسة معاداة الهجرة ليست متصلة مباشرة بالرأسمالية أو بمصالح رأس المال. دورة العمل الحرة هي، على العكس، في مصلحة رأس المال الكبير، طالما أن العمل المهاجر الأرخص سيضغط على عمال «نا» لقبول أجور أقل. المقاومة ضد المهاجرين هي رد الفعل الدفاعي التلقائي لطبقة العمال المحلية التي (ليست بكاملها مظلومة) تدرك العامل المهاجر كنوع جديد من كاسر للإضراب وعلى هذا النحو، هو تحالف مع رأس المال. باختصار، إنه رأس المال العالمي المتسامح ومتعدد الثقافات فطرياً.

الموقف المعياري المتبنى من قبل المدافعين غير المتحفظين عن حقوق المهاجرين غير الشرعيين هو التسليم بأنه على مستوى الدولة، الجدالات المضادة ربما تكون أيضاً «حقيقية» (بمعنى آخر، بالطبع البلاد لا يمكنها أن تقبل بفيض لا نهائي من المهاجرين، هم يتزاحمون بطرق تهدد الأعمال المحلية، وربما تفرض أيضاً مخاطر أمنية محددة)، لكن دفاعهم يتحرك على مستوى مختلف بمجمله، مستوى له صلة مباشرة بمتطلبات الواقع، مستوى السياسة المبدئية؛ إذ يمكننا الإصرار من دون تحفظ على أن «qui est ici est d'ici» («هؤلاء الذين هم هنا من هنا»). لكن أليس هذا الموقف المبدئي


Twitter: @ketab_n

بسيطاً بسماحه بموقف مريح للروح الجميلة؟ أنا أصر على مبادئي، ودع الدولة تتعامل مع إرباكات الواقع البراجماتية... بهذه الطريقة، ألا نتجاوز السمة الحاسمة للمعركة السياسية من أجل حقوق المهاجرين؟ كيف نقنع العمال المعارضين لهؤلاء المهاجرين بأنهم يحاربون في المعركة الخاطئة؟ وكيف نقدم شكلاً معقولاً من السياسات البديلة؟ «المستحيل» (انفتاح على المهاجرين) حصل بالفعل.هذا سيكون حدثاً سياسياً حقيقياً.

لكن لم ليس على المهاجر ألا يكون راضيا بتطبيعه؟ لأنه بدلاً من توكيد هويته، كان عليه أن يتكيف مع معايير مضطهده: هو مقبول، لكن de facto عملياً في دور ثانوي. حديث مضطهده يعرف شروط هويته. على المرء أن يتذكر هنا الكلمات التصويرية لستوكلي كارميشيل[1] (مؤسس سلطة السود): «علينا أن نقاتل من أجل الحق باختراع الشروط التي ستسمح لنا بتعريف أنفسنا ووتعريف علاقاتنا بالمجتمع، وعلينا أن نقاتل لتكون هذه الشروط مقبولة. هذا أول ما يحتاجه الأحرار، وهذا أيضاً هو الحق الأول المرفوض من قبل كل مضطهد». المشكلة هي كيفية فعل هذا، هذا يعني كيفية مقاومة الإغواء بتعريف نفسه بمرجعية بعض هويات خارجية وملفقة (جذور أفريقية)، وبطريقة قطع العلاقات مع الثقافة «البيضاء»، يحرم المضطهد من أدوات فكرية حاسمة من أجل كفاحهم (تحديداً التقليد التحرري القائل بالمساواة) كذلك التحالفات الكامنة. على

(١) ناشط أسود أمريكا ـ ترينيدادي.



Twitter: @ketab_n

المرء أن يصحح بعض الشيء كلمات كارميشيل: الذي يخشاه المضطهد حقيقة هو ليس تعريف أسطوري للنفس من دون اتصال بالثقافة البيضاء، لكن تعريف النفس الذي في طريق تخصيص عناصر رئيسة للتقليد «الأبيض» التحرري القائل بالمساواة، إعادة تعريف التقليد نفسه، محولاً إياه ليس كثيراً في مصطلحات ما يقوله وما لا يقوله، هذا هو طمس التأهيل الضمني التي عليها استثناء السود من الفضاء القائل بالمساواة. بمعنى آخر، ليس كافياً من أجل إيجاد تعابير جديدة ليعرف نفسه خارج سيطرة التقليد الأبيض، على المرء أن يتقدم خطوة إضافية ليحرم البيض من احتكار تعريف تقليدهم.

بهذا المعنى الدقيق، كانت الثورة الهايتية «لحظة تعريفية في تاريخ العالم»[1]. هذه الفكرة ليست لدراسة الثورة الهايتية كملحق بالروح الثورية الأوربية، إنها لتفحص أهمية أوربا (من الثورة الفرنسية) بالنسبة للثورة الهايتية، لكن بدلاً من توكيد معنى الثورة الهايتية بالنسبة إلى أوربا. ليس فقط أنه لا يمكن للمرء تفهم هايتي من دون أوربا، لا يمكن للمرء فهم غرض أو حدود العملية التحررية الأوربية أيضاً من دون هايتي. كانت هايتي استثناء منذ البداية، منذ كفاحها الثوري ضد العبودية الذي انتهى إلى الاستقلال في كانون الثاني ١٨٠٤: «فقط في هاييتي كان إعلان الحرية الإنسانية الثابتة عالمياً. فقط في هايتي كان هذا الإعلان ثابتاً بأي

(١) هيجل، هاييتي، والتاريخ العالمي، بوك مورس، ص ١٣.



Twitter: @ketab_n

ثمن، في المعارضة المباشرة للنظام الاجتماعي والمنطق الاقتصادي الحاليين». لهذا السبب، «ليس هناك حدث واحد في كل التاريخ الحديث كانت مضمناته أكثر تهديداً للنظام العالمي المسيطر للأمور»[١].

واحد من منظمي الثورة كان قساً عبداً أسود يُعرف «بجون بوكمان» اسما عينه كمثقف، بشكل مفاجئ، اسمه الكتاب «book» لم يكن يشير إلى الإنجيل بل إلى القرآن. هذا يجلب إلى البال التقليد العظيم للثوار «الشيوعيين» الألفيين في الإسلام بخاصة «جمهورية القرامطة» وثورة الزنج[٢]. القرامطة كانوا فرقة إسماعيلية ألفية تمركزت في شرق جزيرة العرب (البحرين الحالية)، حيث أسسوا جمهورية طوباوية في عام ٨٩٩. هم كثيراً ما أدينوا من أجل التحريض على» قرن الإرهاب»: خلال موسم الحج عام ٩٣٠، استولوا على الحجر الأسود من مكة، تصرف حمل كإشارة على أن عصر الحب قد وصل، بذلك لم يعد أحد يخضع للقانون. كان هدف القرامطة بناء مجتمع مؤسس على العدل والمساواة. كانت الدولة محكومة من قبل مجلس من ستة أعضاء برئيس كان أولا بين متساويين. كل الأملاك في المجتمع كانت موزعة بالتساوي بين كل المنضمين. بالرغم من أن القرامطة كانوا منظمين كمجتمع باطني، إلا أنهم لم يكونوا سريين: كانت نشاطاتهم علنية ومنتشرة بصراحة.

---

(١) بيتر هالوارد، damming the flood, new York: verso 2008.

(٢) الرواية التالية تعتمد على مداخل الويكيبيديا ذات العلاقة، انظر بشكل خاص في المدخلات عن «القرامطة» و«ثورة الزنج».



Twitter: @ketab_n

الذي حرض على نهضتهم كان عبداً ثائراً في البصرة التي مزقت سلطة بغداد. «ثورة الزنج» التي حدثت خلال فترة من خمسة عشر عاماً (٨٦٩ ـ ٨٣)، اشتملت على ٥٠٠,٠٠٠ عبد جلبوا إلى المنطقة من الإمبراطورية الإسلامية. قائدهم، علي بن محمد، كان مصدوما بمعاناة العبيد العاملين في مستنقعات البصرة، بدأ بالتحقيق في شروط عملهم ومعايير تغذيتهم، ادعى بأنه سليل الخليفة علي بن أبي طالب، وعندما لم يقبل ادعائه، بدأ يعظ بمبدأ المساواة الجذرية للخوارج، ووفقاً لعظته فإن أكثر الرجال كفاءة يجب أن يحكم، حتى وإن كان عبداً حبشياً. لا عجب ثانية أن التاريخ الرسمي (مثل الطبري والمسعودي) لاحظوا فقط «الشخصية الوحشية والشريرة للانتفاضة»....

لكن ليس هناك حاجة إلى الذهاب أبعد من ألف سنة لإيجاد هذا البعد في الإسلام، فنظرة على الأحداث التي لحقت الانتخاب الرئاسي لعام ٢٠٠٩ في إيران كافية. اللون الأخضر المتبنى من قبل داعمي موسوي، صرخات «الله أكبر!» التي صدحت من أسطح طهران في ظلمة المساء، تشير بوضوح إلى أنهم رأوا تحركهم كتكرار لثورة الخميني عام ١٩٧٩ كالعودة إلى جذورها، تعطيل فساد الأخير للثورة. هذه العودة إلى الأصول ليست فقط تصويرية، إنها حتى أكثر اهتماماً بنموذج فعالية الحشود: الوحدة الرائعة للناس، وتضامنهم الكلي الشامل، والتنظيم الذاتي المبدع، والتصرفات المرتجلة لربط الاحتجاج، والمزيج الفريد من


Twitter: @ketab_n

الانضباط والتلقائية، مثل مسير مشؤوم لآلاف في صمت مطبق. هذه كانت انتفاضة شعبية أصيلة من مشاركين محبطين من ثورة الخميني. لهذا السبب على المرء مقارنة الأحداث في إيران بالتدخل الأميركي في العراق: أمنت إيران حالة التوكيد الأصيل للإرادة الشعبية كمعادية للفرض الأجنبي للديمقراطية في العراق. وهذا أيضاً ما جعل الأحداث في إيران تقرأ كتعليق على تفاهات خطاب أوباما في القاهرة الذي ركز على الحوار بين الأديان: لا نحتاج إلى الحوار بين الأديان (بين الحضارات)، نحن بحاجة إلى صلة من التضامن بين هؤلاء الذين يكافحون من أجل العدالة في البلدان الإسلامية وهؤلاء الذين يشاركون في النضال نفسه في مكان أخر. بمعنى آخر، نحن نطلب عملية مسيّسة تقوي النضال هنا هناك وفي كل مكان.

هناك زوج من العواقب الحرجة تنسحب من هذه البصيرة؛ أولاً: أحمدي نجاد ليس بطل الفقراء من المسلمين، لكن شعبوية فاشية إسلاموية فاسدة أصيلة، نوع من برلسكوني إيراني يمزج بين وقفة تهريجية وسياسات سلطة قاسية تتسبب بالقلق حتى بين أغلبية آيات الله. توزيعه الديماغوجي للفتات على الفقراء يجب ألا يضللنا؛ ليس وراءه فقط أعضاء من شرطة القمع وأجهزة علاقات عامة مغربنه، لكن أيضاً طبقة قوية جديدة من الأغنياء، نتيجة فساد النظام (حماة الثورة الإيرانية ليسوا من ميليشيا الطبقة العاملة، لكن شركات ضخمة، المركز الأقوى للثروة في البلاد)، ثانياً: على


Twitter: @ketab_n

المرء أن ينتزع الفرق الواضح بين العضوين الأساسيين المعارضين لأحمدي نجاد، مهدي خروبي وموسوي. خروبي الإصلاحي بشكل فعال، المقترح أساساً للنسخة الإيرانية للمحسوبيات، الحسنات الموعودة لكل الأقليات الخاصة. موسوي مختلف بشكل كلي؛ اسمه يدعم انتعاشاً أصيلاً للأحلام الشعبية التي تساند ثورة الخميني. حتى لو أن هذا الحلم كان يوتوبيا، على المرء أن يدرك فيه يوتوبيا أصيلة للثورة نفسها؛ لأن ثورة الخميني عام ١٩٧٩ لا يمكنها أن تكون مختزلة إلى سيطرة لتشدد إسلامي، كانت أكثر من ذلك بكثير. الآن حان الوقت لتذكر الانفعال الذي لا يصدق لأول سنة بعد الثورة، مع انفجار يخطف الأنفاس من النشاط السياسي والاجتماعي، تجارب منظمة ونقاشات بين الطلاب والناس العاديين. الحقيقة ذاتها عن أن هذا الانفجار كان عليه خنق التظاهرات وأن ثورة الخميني كانت حدثاً سياسياً أخلاقياً، لحظة فاتحة حررت القوى الغير متخيلة سابقاً للتحولات الاجتماعية، اللحظة التي بدا كل شيء فيها ممكناً، ما تبع كان إغلاقاً تدريجياً من خلال السيطرة على السلطة السياسية من خلال المؤسسة الدينية. للتعبير عنه في تعابير فرويدية، الحركة الاحتجاجية الأخيرة هي» عودة قمع «ثورة الخميني. أيا كانت الحصيلة في إيران، فهي مهمة بشكل حيوي للإبقاء في البال أننا شهدنا حدثاً تحررياً عظيماً لم يتلاءم مع إطار الكفاح بين الليبراليين المؤيدين للغرب والمتطرفين المعادين للغرب. إذا كانت براغماتيتنا التهكمية تجعلنا نخسر القدرة


Twitter: @ketab_n

على إدراك هذا البعد التحرري، فنحن في الغرب ندخل بشكل فعال عصر ما بعد الديمقراطية، لنكون جاهزين لأحمدي نجاد خاصتنا. الايطاليون يعرفون مسبقا اسمه: برلسكوني، الاخرون ينتظرون في الصف.

ماذا بشأن الثورة الهايتية التي تجاوزت الحماس الكانطي، والذي رآه هيجل بوضوح؟ ما نحتاج إلى إضافته هنا، تجاوز كانط، هل هناك مجموعات اجتماعية ـ تفتقر لمكان محدد في النظام الخاص للهرم الاجتماعي كـ«جزء اللا جزء» من الجسم الاجتماعي ـ تؤيد بشكل مباشر الكونية. الحماس الثوري الشيوعي المناسب متجذر بشكل غير مشروط في التضامن الكلي مع هذا «الجزء اللا جزء» وموقفه من الكونية الفردية. «فشلت» الثورة الهايتية عندما خانت هذا التضامن وتطورت نحو مجتمع جديد قومي سلطوي استمرت فيه النخبة السوداء المحلية الجديدة بعملية الاستغلال. لم يكن تخلف هايتي سبب فشلها بل لأنها سابقة على وقتها، مزارعوها العبيد (غالباً قصب السكر) لم يكونوا رسالة تذكير بالمجتمعات ما قبل الحديثة، لكن نماذج من إنتاج رأسمالي كفء، الانضباط الذي كان العبيد يخضعون له كنموذج عن انضباط العمال المأجورين الخاضعين له مؤخراً في العواصم الرأسمالية. بعد إلغاء العبودية فرضت الحكومة الجديدة الهايتية «عسكرة زراعية» رغبة في عدم مقاطعة إنتاج قصب السكر للتصدير، كان العبيد السابقون مجبرين على متابعة العمل في مزارعهم تحت إمرة المالكين نفسهم، لكن


Twitter: @ketab_n

بوصفهم عمالاً مأجورين «أحراراً» تقنياً. الضغط الذي يميز المجتمع البرجوازي والحماس الديمقراطي والحريات الشخصية موجودة مع العمل المنضبط لأشباه العبيد، هذه العبودية ظهرت في هايتي في شكلها، فحوى تحليل ماركس هو أن مصفوفة الأيديولوجية الشرعية عن الحرية والمساواة ليست مجرد «قناع» يخفي الاستغلال والهيمنة، لكن الشكل نفسه الذي يمارس فيه كل منهما.

## ٥ ـ الاستثناء الرأسمالي:

هناك مشكلة متكررة نواجهها هنا ثانية: قدر الثورة الهايتية وارتدادها إلى شكل جديد من الحكم التراتبي (بعد موت ديسالاين[١])، هي واحدة في سلاسل من الانتكاسات التي تميز الثورات الحديثة؛ الطريق من اليعاقبة إلى نابليون، من ثورة أكتوبر إلى ستالين، من ثورة ماو الثقافية إلى رأسمالية دينج شياوبينج. كيف لنا أن نفسر هذا الطريق؟ هل المستوى الثاني the thermidor[٢] «حقيقة» المستوى الثوري الأول (كما بدا ماركس أحيانا أنه يدعي)، أو هو أنه في كل حالة تستنزف السلاسل التبعية الثورية نفسها وحسب؟

---

(١) جان جاك ديسالاين قائد الثورة الهايتية.

(٢) الشهر الحادي عشر في الجمهورية الفرنسية، وبسبب الردة التي حصلت في هذا الشهر في السنة الثانية للثورة الفرنسية أصبحت الكلمة تعني التراجع عن المزيد من الأهداف الراديكالية والاستراتيجيات ولاسيما عندما تصدر عن شخصيات قيادية بديلة.



Twitter: @ketab_n

أزعم هنا بأن فكرة الشيوعية تستمر، إنها تنجو من إخفاقات تحقيقها كشاهد يعود مراراً وتكراراً في إصرار لا نهائي، أفضل تصوير له في الكلمات المقتبسة سابقاً من worstward ho لبيكيت: «حاول مجدداً. افشل مجدداً. افشل بشكل أفضل». هذا يصل بنا إلى صلب الموضوع. واحدة من الكلمات السحرية ليسار ما بعد الحداثة هي أنه علينا أخيراً التخلي عن مثال السلطة الديكتاتورية المركزية «اليعاقبة[1] ـ اللينينية». لكن ربما حان الوقت لقلب هذه الكلمة السحرية والاعتراف بأن جرعة كافية من ذلك النموذج «اللينيني ـ اليعقوبي» هي بالضبط ما يحتاجه اليسار اليوم. الآن، أكثر من أي وقت، على المرء أن يصر على ما دعاه باديو الفكرة «الأبدية» للشيوعية، أو «الثوابت» الشيوعية «المفاهيم الأساسية الأربعة» في العمل من أفلاطون عبر انتفاضات القرون الوسطى

---

(١) اليعاقبة أعضاء أكبر جمعية سياسية ثورية حكمت أثناء الثورة الفرنسية، استمدّت هذه الجمعية اسمها من مقرها في باريس بالقرب من كنيسة سانت جيمس الذي يعني بالفرنسية جاكوب أي (يعقوب)، كانت المنظمة الوطنية الوحيدة في البلاد التي تكونت لفترة قصيرة بعد بداية الثورة، وينحدر معظم أعضاء جمعية اليعاقبة من الطبقة الوسطى.
وقد اعترضوا في بادئ الأمر على الحروب الخارجية خشية أن تؤدي إلى الدكتاتورية العسكرية. ولكنهم أيدوا الحرب عام ١٧٩٢م عندما نشبت مع بروسيا والنمسا أملاً في الوصول إلى الحكم.
جاء اليعاقبة إلى السلطة عام ١٧٩٣م، وبدؤوا عهد الإرهاب؛ فأرسلوا مئات الفرنسيين إلى المقصلة. كان روبسبير أكثر زعماء اليعاقبة نفوذًا، انقلب أتباعه عليه عام ١٧٩٤م وأعدموه. وبذلك فقد اليعاقبة بعد وفاته السلطة.


Twitter: @ketab_n

الألفية وحتى اليعاقبة، اللينينية والماوية: عدالة ومساواة صارمة، وإرهاب منظم، وتطوعية سياسية، والثقة بالشعب. هذه المصفوفة ليست «مبطلة» بأية دينامية مما بعد حداثة جديدة أو ما بعد صناعية أو ما بعد أيّاً يكن ما تريده. بأية حال، إلى اللحظة التاريخية الحالية، هذه الفكرة الأبدية تنجح، كفكرة أفلاطونية تماماً تثابر على العودة مراراً وتكراراً بعد كل هزيمة. ما نفتقر إليه اليوم هو صياغتها بتعابير فلسفية لاهوتية، ربط مميز للفكرة مع لحظة تاريخية متفردة (الطريقة نفسها التي في المسيحية، كامل الصرح المقدس الأبدي يقف ويسقط مع الحدث الطارئ لولادة المسيح وموته).

هناك شيء ما فريد في الكوكبة الحالية: لاحظ العديد من المحللين الواضحين بأن الرأسمالية المعاصرة تفرض مشكلة على منطق المقاومة الذي يستمر. بريان ماسومي[1] على سبيل المثال، قد صاغ بوضوح كيف أن الرأسمالية المعاصرة تتجاوز منطق الحالة السوية مجتمعة وتعدل منطق الفائض غير المنظم[2]. ويمكن للمرء تزويد هذه التحليلات في عدة اتجاهات ـ عملية الاسقاط نفسها وخلق «مناطق محررة» خارج مجال الدولة تم إعادة تخصيصها من قبل رأس المال. أمثولة عن منطق الرأسمالية العالمية هو ما يسمى «المناطق الاقتصادية الخاصة»: مناطق جغرافية ضمن دول «العالم

(١) منظر اجتماعي كندي، كاتب وفيلسوف.

(٢) انظر: كتابي في الدفاع عن قضايا مفقودة، لندن، فيرزو، ٢٠٠٨، ص ١٩٧.



Twitter: @ketab_n

الثالث عادة» مع قوانين اقتصادية هي أكثر تحرراً من القوانين الاقتصادية المعيارية للدولة (تسمح على سبيل المثال بضرائب أقل على التصدير والاستيراد، فائض حر من رأس المال، تحديد أو حظر مباشر لاتحادات التجارة، ليس هناك حد أدنى ليوم العمل.. إلخ) رغبة في زيادة الاستثمارات الأجنبية. الاسم نفسه يغطي المدى بأكمله من أنماط المنطقة الخاصة؛ مناطق تجارة حرة، ومناطق معالجة التصدير، ومناطق حرة، ودول صناعية، وموانئ حرة، ومناطق مشاريع مدنية...الخ. مع مرافقاتها الفريدة من «الانفتاح» (كفضاء حر معفى جزئياً من سيادة الدولة) والإغلاق (فرض شروط عمل غير مثقلة بحريات مضمونة شرعياً) الذي يعيد مستويات عالية من الاستغلال، هذه المناطق نظراء هيكلية لمجتمعاتنا المحتفى بها من «العمل الفكري»، يشكلون الشرط الرابع الذي يضاف إلى رباعيات من التقنية العالية العمل الفكري المجتمعات المبوبة، وأحياء فقيرة.

يدرك باديو أيضاً الحالة الاستثنائية الوجودية للرأسمالية التي تقوض ديناميتها كل إطار مستقر من إعادة التمثيل، المهمة المؤداة عادة من قبل نشاط سياسي نقدي (بتقويض إطار تمثيل الدولة) هي مؤداة مسبقاً من قبل الرأسمالية نفسها، التي تفرض إشكالية على فكرة باديو عن السياسة «التبعية». في تشكيلات قبل رأسمالية، كل دولة، كل إعادة تمثيل شمولية، ألمحت إلى إيجاد مستثنى، فكرة «الالتواء الظرفي»، «جزء اللا جزء» العنصر الذي بالرغم من أنه جزء من النظام، إلا أنه ليس له مكان مناسب فيه، كان يجب على


Twitter: @ketab_n

السياسات التحررية اختراع من موقف هذا الإفراط عنصر «زائد» الذي بالرغم من أنه جزء من الحالة، لا يمكن حسابه في مصطلحاتها. لكن ما الذي يحدث عندما لا يعود النظام يستثني الزائد، وبدلا من ذلك يفرضه مباشرة كقوته الموجهة، كما لو أن حالة الرأسمالية، التي يمكن لها فقط إعادة انتاج نفسها من خلال ثورتها الذاتية المستمرة من خلال التجاوز المستمر لحدودها. لصوغه بطريقة أخرى: إذا ما الحدث السياسي، التدخل التحرري في العالم التاريخي المقوض، هو دائما موصول بنقطة الإفراط «لاعوجاجه العرضي» بالتحديد، يقوض محيط ذلك العالم، فكيف علينا جعل التدخل السياسي في الكون الذي هو في نفسه بلا عالم أصلاً، والذي من أجل إعادة انتاجه لم يعد يحتاج لأن يكون محتوى بقيود الـ«عالم»؟ كما لحظ ألبيرتو توسكانو[١] في تحليلاته الدقيقة، حوصر باديو هنا في التقلب عندما سحب النتيجة «المنطقية» في كون «بلا عالم» (الذي هو اليوم كون الرأسمالية العالمية)، ينبغي أن يكون هدف السياسات التحررية المعارض الدقيق modus operandi[٢] «التقليدي»، والمهمة اليوم هي تشكيل عالم جديد، وتقديم دلالات تخصصية جديدة ستوفر «التصميم المعرفي»[٣].

(١) ناقد ثقافي، منظر اجتماعي، فيلسوف ومترجم.

(٢) منهج العمل.

(٣) من الدولة إلى العالم؟ باديو ومعاداة الرأسمالية، البيرتو توسكانو، اتصال ومعرفة، المجلد ٢٣، ٢٠٠٣، ص ١.



Twitter: @ketab_n

ملامح المعضلة يجب أن تكون واضحة. نقطة انطلاقنا كانت منطق المقاومة/ الطرح: الشيوعية هي الفكرة الأبدية التي تثابر على التفجر من وقت إلى آخر... لكن ماذا لو، على سبيل المثال، لم تمثل الثورة الثقافية الصينية فقط استنزاف عهد الحزب ـ دولة، لكن نهاية تلك العملية نفسها التي فيها مشاريع التحرر والمساواة تتفجر وثم تنعكس إلى دورة «طبيعية» للأشياء؟ هنا السلسلة تم تقويضها بسبب سيطرة العدو على الدينامية الثورية، الآن لم يعد بإمكان المرء لعب لعبة تدمير النظام من موقع «جزء من لا جزء» خاصته، طالما أن النظام قد أوقف مسبقاً تدميره الدائم. مع انتشار كامل للرأسمالية، إنها الحياة «الطبيعة» نفسها التي، بطريقة معينة احتفالية بانتكاساتها المتواصلة، والأزمات، وإعادة الاختراع، ونقد الرأسمالية من موقف أخلاقي «ثابت»، يظهر اليوم أكثر مما مضى كاستثناء.

السؤال الحقيقي هنا هو: كم تكون التكلفة الخارجية فيما يتعلق بالدولة ليتم تفعيلها؟ طالما أن الثورة الثقافية تشير إلى إخفاقات محاولة تدمير الدولة من داخلها، البديل لإبطال الدولة ببساطة إذن هو قبول الدولة كحقيقة، كجهاز يهتم «بخدمة البضائع»، ولتعمل على مسافة منه (إمطاره بتصريحات توجيهية ومتطلبات) أو هو، أكثر جذرية، علينا أن نهدف عند الطرح من حقل الهيمنة الذي، في الوقت نفسه، يتدخل بقسوة في هذا الحقل، مختزلاً إياه إلى أقل اختلاف مغطى؟ هذا الطرح عنيف للغاية وأكثر عنفاً من تدمير/


Twitter: @ketab_n

تطهير: إنه اختزاله إلى أقل الفروق من جزء (أجزاء)/ لا جزء، ١ و٠، أقليات وبروليتاريا. ليس فقط طرح الموضوع من حقل الهيمنة، لكن الطرح الذي يؤثر بعنف على هذا الحقل نفسه كاشفاً إحداثياته الحقيقية، هذا الطرح لا يضيف موقفا ثالثا إلى الموقفين الذي يميز توترهما الحقل المهيمن (لذا حتى يكون لدينا الآن، جنبا إلى جنب مع الليبرالية والتطرفية، سياسات تحررية يسارية جذرية). الشرط الثالث بالأصح «ينزع الشرعية» عن الحقل المهيمن مظهراً التواطؤ الكامن للأقطاب المعارضة التي تشكله. هنا تكمن معضلة الطرح: إنه الطرح/ الانسحاب الذي يترك الحقل الذي ينسحب منه سليماً (أو حتى يعمل كمكمله الأصيل، مثل الـ «الطرح» أو الانسحاب من الواقع الاجتماعي إلى مقترح ذاتي حقيقي للمرء من قبل عصر جديد تأملي)، أو هل يشوش بعنف الحقل الذي ينسحب منه؟ «الطرح» بذلك هو ما سماه كانط مفهوم الثنائي الطبيعة. بإعادة صياغة ما قاله لينين، يمكن للمرء القول بأن كل شيء بما في ذلك قدر الحركات التحررية الراديكالية اليوم، يتوقف على كيفية قراءتنا لهذا المفهوم، على أية كلمة ستكون متصلة به أو منفصلة عنه.

«طرح» باديو، مثل مفهوم aufhebung[1] لدى هيجل، يتضمن

---

(١) كلمة ألمانية لها عدة معانٍ تبدو متناقضة؛منها: الرفع أو الإلغاء أو التعليق أو الإنكار، وقد استخدمها هيجل لشرح ما يحدث عندما تتفاعل الأطروحة ونقيضها وهي تعني هنا الإنكار.



Twitter: @ketab_n

ثلاث طبقات مختلفة من المعنى: (١) الانسحاب، الفصل، (٢) اختزال تعقيد الحالة إلى اختلافها الأدنى، (٣) تدمير النظام الموجود. كما عند هيجل، الحل ليس التفريق بين المعاني الثلاث (يقترح في النهاية مصطلحاً محدداً لكل واحد منهم)، لكن لاستيعاب الطرح بوصفه وحدة أبعاده الثلاثة يتوجب على المرء الانسحاب من كونه مستغرقاً في حالة بتلك الطريقة؛ إذ يعيد الانسحاب «الاختلاف الأدنى» مرئياً متحملاً تعددية الحالة، وبذلك يتسبب بتفككه تماماً كسحب ورقة لعب واحدة من منزل مبني من أوراق اللعب يتسبب بانهيار كامل البناء.

بالطبع، الشكل الرأسمالي التحرري القائل بالمساواة «اللا-إقليمية»[١] ليس هو نفس الشكل الرأسمالي الما بعد حداثي، لكن مع ذلك يغير جذرياً مصطلحات النضال التحرري. بدقة، لم يعد العدو النظام التراتبي المؤسس للدولة. كيف إذن، نثوّر نظاماً مبدؤه متواصل الثورة الذاتية؟ أكثر من حل للمشكلة نواجهه اليوم، الشيوعية هي نفسها اسم المشكلة: اسم لمهمة صعبة للهرب من حدود السوق وإطار الدولة، مهمة لا يوجد من أجلها صيغة سريعة. «إنها شيء بسيط وحسب من الصعب جداً فعله»، كما صاغه بريخت في كتابه «في مديح الشيوعية».

الجواب الهيجيلي هو أن المشكلة أو المأزق هو حلها ـ لكن ليس

---

(١) Deterritorialization: مصطلح ابتدعه جيل دولوز ويعني القضاء على الممارسات الاجتماعية والثقافية والسياسية من أرضها وأصحابها الأصليين.



Twitter: @ketab_n

بمعنى بسيط أو مباشر عن أن الرأسمالية هي أصلاً بنفسها شيوعية، وأنه مطلوب فقط انقلاباً شكلياً تماماً. اقتراحي هو: ماذا لو أن الرأسمالية العالمية الحالية إلى الآن باعتبار «لا عالميتها» مشتركة في تخريب مستمر لكل نظام ثابت، تفتح المجال لثورة ستحطم حلقة الانتفاضة الفاسدة وإعادة كتابتها، التي سرعان ما تتبع نموذج الانفجار التبعي الذي تلحق به عودة إلى الطبيعية، لكن بدلا من ذلك سوف تفترض مهمة «تنظيم» جديد ضد اعتلال الرأسمالية العالمية؟ خارج الانتفاضة علينا بجرأة العبور إلى فرض نظام جديد. (أليس هذا واحداً من دروس الانهيار المالي المتواصل؟) لهذا السبب التركيز على الرأسمالية حاسم إذا ما أردنا إعادة تحقيق فكرة الشيوعية: الرأسمالية المعاصرة «اللا عالمية» تغير جذرياً إحداثيات النضال الشيوعي نفسها، العدو لم يعد الدولة كونها قد قوضت من نقطة التوائها العرضي، لكن جريان التثوير الذاتي الدائم.

ولذلك، أريد اقتراح بديهتين متعلقتين بالعلاقة بين الدولة والسياسة:

(١) فشل سياسة الحزب، الدولة الشيوعية هو قبل كل شيء ومبدئياً فشل سياسة المعاداة للدولة anti-statal، المسعى للهرب من قيود الدولة لاستبدال الأشكال الأمريكية[١] للمنظمة بأشكال غير تمثيلية مباشرة من التنظيم الذاتي (مجالس).

(١) Statal: تشير إلى دولة الولايات المتحدة الأمريكية التي تتميز عن الحكومة العامة.



Twitter: @ketab_n

(٢) إذا لم يكن لديك فكرة واضحة عما تريد استبدال الدولة به، فليس لديك الحق بطرح/ سحب من الدولة. بدلاً من الابتعاد عن الدولة، يجب أن تكون المهمة الحقيقية جعل الدولة نفسها تعمل في نموذج غير أمريكي. البديل «سواء النضال من أجل سلطة الدولة (التي تجعلنا متشابهين مع العدو الذي نقاتله) أو المقاومة بالانسحاب إلى موقف البعد عن الدولة» مزيف، كلاهما مصطلحان يتشاركان المسلمة نفسها وهي أن شكل الدولة، بالطريقة التي نعرفها اليوم، هي هنا للبقاء، فكل ما يمكننا فعله هو إما السيطرة على الدولة أو الابتعاد عنها. هنا، على المرء أن يكرر بجرأة درس الدولة والثورة للينين: ليس هدف العنف الثوري السيطرة على سلطة الدولة بل لتحويلها، وتغيير وظيفتها جذرياً، علاقتها بقاعدتها، .. إلخ[١]. ها هنا يكمن المكون الرئيس لـ «دكتاتورية البروليتاريا».

الخاتمة المناسبة الوحيدة المستخلصة من هذا التفكر هي أن «دكتاتورية البروليتاريا» نوع من إرداف خلفي[٢] «ضروري»، ليس

---

(١) كان باديو نفسه على الطريق الصحيح عندما كتب منذ سنوات في «علم الأخلاق» (نيويورك: ٢٠٠٢): «إدراك العالم بوصفه سوقاً عالمياً، عهد غير مقسم من كتل مالية عظيمة... إلخ، كل هذا واقع لا يقبل الجدل وهو يعمل بشكل أساسي على تحليلات ماركس. المسالة هي: أين تتلائم السياسة مع كل هذا؟ أي نوع من السياسة هو حقيقة متغاير الخواص مع متطلبات الرأسمالية؟ هذا هو السؤال الحالي». مضمون هذه السطور هو، أن السياسة التحررية الأصيلة الحالية عليها إثبات نفسها خلال معارضها النشيط لعالم رأس المال عليها أن تكون «معادية لرأس المال».

(٢) Oxymoron: مجيء كلمتين متناقضتين متجاورتين.



Twitter: @ketab_n

شكل الدولة الذي فيه البروليتاريا الآن هي الطبقة الحاكمة. نحن نتعامل مع «ديكتاتورية البروليتاريا» فقط عندما تحولت الدولة نفسها جذرياً، معتمدة على أشكال جديدة من المشاركة الشعبية. لهذا السبب كان هناك أكثر من مجرد نفاق في الواقعة التي حدثت عند أعلى ذرى الستالينية، عندما تم تحطيم كل البناء الاجتماعي بحملات التطهير، أعلن الدستور الجديد نهاية الطبقة المميزة للسلطة السوفيتية (حقوق التصويت كانت قد أعيدت لأعضاء الطبقات المستبعدة سابقاً)، والأنظمة الاجتماعية كانت قد سميت «ديمقراطيات شعبية»، وهذا مؤشر أكيد عن أنها لم تكن «ديكتاتوريات البروليتاريا». لكن ثانية، كيف لنا أن نصل لمثل هذه «الدكتاتورية»؟

## ٦ ـ الرأسماليّة بقيم آسيويّة في أوربا:

أشار بيتر سلوتيرجيك[١] (بالتأكيد ليس واحداً من جانبنا، لكن أيضاً ليس أحمقاً بالكامل) إلى أنه إذا ما كان سيبنى تماثيل لشخص واحد لمئة سنة من الآن، فهو لكوان يو[٢]، القائد السنغافوري الذي اخترع وأدرك ما سمي «بالرأسمالية بقيم آسيوية». فيروس هذا الشكل المستبد من الرأسمالية بطيء لكن بالتأكيد ينتشر حول

(١) بيتر سلوتيرجيك: فيلسوف ألماني ومنظر ثقافي، أستاذ للفلسفة ونظرية الإعلام في جامعة كارلسروهي في ألمانيا.

(٢) لي كوان يو: سياسي سنغافوري.



Twitter: @ketab_n

العالم. قبل البدء بحركته الإصلاحية، زار دينج شياو بينج[1] سنغافورة ومدحها بصراحة باعتبارها نموذج لتتبعه الصين قاطبة. لهذا التطور معنى تاريخي عالمي: حتى الآن، بدت الرأسمالية متصلة بشكل معقد مع الديمقراطية، كانت هناك بالطبع، من وقت لآخر، انتكاسات إلى ديكتاتورية مباشرة لكن بعد عقد أو اثنين فرضت الديمقراطية ثانية نفسها (أتذكر حالات كوريا الجنوبية وتشيلي). الآن كُسرت الصلة بين الديمقراطية والرأسمالية.

بمواجهة الانفجار المعاصر للرأسمالية في الصين، كثيراً ما يسأل محللين متى ستدافع الديمقراطية السياسية الملازم السياسي «طبيعي» للرأسمالية عن نفسها. تحليلات أقرب سرعان ما بددت هذا الأمل، ماذا لو أن الديمقراطية الموعودة في المرحلة الثانية التي تتبع وادي دموع المستبد لم تأت أبداً؟ هذا، ربما، هو ما جد بشأن الصين اليوم: الشك بأن نسختها من الرأسمالية الاستبدادية لا تذكر بماضينا فحسب، تكرار عملية التراكم الرأسمالي في أوربا استمرت من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر، لكن إشارة للمستقبل. ماذا لو أن «مزيج فاسد من السوط الآسيوي وسوق الأسهم الأوروبية» (وصف تروتسكي للقيصرية الروسية) يثبت نفسه ليكون اقتصادياً أكثر دقة من الرأسمالية الليبرالية؟ ماذا لو أنها إشارات عن أن الديمقراطية كما نفهمها لم تعد شرطاً وقوة محفزة لتطور الاقتصاد، بل عقبة؟

---

(١) سياسي وقائد إصلاحي في جمهورية الصين الشعبية، بعد وفاة ماو قاد بلاده نحو اقتصاد السوق.



Twitter: @ketab_n

يدعي بعض اليساريين السذج بأن إرث الثورة الثقافية والماوية عموماً هو الذي عمل كقوة مضادة للرأسمالية المطلقة العنان، معيقاً تجاوزاتها الأسوأ، مبقياً على حد أدنى من التضامن الاجتماعي. ماذا لو الحالة هي المقابل بالضبط؟ ماذا لو في نوع من عدم القصد ولهذا السبب كل المكر التهكمي الأكثر وحشية للعقل، كانت الثورة الثقافية بمحوها الوحشي للتقاليد السابقة «الصدمة» التي اخترعت شروط الانفجار الرأسمالي اللاحق؟ ماذا لو أضيفت الصين إلى قائمة نعومي كلين للدول التي وضحت الكارثة الطبيعية، العسكرية أو الاجتماعية فيها الطريق نحو انفجار رأسمالي جديد؟[1]

المفارقة التاريخية الكبرى كانت أن ماو نفسه هو الذي ابتدع الشروط الأيديولوجية للنمو السريع للرأسمالية في الصين بتمزيق بناء المجتمع التقليدي. ما هو نداؤه للشعب ولا سيما للشباب منهمفي الثورة الثقافية؟ لا تنتظروا شخصاً آخر ليقول لكم ما عليكم فعله، لديكم الحق بالثورة! لذا فكروا وتحركوا بأنفسكم، دمروا رفات الثقافة، اشجبوا وهاجموا ليس فقط زعماءكم، لكن أيضاً

(١) في كتابها مذهب الصدمة، لدى كلين فصل عن الصين حددت فيها مكان الصدمة التي وضعت في الحركة النمو الرأسمالي في براهين وقمعهم العنيف، ليس في الثورة الثقافية. السخرية الرائعة لهذه الصلة هي أن الرأسمالية كانت قد قدمت للشعب الصيني كرد على متطلباتهم: «تريدون ديمقراطية؟ ها أنتم تملكون أساسها الواقعي!» بأية حال، من غير المؤكد إذا ما كانت أحداث تيانانمان صدمة عميقة لجميع أنحاء الصين.



Twitter: @ketab_n

موظفي الحكومة والحزب! اكنسوا آليات الدولة القمعية ونظموا أنفسكم في وحدات! كان نداء ماو قاسياً كانت نتيجته انفجارا لشغف عفوي من أجل إزالة الشرعية عن كل أشكال السلطة، على هذا النحو، في النهاية، كان لا بد لماو من أن يتصل بالجيش ليعيدوا بعض النظام. التناقض هو أن المعركة الأساسية للثورة الثقافية لم تكن بين أجهزة الحزب الشيوعي وأعدائه التقليديين، بل بين الجيش والحزب، من ناحية، والقوى التي دعاها ماو بنفسه لتكون على الجانب الآخر[١].

وهذا معناه أنه ليس علينا التخلي عن الديمقراطية لمصلحة التقدم الرأسمالي، لكن علينا مواجهة حدود الديمقراطية البرلمانية، المصاغة بشكل رائع من قبل نعوم تشومسكي عندما لاحظ «بأنه عندما يتغلب تهديد المشاركة الشعبية فقط يمكن تأمل أشكال الديمقراطية تلك بأمان»[٢]. هو بذلك عين المركز «المستتر»

---

(١) سئل حول مشروعه التالي، جيا زانجكي، المخرج السينمائي الذي حتى ذلك الحين كان قدر ركز على التأثير الشخصي للنمر الرأسمالي المتفجر في الصين، فأجاب: «القصة كتبت في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٧٠-١٩٧٥. مجموعتان من الشبان يناضلون للتحكم بمدينة خلال الثورة الثقافية... انا أفكر في الواقع بان الجواب على السؤال المطروح اليوم في الصين، إن العلاقة بكاملها مع النمو متجذرة عميقاً في الثورة القافية، فيما حدث في ذلك الحين». (من كتيب مترافق مع اصدار الـ BFI القرص المدمج لحياة ساكنة ص ١٦.) جيا زانجيك هنا يقدم رؤية مصقولة عن الصلة بين الثورة الثقافية والثورة الرأسمالية المتطورة.

(٢) أوهام ضرورية، نعوم تشومسكي، كامبريدج south end press ١٩٩٩ ص ٦٩.



Twitter: @ketab_n

للديمقراطية البرلمانية الذي يجعلها متعارضة مع التنظيم الذاتي السياسي المباشر للشعب.

لعب والتر ليبمان[1] ـ أيقونة الصحافة الأمريكية في القرن العشرين ـ دوراً رئيسياً في الفهم الذاتي لديمقراطية الولايات المتحدة الأمريكية. بالرغم من أن التقدم السياسي (بتأييد سياسة عادلة نحو الاتحاد السوفيتي) اقترح نظرية الإعلام الشعبي الذي كان له أثر مثبط. ابتكر مصطلح «صناعة الموافقة» التي اشتهرت فيما بعد على يد تشومسكي، بالرغم من أن ليبمان قصدها بطريقة إيجابية. في puplic opinion عام ١٩٢٢، كتب بأن «الطبقة الحاكمة» يجب أن تنهض لمواجهة التحدي، رأى العامة كما فعل أفلاطون، كوحش هائل أو قطيع محير، يتخبط في «فوضى الآراء المحلية»[2]. لذا فإن قطيع المواطنين يجب أن يحكم من قبل «طبقة مخصصة مصالحها تتجاوز المحلية» لتتصرف كآلة المعرفة التي تطوق الخلل الأولي للديمقراطية، المثال المستحيل لد «المواطن المؤهل». هذه حقيقة طريقة ديمقراطيتنا بالعمل ـ وبموافقتنا. لا يوجد غموض فيما يقوله ليبمان، إنها واقعة واضحة، الغموض هو في معرفة ذلك، نحن نستمر بلعب اللعبة. نتصرف كما لو كنا أحراراً بالاختيار، في حين لا نقبل بصمت فحسب لكن حتى متطلبين ذلك الاعتراض الغير

---

(١) والتر ليبمان ١٨٨٩-١٩٧٤: مفكر أمريكي، كاتب وصحفي، هو أول من قدم مفهوم الحرب الباردة، وقد صاغ مصطلح النمطية بمعنى التحليل النفسي.

(٢) والتر ليبمان، puplic opinionn، شارلستون: bibliolife ٢٠٠٨.



Twitter: @ketab_n

مرئي (المكتوب في الشكل ذاته من تعهدنا بال «خطاب الحر») الذي يخبرنا ما علينا القيام به والتفكير. كما لاحظ ماركس منذ زمن بعيد، السر في الشكل نفسه.

بهذا المعنى، في الديمقراطية، كل مواطن عادي هو ملك بشكل فعال، لكن ملك في ديمقراطية دستورية، ملك قرر رسمياً فقط، عمله هو التوقيع فحسب على إجراءات مقترحة من قبل الإدارة التنفيذية. لهذا المشكلة مع الشعائر الديمقراطية هي متشابهة مع المشكلة الكبرى للملكية الدستورية: كيف نحمي وقار الملك؟ كيف نبقي على ظهور ذلك الملك الذي يتخذ قرارات مؤثرة، جميعنا نعرف أن هذا ليس حقيقة؟ كان تروتسكي بذلك على حق في مقاربته الأساسية للديمقراطية البرلمانية التي لم تكن في منحها سلطة كبيرة للجموع الغير متعلمة، لكن بشكل متناقض أقصت الجموع تاركة المبادرة لجهاز سلطة الدولة (على العكس من الـ «سوفييت» الذي تحشد فيه الطبقات العاملة نفسها مباشرة وتمارس السلطة)[1]. ما نشير إليه باعتباره «أزمة الديمقراطية» لم يحدث، لذلك، عندما توقف الشعب عن الإيمان بسلطتهم، لكن، على العكس، عندما يتوقفون عن الثقة بالنخب، هؤلاء الذين من المفترض أنهم يعلمون عنهم ويقدمون الارشادات، عندما يختبرون القلق المرافق للاعتراف بأن «العرش (الحقيقي) فارغ»، القرار الآن هو حقيقة قرارهم. لهذا في «الانتخابات الحرة» هناك دائما حد أدنى

(١) انظر: الإرهاب والشيوعية، ليون تروتسكي، لندن، فيرزو للكتب، ٢٠٠٧.



Twitter: @ketab_n

من التهذيب: هؤلاء الذين في السلطة يظهرون بتهذيب بأنهم لا يتمسكون حقيقة بالسلطة، ويسألون منا التقرير بحرية إذا ما كنا نرغب بإعطائهم السلطة بطريقة تعكس أن منطق البادرة يفترض أنه مرفوض.

لصياغته بمصطلحات الإرادة: تشتمل الديمقراطية التمثيلية في فكرتها ذاتها على إقصاء الإرادة الشعبية، تحولها إلى لا يرغب ـ يرغب محولة إلى عامل يعيد تمثيل الشعب والإرادات على حسابه. أينما اتهم المرء بتقويض الديمقراطية، يجب أن تكون إجابته بتلك الفقرة من إجابة قدمها ماركس وانجلز إلى مقاربة شبيهة (إن الشيوعية تقوض العائلة، الملكية، الحرية، الخ.) في البيان الشيوعي: النظام الحاكم يقوم بنفسه بكل التقويض الضروري. بالطريقة نفسها التي عليها حرية (السوق) هي لا حرية بالنسبة إلى هؤلاء الذين يبيعون طاقة عملهم، بالطريقة نفسها إن العائلة مقوضة من قبل العائلة البرجوازية كدعارة مشروعة، الديمقراطية مقوضة من قبل الشكل البرلماني بإقصائيته المصاحبة للأغلبية الساحقة، وهذا أيضاً بالنسبة إلى لسلطة الناشئة التنفيذية المتضمنة بالمنطق المؤثر بشكل متزايد لحالة الطوارئ.

كان باديو قد اقترح التمييز بين الأنماط (أو بالأحرى المستويات) الفساد في الديمقراطية: de facto عملياً الفساد التجريبي، والفساد الذي يخص الشكل نفسه للديمقراطية مع اختزالها السياسة إلى تفاوض المصالح الخاصة. هذه الفجوة تصبح مرئية في هذه


Twitter: @ketab_n

الحالات النادرة من سياسي «ديمقراطي» شريف يقاتل الفساد التجريبي، ومع ذلك يساند الفضاء الشكلي للفساد. (هناك أيضاً الحالة المقابلة للسياسي الفاسد تجريبياً الذي يتصرف على حساب ديكتاتورية الفضيلة.) بمصطلحات التمييز البنياميني بين العنف المعين والمقوم، يمكن القول بأننا نتعامل مع الفرق بين «الفساد المعين (الحالات التجريبية لخرق القانون)» والفساد «المقوم» للشكل الديمقراطي للحكومة نفسها:

فيما إذا الديمقراطية تعني التمثيل، بادئ ذي بدء تمثيل النظام العام الذي يقود أشكاله. بمعنى آخر: الديمقراطية الانتخابية هي فقط تمثيلية بقدر ما هي أولا تمثيلية متلازمة مع الرأسمالية، أو مما أعيدت تسميته اليوم ب» اقتصاد السوق». هذا هو الفساد الأساسي..[1].

على المرء أخذ هذه الأسطر بمعنى دقيق متسام: عند المستوى التجريبي، «تمثل» الديمقراطية الليبرالية التعددية الأحزاب ـ المرايا، السجلات، الإجراءات ـ التبدد الكمي للآراء المختلفة، ما يظنه الشعب بشأن برامج مقترحة للأحزاب وحول مرشحيهم...إلخ، بأية حال، قبل هذا المستوى التجريبي، وبفهم أكثر «تفوقاً» وجذرية بكثير، الديمقراطية الليبرالية التعددية الأحزاب «تمثل» رؤية محددة للمجتمع، السياسة، ودور الأفراد من خلاله. الديمقراطية الليبرالية «تمثل» رؤية دقيقة جداً للحياة الاجتماعية التي فيها السياسة منظمة

(١) معنى ساركوزي، باديو، ص ٩١.



Twitter: @ketab_n

على شكل أحزاب تتنافس عبر الانتخابات لتمارس التحكم بأجهزة الدولة التنفيذية والتشريعية، وهكذا دواليك. على المرء أن يكون دائماً واعيا إلى أن هذا «الإطار الفائق» هو ليس محايداً أبداً، إنه يمنح امتيازاً بقيم محددة وممارسات. عدم الحيادية هذه تصبح واضحة في لحظات الأزمة أو اللامبالاة، أو عندما نختبر عدم قدرة النظام الديمقراطي على التعبير عما يريده الناس أو يفكرون به، عدم القدرة المشار إليها بظاهرة شاذة كما في انتخابات بريطانيا عام ٢٠٠٥ بالرغم من عدم الشعبية المتنامية لطوني بلير (الذي كان يصوت له بانتظام على أنه الشخص المكروه في بريطانيا)، كان من المستحيل لهذا السخط إيجاد تعبير سياسي مؤثر. كان هناك شيء خاطئ جداً بشكل واضح، لم يكن أن الشعب «لا يعرفون ما يرغبون» لكن الاستقالة التهكمية منعتهم من التحرك بناء عليها، لذا فان النتيجة كانت هوة غريبة بين ما فكر الشعب به والطريقة التي تصرفوا بها (التصويت).

كان أفلاطون في نقده للديمقراطية واعياً لهذا الشكل الثاني من الفساد، ونقده أيضاً قابل للإدراك بوضوح في امتياز اليعاقبة بالفضيلة: في الديمقراطية، بمعنى التمثيل والتفاوض بين الأغلبية والمصالح الخاصة، لا يوجد مكان للفضيلة. لهذا في الثورة البروليتارية، كان على الديمقراطية أن تستبدل بدكتاتورية البروليتاريا.

ليس هناك سبب لاحتقار الانتخابات الديمقراطية، الفكرة فقط


Twitter: @ketab_n

هي الإصرار على أنها ليست في حد ذاتها perse إشارة حقيقية، على العكس، كقاعدة، تنحو لعكس الرأي السائد doxa المقوض بالأيدلوجية المهيمنة. دعنا نأخذ مثالا بالتأكيد ليس إشكالياً: فرنسا في العام ١٩٤٠. حتى جاك دولوز الثاني في المسؤولية عن الحزب الشيوعي الفرنسي، اعترف في محادثة خاصة أنه إذا عقدت عند تلك المرحلة الانتخابات الحرة في فرنسا، فإن المارشال بيتان سيفوز ب ٩٠٪ من الأصوات. عندما رفض ديغول في تصرفه التاريخي، المعاهدة مع ألمانيا وأدعى أنه هو فقط وليس نظام فيشي، من تكلم في مصلحة فرنسا الحقيقية (ليس فقط في مصلحة الأغلبية الساحقة من الفرنسيين!)، ما كان يريد قوله كان حقيقة عميقة حتى إذا ما لم يكن كلامه «بشكل ديمقراطي» فقط من دون تشريع، لكن كان مقابلاً بشكل واضح لرأي أغلبية الشعب الفرنسي. يمكن أن يكون هناك انتخابات ديمقراطية تشرع حدث الانتخابات الحقيقة التي «تنهض» فيها، ضد قصور الأغلبية الذاتي التهكمي الشكاك لحظياً وتصوت ضد هيمنة الرأي الأيديولوجي. بأية حال، الطبيعة الشديدة الاستثنائية لمثل هذا الحدث يثبت أن الانتخابات على هذا النحو ليست وسيطاً للحقيقة.

هذه الإمكانية الأصيلة للديمقراطية التي تتراجع الآن أمام صعود الرأسمالية الاستبدادية، التي تتقدم مجساتها أقرب فأقرب نحو الغرب. في كل بلد، بالتوافق مع «قيمه» الخاصة: رأسمالية بوتين مع «القيم الروسية» (الاستعراض الوحشي للسلطة)، رأسمالية


Twitter: @ketab_n

برلسكوني مع «القيم الإيطالية» (التموضع الهزلي). كل من حكم بوتين وبرلسكوني في الديمقراطيات التي تختزل أكثر فأكثر إلى قشور شعائرية فارغة، وبالرغم من الحالة الاقتصادية المتدهورة يستمتع كلاهما بسرعة بمستوى عالٍ من الدعم الشعبي (أكثر من ٦٠٪ في الانتخابات). لا عجب أنهما صديقان شخصيان: كلاهما لديهما الميل نحو التفجرات المخزية «التلقائية» العرضية (التي على الأقل في حالة بوتين، محضرة جيداً مسبقا فهي تتلاءم مع «الشخصية الوطنية» الروسية). من وقت لآخر يحلو لبوتين استعمال كلمة قذرة شائعة أو يقوم بتهديد فاحش، منذ سنوات عندما سأله صحفي غربي سؤالاً مزعجاً حول الشيشان، أجابه بوتين بحدة عما إذا لم يكن الصحفي قد ختن بعد فهو مدعو بشكل ودي إلى موسكو، حيث لديهم جراحون ممتازون سيقومون بالعمل باستمتاع...

## ٧ ـ من الرّبح إلى الأجر:

من أين هذا النهوض من السلطة المباشرة، اللا ديمقراطية؟ فوق وخلف أي عوامل ثقافية مشتركة؟ هناك ضرورة داخلية لهذه النهضة في منطق الرأسمالية المعاصرة نفسه. مفاد القول، المشكلة الرئيسية التي نواجهها اليوم هي كيف تؤثر سيطرة (أو حتى الدور المهيمن) «العمل الفكري» ضمن الرأسمالية المتأخرة على المخطط الأساسي لماركس لفصل العمل عن شروطه الموضوعية، والثورة بوصفها تشخيصاً هي إعادة اعتماد هذه الشروط. في فضاءات مثل الشبكة


Twitter: @ketab_n

العالمية، والإنتاج، والصرافة والاستهلاك هي متشابكة بشكل معقد، حتى أنها مميزة بالفعل: منتجي اتصل في الحال بآخر وتبدد فيه. مفهوم ماركس الكلاسيكي عن فيتيشية السلع التي تفترض فيها «العلاقات بين الناس» شكل «علاقات العمل» «العلاقات بين الناس» ليست مخفية كثيرا تحت غشاء الموضوعية، لكنها المادة نفسها لاستغلالنا اليومي[1] لذا فلا يمكننا بعد الآن الكلام عن «الاشباع» بالمعنى الكلاسيكي بعيداً عن كونه غير مرئي، العلاقات الاجتماعية في ميوعتها الشديدة هي مباشرة هدف التسويق والصرافة: في «الرأسمالية الثقافية» لم يعد المرء يبيع ويشتري الأشياء التي تجلب خبرات عاطفية أو ثقافية، يبيع المرء مباشرة (ويشتري) هذه الخبرات.

في حين أن على المرء الاعتراف بأن نيجري قبض هنا على السؤال الرئيس، تبدو إجابته ناقصة. فكرته الابتدائية هي أطروحة ماركس في grundrisse مخطوطاته الاقتصادية عن التحول الراديكالي للدولة لـ «رأس المال الثابت»:

يشير نمو رأس المال الثابت إلى أية درجة أصبحت المعرفة الاجتماعية العامة قوة مباشرة للإنتاج، وإلى أية درجة أتت شروط عملية الحياة الاجتماعية نفسها تحت تحكم الفكر العام وتم تحويلها بالتوافق معه. إلى أية درجة سلطات الإنتاج الاجتماعي التي

---

(١) نينا باور، «dissing»، الفلسفة الراديكالية، ١٥٤، ص ٥٥.



Twitter: @ketab_n

أنتجت، ليست فقط في شكل المعرفة، لكن أيضاً كأجهزة حالية للممارسة الاجتماعية، لعملية الحياة الواقعية[١].

مع نمو المعرفة الاجتماعية العامة، السلطة الإنتاجية للعمل هي نفسها السلطة الإنتاجية الأعظم. من وجهة نظر عملية الإنتاج المباشرة يمكنها أن تكون منظورة كإنتاج رأس المال الثابت، الذي جوهره الإنسان نفسه»[٢]. وثانية، طالما أن رأس المال ينظم استغلاله بالظهور «كرأس مال ثابت» ضد العمل الحي، اللحظة التي يكون فيها المكون الرئيسي لرأس المال الثابت هو «الانسان نفسه» «المعرفة الاجتماعية العامة» المؤسسة الاجتماعية نفسها للاستغلال الرأسمالي مقوضة، ودور رأس المال يصبح طفيلي صرف. وفقا لوجهة نظر نيجري، مع وسائل الإعلام التفاعلية العالمية الحالية، القدرة الإبداعية لم تعد فردية بل جُعلت جماعية على الفور، جزء من «المشاعات» لذا أية محاولة لخصخصتها عبر حق النشر تصبح إشكالية أكثر فأكثر حرفياً، «الملكية سرقة» هنا فماذا بشأن شركة مثل مايكروسوفت التي تفعل هذا بالضبط، تنظيم واستغلال الصفات المميزة الإدراكية الإبداعية؟ المهمة الوحيدة الباقية تبدو تخيل كيف سيزيل العمال المعرفيون الرؤساء لأن التحكم الصناعي على العمل المعرفي تم تجاوزه depasse

---

(١) grundrisse، كارل ماركس، ترجمة وتقديم: لمارتن نيكولاوس، هارموندسورث: بنجوين ١٩٧٣، ص ٧٠٦.

(٢) المرجع السابق.



Twitter: @ketab_n

بالكامل[1]. ما تشير إليه حركات اجتماعية جديدة أن «عهد الأجر قد انتهى، وأننا عبرنا من المواجهة بين العمل ورأس المال المتعلق بالأجور إلى المواجهة بين التعددية والدولة المتعلقة بدخل المواطن»[2]. هناك تقيم السمة الأساسية لـ «الانتقال الثوري الاجتماعي الحالي»: «يجب على المرء أن يجعل رأس المال يعترف بثقل الصالح العام وأهميته، وإذا كان رأس المال ليس جاهزاً لفعل ذلك، فعلى المرء إجباره»[3]. لاحظ صياغة نيجري الدقيقة: ليس إلغاء رأس المال، لكن إرغامه على إدراك الصالح العام، بمعنى آخر، يبقى في الرأسمالية إذا ما كان هناك فكرة طوباوية، هذه بالتأكيد واحدة. ها هنا كيف يصف نيجري قرب الرأسمالية المعاصرة السياسية الحيوية من التأكيد المباشر على إنتاجية الوفرة:

الوصف هو وصف لتبادل السلع، وشبكات المعلومات، والحركات المستمرة، والبداوة الجذرية للعمل، والاستغلال الشرس لهذه الديناميات... لكن أيضاً للزيادة الثابتة والتي لا تنضب، وللسلطة السياسية الحيوية للتعددية وزيادتها بالنظر إلى القدرة التحكمية البنيوية للمؤسسات المهيمنة. كل الطاقات المتوفرة موضوعة في العمل، المجتمع يوضع في العمل... من خلال هذا

(١) وداعاً سيد اشتراكية، طوني نيجري، روما: feltrenelli ٢٠٠٦، ص ٢٣٤.
(٢) المرجع السابق ص٢٠٤.
(٣) المرجع السابق، ص ٢٣٥.


Twitter: @ketab_n

الاستغلال الكلي والأمر بالعمل تكمن حرية لازمة متعذرة الإنقاص للتحكم الذي يحاول إخضاعها. حتى بالرغم من أن الحرية يمكن أن تعمل ضد نفسها، ... المجال يبقى مفتوحاً في هذه الازدواجية: المعاناة غالباً إنتاجية لكن ليست ثورية مطلقاً، الثوري هو الزيادة والفائض والسلطة[1].

ما نجده هنا هو مصفوفة ما بعد هيجيلية معيارية عن التدفق الإنتاجي الذي هو دائماً في ازدياد بالنظر إلى المجموع البنيوي الذي يحاول إخضاعه والتحكم به... لكن ماذا لو، في تبدل المنظر، ندرك الشبكة الرأسمالية نفسها كزيادة حقيقية على تدفق التعددية الإنتاجية؟ ماذا لو، في حين أن الإنتاج المعاصر للتعددية ينتج مباشرة حياة، يستمر بإنتاج زيادة (التي هي حتى زائدة عن الحاجة عمليا)، زيادة رأس المال؟ لماذا العلاقات المنتجة في الحال لا تزال بحاجة إلى دور وسيط من العلاقات الرأسمالية؟ ماذا لو أن اللغز الحقيقي هو ما يجعل الحركة الجوالة الجزيئية المستمرة تحتاج إلى بنية «طاحنة» طفيلية تظهر «بشكل خادع» كعقبة لإنتاجيتها المطلقة العنان؟ لماذا في اللحظة التي نبطل فيها هذه العقبة/الزيادة، نخسر التدفق المنتج المقيد بالزيادة الطفيلية؟ وهذا يعني أيضاً بأنه علينا قلب موضوعة الفيتيشية، عن «العلاقات بين الناس التي تظهر كعلاقات بين الأشياء»: ماذا لو «انتاج الحياة

---

(١) طوني نيجري، عن ريم كولهاس، الفلسفة الراديكالية ١٥٤، ص ٤٩.



Twitter: @ketab_n

«المباشر المحتفى به من قبل هاردت ونيجري هو شفاف زوراً؟ ماذا لو أن العلاقات الغير مرئية بين الأشياء الغير أساسية لرأس المال فيه تبدو كعلاقات مباشرة بين الناس؟

هنا، أكثر من أي وقت آخر، من الحاسم تذكر عبرة الجدل الماركسي عن تكريس الفيتيشية fetishization: «تشيئ» العلاقات بين الناس (واقعة أنهم يحملون شكلا خادعا من العلاقات بين الأشياء) هو دائماً مضاعف بعملية مقابلة ظاهرياً، بتحليلات نفسية مشخصة خاطئة لما هي عمليات اجتماعية موضوعية بشكل مؤثر. في الثلاثينيات جذب الجيل الأول لمنظري مدرسة فرانكفورت الانتباه إلى أنه في اللحظة ذاتها التي تبدأ فيها علاقات السوق العالمية بممارسة هيمنتها الكاملة، جاعلة من نجاح المنتج الفرد أو فشله يعتمد على دورات السوق وتتجاوز كليا تحكمه، مفهوم «العمل العبقري» الكاريزمي(المعتمد على سحر الشخصية) المعاد تأكيده نفسه في «الأيديولوجية الرأسمالية التلقائية»، ناسبة نجاح أو فشل رجل الأعمال إلى بعض من (لا أعرف ماذا) je ne sais quoi غامضة يملكها. أليس الشيء نفسه ينطبق بدرجة أكبر اليوم، كتجريد علاقات السوق التي تحكم حياتنا مدفوعة إلى حدها الأقصى؟ تفيض المكتبات بأدلة نفسية تنصحنا حول كيفية النجاح، كيف نبز شريكنا أو منافسنا، باختصار، معاملة النجاح ككائن يعتمد على «سلوك» مناسب. لذا فالمرء مغرى بقلب صيغة ماركس رأساً على عقب: في ظل الرأسمالية المعاصرة تميل علاقات السوق


Twitter: @ketab_n

الموضوعية بين الأشياء لافتراض الشكل المزيف الشخصي «العلاقات بين الناس». ويبدو أن هاردت ونيجري وقعا في هذا الفخ: ما يحتفون به بوصفه منتج الحياة المباشر هو وهم بنيوي لهذا النمط.

قبل أن نستسلم للشكوى من الأثر «المنفر» لواقعة أن «العلاقات بين الأشخاص» استبدلت «بالعلاقات بين الأشياء» علينا مع ذلك أن نبقي في بالنا الأثر المقابل المحرر: استبدال الفيتيشية «بالعلاقات بين الأشياء» عدم فيتيشية «العلاقات بين الأشخاص» بالسماح لهم باكتساب حرية «شكلية» وحكماً ذاتياً. في حين، في اقتصاد السوق، أبقى عملياً de facto تابعاً، هذه التبعية هي مع ذلك تفاعل «متحضر» في شكل تبادل السوق «الحر» بيني وبين أشخاص آخرين بدلا مما في شكل العبودية المباشرة أو الإكراه الجسدي. من السهل السخرية من آين راند، لكن في «ترتيلة المال» من كتابها الأطلس متململا بذار الحقيقة:

إلى أن وما لم تكتشف بأن المال هو أساس كل نفع، فأنت تطلب دمارك الشخصي. عندما يكف المال عن كونه الوسائل التي يتعامل الانسان من خلالها مع الآخر، عندها يصبح الانسان أداة للآخرين. الدم والسياط والأسلحة أو الدولارات. اتخذ خيارك ـ لا يوجد سواه[1].

(١) الأطلس متململاً، آين راند لندن: بنجوين للكتب، ٢٠٠٧، ص ٨٧١.



Twitter: @ketab_n

أليست صيغة ماركس بخصوص أن اقتصاد السلع تفترض» العلاقات بين الناس مظهر العلاقات بين الأشياء» تقول شيئا مشابهاً؟ في اقتصاد السوق العلاقات بين الناس يمكن أن تظهر كعلاقات الحرية والمساواة المنظمة بشكل تبادلي: الهيمنة لم تعد تتفاعل مباشرة أاو مرئية على هذا النحو. الإشكالي هو مسلمة راند التحتية: عن أن الخيار الوحيد هو بين العلاقات المباشرة والغير مباشرة للهيمنة والاستغلال.

لذا فماذا بشأن النقد المعياري للحرية الشكلية، تحديدا التي بطريقة أسوأ من العبودية، طالما أن السابقة قناع يضلل المرء للظن بأنه حر؟ الإجابة على هذه الفكرة النقدية مقدمة بشعار هربرت ماركوس القديم «الحرية هي شرط التحرر»: رغبة في طلب «الحرية الفعلية» علىَّ أن أكون قد اختبرت بالفعل نفسي كحر بشكل أساسي وجوهري، فقط على هذا النحو يمكنني أن أختبر عبوديتي الفعلية كفساد لشرطي الإنساني. رغبة في اختبار هذا التضاد بين حريتي وواقعية عبوديتي، علي أن أكون مدركاً كحر شكلياً أن طلب حريتي الفعلية يمكن أن ينشأ فقط من حريتي «الشكلية». كما في تطور الرأسمالية، التصنيف الشكلي للعملية الانتاجية في ظل رأس المال تسبق تصنيفه المادي، الحرية الشكلية تسبق الحرية الفعلية، مخترعة شروط الأخيرة. قوة التجريد نفسها التي تذوب حياة العوالم العضوية هي في الوقت نفسه مصدر السياسة التحررية. العواقب الفلسفية لهذه الحالة الواقعية للتجريد حاسمة: إنها ترغمنا


Twitter: @ketab_n

على رفض السياق التأريخي والنسبوي لنماذج مختلفة من الموضوعية، وتأكيد الموضوع الديكارتي «المجرد» (كوجيتو) باعتباره شيء ما اليوم يتلف من خلال كل الأشكال المختلفة للتجربة الذاتية الثقافية، لا يهم إلى أي حد ندرك أنفسنا ككائنات مضمنة في ثقافة بعينها، عندما نشارك في الرأسمالية العالمية، هذه الثقافة دائما بالفعل متبدلة، تعمل بشكل مؤثر كواحدة مخصصة وتمثل «طريقة عيش» الذاتية الديكارتية المجردة.

كيف نبلغ هذه المرحلة الجديدة من عهد التجريد؟ ركزت احتجاجات عام ١٩٦٨ نضالاتها ضد (ما أدرك أنه) الأعمدة الثلاثة للرأسمالية: المصنع، والمدرسة، والعائلة. كل مجال كان بعد ذلك مذعناً للتحول الما بعد صناعي: استعين بمصادر خارجية في عمل المصنع بشكل متزايد أو في عالم متطور على الأقل، أعيد تنظيمه على قواعد العمل الجماعي التفاعلي اللا تراتبي ما بعد فوردي، استبدل التعليم المخصخص المرن شيئاً فشيئاً بالتعليم العام العالمي، أشكال متعددة من ترتيبات جنسية متنوعة استبدلت العائلة التقليدية[١]. اليسار خاسر في لحظة الانتصار ذاتها: العدو الحالي هزم، لكن كان مستبدلا بشكل جديد من هيمنة رأسمالية أكثر مباشرة. في رأسمالية «ما بعد الحداثة»، غزا السوق فضاءات جديدة تُعد إلى الآن المجال الممتاز للدولة، من التعليم إلى السجون

(١) انظر: ثلاثة دروس عن المجتمع المابعد صناعي، دانيل كوهين، باريس، إصدارات du seuil ٢٠٠٦.



Twitter: @ketab_n

والقانون والنظام. عندما يحتفى بالعمل غير المادي (التعليم، العلاج، الخ.) بوصفه نوعاً من العمل الذي ينتج مباشرة علاقات اجتماعية، فعلى المرء ألا ينسى ما يعني هذا ضمن اقتصاد السلع: المجالات الجديدة المستبعدة حتى الآن من السوق تم تسليعها الآن. عندما نكون في مشكلة، لم نعد نتحدث إلى صديق لكن ندفع لطبيب نفسي أو مستشار ليعتني بالمشكلة، بشكل متزايد لم يعد الأهل يهتمون بالأطفال لكن يدفع لرياض الاطفال أو المربيات. نحن لذلك في وسط عملية جديدة من خصخصة المجتمع من تأسيس لمضمنات جديدة.

لإدراك هذه الأشكال الجديدة من الخصخصة، نحتاج لتحويل جهاز ماركس التصوري نقدياً؛ لأنه تجاهل البعد الاجتماعي للفكر العام، فشل ماركس في تصور إمكانية خصخصة «الفكر العام» نفسه، وهذا ما يكمن في مركز النضال على «الملكية الفكرية». كان نيجري محقاً في هذه الفكرة: ضمن هذا الإطار الاستغلال في المفهوم الماركسي لم يعد ممكناً، لذا عليه أن يكون مفروضاً أكثر فأكثر بإجراءات شرعية مباشرة بوسائل غير اقتصادية. يأخذ الاستغلال اليوم بشكل متزايد شكل الأجر: كما صاغه كارلو فيرشيلوني، وصفت الرأسمالية ما بعد صناعية بـ الـ «تصبح أجر الربح»[1]. ولهذا السلطة المباشرة مطلوبة رغبة في فرض شروط

(١) See capitalism cognitive, edited by carlo vercellone, rome: manifestolibri 2006.



Twitter: @ketab_n

شرعية «اعتباطية» لانتزاع أجر، الشروط التي لم تعد تولدها السوق تلقائياً. ربما يكمن في ذلك التناقض الأساسي لرأسمالية «ما بعد الحداثة» الحالية، في حين أن منطقها غير تنظيمي «anti-statal» رحال، اللا اقليمي، يشير ميله الأساسي «ليصبح أجر الربح» إلى تقوية دور الدولة التي وظيفتها التنظيمية كلية الوجود دائماً. توجد اللا إقليمية الفعالة وتكمن في التدخلات الشمولية المتزايدة للدولة وقانونها وأجهزة أخرى. ما يمكن للمرء أن يراه في أفق تاريخنا مجتمعاً فيه التحررية الشخصية والهيدونية موجودة معا (وتستندان) على شبكة معقدة من آليات الدولة التنظيمية. بعيدا عن الاختفاء الدولة اليوم تستجمع قوتها.

لصياغته بطريقة أخرى: بسبب الدور الحاسم «للفكر العام» (المعرفة والتعاون الاجتماعي) في خلق الثروة، أشكال الثروة هي أكثر فأكثر «خارج كل حد نحو وقت عمل مباشر يصرف على إنتاجهم»، لا تبدو النتيجة كما توقعها ماركس، الحل الذاتي للرأسمالية، لكن بالأحرى التحول النسبي المتدرج للربح المولد من استغلال طاقة العمل إلى أجر مناسب بخصخصة هذا «الفكر العام «نفسه. خذ حالة بيل جيتس: كيف أصبح أغنى رجل في العالم؟ ثروته ليس لها علاقة بكلفة إنتاج مبيعات سلع مايكروسوفت (يمكن للمرء أن يحاجج بأن مايكروسوفت تدفع لعمالها المثقفين أجوراً عالية نسبياً). إنها ليست نتيجة إنتاجه لبرامج جيدة بأسعار أرخص من منافسيه، أو من مستويات عالية من


Twitter: @ketab_n

«استغلال» عماله المستأجرين. إذا، كانت مايكروسوفت ستفلس منذ زمن، سيختار الناس برامج مثل لينوكس المجانية وهي وفقاً لمتخصصين أفضل من برامج مايكروسوفت. لم إذن لا تزال الملايين تشتري مايكروسوفت؟ لأن مايكروسوفت نجحت في فرض نفسها بوصفها معياراً عالمياً تقريباً، تحتكر افتراضياً المجال في نوع من تضمين مباشر للفكر العام. جيتس يصبح أغنى رجل على الأرض خلال عقدين من الزمن بملائمة الأجر المتلقى من الملايين المتاحة من العمال الفكريين للمشاركة في ذلك الشكل المعين من «الفكر العام «الذي خصخص بنجاح ولا يزال يتحكم. إن العمال الفكريين اليوم لم يعودوا منفصلين عن الشروط الموضوعية لعملهم (إنهم يملكون كمبيوترهم، الخ) والذي هو وصف ماركس للعزل الرأسمالي؟ سطحياً، قد يميل المرء إلى الإجابة بنعم، لكن بشكل جوهري أكثر يبقون مبعدين من الحقل الاجتماعي لعملهم، من «الفكر العام» بسبب أن الاخير مسوى برأس المال الخاص.

والأمر نفسه يسري على المصادر الطبيعية: استغلالها واحد من المصادر العظمى للأجر اليوم الملحوظ بالنضال الدائم من أجل من يتلقى هذا الأجر، شعوب العالم الثالث أو التعاونيات الغربية. السخرية الكبرى هي أنه رغبة بشرح الفرق بين طاقة العمل (التي عندما توضع في العمل، تنتج قيمة مضافة على قيمتها) وبضائع أخرى (القيمة المستهلكة في استعمالهم لذا لا تشترك في استغلال)


Twitter: @ketab_n

يشير ماركس إلى النفط كسلعة «عادية»، السلعة نفسها هي اليوم مصدر لـ«أرباح» غير عادية. هنا أيضاً الربط ليس له معنى بين ارتفاع وهبوط أسعار النفط لرفع أو هبوط تكاليف الإنتاج أو سعر العمل المستغل، تكاليف الإنتاج تافهة، السعر الذي ندفعه مقابل النفط هو أجر ندفعه للمالكين والمتحكمين بهذا المصدر الطبيعي بسبب ندرته ومحدوديته.

إنه كما لو أن المكونات الثلاثة لعملية الإنتاج ـ التخطيط الفكري والتسويق، والإنتاج المادي، توفير المصادر المادية ـ حكمت بشكل متصاعد، منبثقة كفضاءات منفصلة في عواقبها الاجتماعية، يبدو هذا الانفصال في مظهر «الطبقات الأساسية الثلاثة» في المجتمعات المتطورة الحالية، التي هي ليست طبقات بشكل دقيق لكن ثلاثة كسور من الطبقة العاملة: العمال الفكريين، الدليل القديم الطبقة العاملة، والمنبوذين (العاطلين، الذين يعيشون في الأحياء الفقيرة وفجوات أخرى من فضاء عام). الطبقة العاملة هي طبقة في ثلاثة، كل كسر «بطريقته في الحياة» وأيديولوجيته: الهيدونية المتنورة والتعددية الثقافية الليبرالية للطبقة المفكرة، التطرفية الشعبوية للطبقة العاملة القديمة، أكثر تطرفاً وأشكال فريدة من الكسر المنبوذ. في الهيجيلية، واضح أن هذه الثلاثية هي ثلاثية (العمال المفكرين) العالميين، (العمال اليدويين) الخاص، و(منبوذين) فرديين. نتيجة هذه العملية هو تفكك تدرجي لحياة اجتماعية مناسبة، من الفضاء العام الذي فيه كل الكسور الثلاثة


Twitter: @ketab_n

يمكن أن تلتقي، و«الهوية» السياسية في كل أشكالها مزود لهذه الخسارة. وهي تكتسب شكلاً خاصاً ضمن كل كسر: الهوية السياسية المتعددة الثقافات من بين الطبقة المفكرة، الشعوبية الارتدادية التطرفية ضمن الطبقة العاملة، التجمعات الشبه غير شرعية (عصابات إجرامية، طوائف دينية، الخ.) ضمن المنبوذين. ما يشتركون به جميعهم هو الاستعانة بالهوية المحددة بوصفها بديلاً للفضاء العام العالمي المفقود.

لهذا فإن البروليتاريا مقسمة إلى ثلاثة، كل جزء يحرض ضد الآخرين: العمال الفكريين كلهم ثقافة مجحفة ضد العمال ذوي» الرقاب الحمراء»[1]، العمال الذين يعرضون كراهية شعبية للمفكرين والمنبوذين، المنبوذون الذين يعادون المجتمع على هذا النحو. النداء القديم «يا عمال العالم اتحدوا!» هو أكثر صلة اليوم: في شروط جديدة مما «بعد صناعية» تعد الرأسمالية وحدة الكسور الثلاثة للطبقة العاملة وانتصارهم. هذه الوحدة، بأية حال، لن تكون مضمونة من قبل أي شخصية من وصف «الآخر الكبير» وصفها باعتبارها «الميل الموضوعي» للعملية التاريخية نفسها، الحالة مفتوحة كلياً ومقسمة بين نسختين من الهيجيلية.

---

(١) يشار بهذا التعبير إلى البيض من الريفيين الفقراء من سكان جنوب الولايات المتحدة الأمريكية.



Twitter: @ketab_n

## ٨ ـ نحن من ننتظرهم:

المستقبل سيكون هيجيليا ـ وأكثر راديكالية مما يظن فوكوياما. البديل الحقيقي الوحيد الذي ينتظرنا ـ البديل بين الاشتراكية والشيوعية ـ هو البديل بين هيجيلين. لاحظنا كيف أن رؤية هيجل «المحافظة» تشير بغير تعقل نحو «الرأسمالية بقيم آسيوية»: المجتمع المدني الرأسمالي المنظم في أقاليم وموضوع تحت المراقبة من قبل دولة شمولية قوية بموظفين «حكوميين إداريين» وقيم تقليدية، تقترب اليابان «المعاصرة» من هذا النموذج. الخيار إما هذا الهيجل أو هيجل هاييتي. يبدو كما لو أن الانزلاق في الهيجيلية القديمة والجديدة يحدث لإتمام تشريعها ثانية.

لكن ما هي حظوظ الهيجيلية اليسارية اليوم؟ هل يمكننا أن نعتمد على انفجارات طوباوية لحظية ـ مثل كومونة باريس، مستوطنة الكوندوس في البرازيل، أو كومونة شنغهاي ـ تلاشت بسبب الإخماد الخارجي الوحشي أو الضعف الداخلي، قدر لها أن تبقى ليس أكثر من انحرافات موجزة من المسيرة الاساسية للتاريخ؟ هل الشيوعية إذن مدانة بإبقاء الفكرة الطوباوية لعالم ممكن آخر، الفكرة التي تدرك نهاياتها بالضرورة في فشل أو ارهاب ذاتي التدمير؟ أو علينا أن نبقى مؤمنين بالمشروع البنياميني عن الثورة النهائية التي سوف تعوض من خلال تكرار كل هزائم الماضي، بيوم من الحساب الكامل؟ علينا أن نغير المجال بالكامل مدركين


Twitter: @ketab_n

أن البدائل مقترحة ببساطة لتمثل وجهين لعملة واحدة هذا هو مفهوم التعويض الغائي للتاريخ؟

ربما يكمن الحل في الأبوكالبتية الأخروية التي تشتمل على خيال رمزية الحساب الأخير الذي تستقر فيه كل حسابات الماضي، للإشارة إلى مجاز آخر من مجازات بنيامين، المهمة هي إيقاف قطار التاريخ «فحسب» الذي يتجه نحو طريقه الخاص، نحو المنحدر. (الشيوعية ليست ضوءاً في آخر النفق، هذه السعادة النهائية القادمة من كفاح طويل وصعب، الضوء في نهاية النفق هو بالأحرى من قطار آخر يقترب منا بأقصى سرعة.) هذا ما سيكون عليه التصرف السياسي الملائم اليوم: ليس كثيراً لتحرير حركة جديدة، في وقف حركة الحاضر السائد. سيعني تصرف «العنف المقدس» عندئذٍ جذب حبل الطوارئ على قطار التقدم التاريخي. بمعنى آخر على المرء أن يتعلم قبول أنه لا يوجد هناك آخر كبير أو كما وصفه باديو باختصار مفيد:

التعريف الابسط لله والدين يكمن في فكرة أن الحقيقة والمعنى هما واحد وشيء نفسه. موت الله هو نهاية الفكرة التي تفترض الحقيقة والمعنى كشيء واحد. وسأضيف بأن موت الشيوعية أيضاً يدل على الفصل ما بين المعنى والحقيقة طالما أن التاريخ معني. «معنى التاريخ» له معنيان: من ناحية «توجيه» التاريخ يمضي إلى مكان ما، ثم يكون للتاريخ معنى، مثل تاريخ التحرر الإنساني عن


Twitter: @ketab_n

طريق الطبقة العاملة، العصر الكامل للشيوعية كان في فترة كثر فيها الاتهام بأنه كان من الممكن اتخاذ القرارات السياسية الصحيحة، كنا في تلك اللحظة مساقين بمعنى التاريخ... ثم موت الشيوعية أصبح موت الله الثاني ولكن في أرض التاريخ[1].

لهذا علينا أن نهجر بشدة التحيز لفكرة أن الزمن الخطي للتطور «في صالحنا»، أن التاريخ «يعمل من أجلنا» مثل الخلد العجوز الشهير يحفر تحت الأرض قائماً بعمل خداع العقل. علينا إذن النظر إلى التاريخ على أنه عملية مفتوحة معروضة وعلينا الخيار؟ من خلال هذا المنطق، يحدد التاريخ فقط بالبدائل التي نواجهها، مصطلحات الخيار، لكن ليس الخيار نفسه. عند كل لحظة من الزمن، هناك إمكانيات متعددة تنتظر إدراكها، عندما تتحقق واحدة منها، يتم حذف الأخريات. الحالة الفائقة لمثل هذا الدور للزمن التاريخي هو إله لايبنتز[2] الذي خلق أفضل عالم ممكن: قبل الخلق، كان في باله كامل الدرع للعوالم الممكنة، وقراره المتضمن في اختيار الأفضل من بين هذه الخيارات. هنا الامكانية تسبق الخيار: الخيار هو الخيار من ضمن إمكانيات.

---

(١) «محادثة مع الان باديو»، الحبر اللاكاني ٢٣، ٢٠٠٤، ص ١٠٠ ١.

(٢) نسبة إلى غوتفريد فيلهلم لايبنتز (١٦٤٦-١٧١٦) واحد من كبار المفكرين في القرنين السابع عشر والثامن عشر، قدم مساهمات عميقة ومهمة في مجالات الميتافيزيقيا، نظرية المعرفة، والمنطق، والفلسفة من الدين، وكذلك الرياضيات، والفيزياء، والجيولوجيا، والفقه، والتاريخ.



Twitter: @ketab_n

حتى هذا المفهوم عن التاريخ «المفتوح»، بأية حال، ناقص. ما هو مستحيل ضمن هذا الأفق من التطور التاريخي الخطي هو مفهوم الخيار أو التصرف الذي يفتح رجعياً إمكانيته: فكرة أن ظهور رجعية جديدة تغير الماضي جذرياً (ليس الماضي الفعلي بالطبع، نحن لسنا في خيال علمي)، لكن إمكانيات الماضي (أو لصياغة الفكرة في مصطلحات أكثر شكلية، قيمة المقترحات الشكلية حول الماضي). لقد أشرت في مكان آخر إلى ادعاء جان بيير دوبوي بأنه إذا ما واجهنا بشكل كافٍ تهديد كارثة (اجتماعية أو بيئية)، نحتاج لكسر هذا المفهوم «التاريخي» عن المؤقتية: علينا تقديم مفهوم جديد للزمن. دعا دوبوي هذا الزمن «زمن المشروع» من حلقة مغلقة بين الماضي والمستقبل: المستقبل أنتج سببياً بأفعالنا في الماضي، في حين أن الطريقة التي نسلكها قد قوضت بتوقعنا للمستقبل ورد فعلنا لهذا التوقع:

الحدث الكارثي مكتوب في المستقبل كمصير، بالتأكيد، لكن أيضاً كحادث محتمل، لا يمكن له أن يحدث، حتى في المستقبل السابق future anterieur، يظهر كضرورة... إذا ما وقع حدث بارزأو كارثة، على سبيل المثال، لا يمكنها أن تحدث، مع ذلك، طالما أنه لم يحدث، إنها ليست حتمية. لهذا تحقيق الحدث، واقعة أنه يحدث التي تخترع رجعيا ضرورته[1].

إذا ما وقع حدث مصادفة فإنه يخترع السلسلة السابقة التي تجعله

(١) جان بيير دوبوي، petite metaphysique des tsunami, paris: seuil 2005, p19.



Twitter: @ketab_n

يظهر حتمياً، وليست أشياء مألوفة كيف الضرورة المخفية تعبر عن نفسها في ومن خلال اللعب لعبة الظهور بالمصادفة، إنها in nuce باختصار في الجدل الهيجيلي عن المصادفة والضرورة. بهذا المعنى وبالرغم من كوننا محكومين بالقدر، إلا أن لنا حرية اختيار مصيرنا. وفقا لدوبوي، أيضاً كيف علينا مقاربة الأزمة البيئية: ليس لتقدير «بواقعي» إمكانيات الكارثة، لكن لقبولها بوصفها قدراً، في معنى هيجيلي دقيقإذا ما حدثت الكارثة، يمكن للمرء القول أن حدوثها كان مقرراً قبل أن تحدث. المصير والتصرف الحر (لحجب الـ «إذا») لهذا نمضي يداً بيد: فالحرية في جذرها هي حرية تغيير مصير المرء.

هذا إذن ما يقترحه دوبوي لمواجهة المصيبة: علينا أولا إدراكها بوصفها قدرنا، ولا يمكن تجاوزها، ثم نقذف أنفسنا فيها متبنين وجهة نظرها، علينا أن ندخل رجعياً في ماضيها (ماضي المستقبل) (إذا ما فعلنا هذا وذاك، فالكارثة التي نعيشها الان ما كان لها أن تحدث!) عليه نتحرك اليوم. علينا قبول أن عند مستوى الإمكانيات مستقبلنا منكوب؛ لأن الكارثة ستحدث، إنها مصيرنا، وثم ضد خلفية هذا القبول حشد أنفسنا لأداء التحرك الذي سيغير المصير نفسه وبذلك إدخال إمكانية جديدة في الماضي. بشكل متناقض، الطريقة الوحيدة لمنع المصيبة هي قبولها بوصفها حتمية. بالنسبة إلى باديو أيضاً زمن الوفاء لحدث هو المستقبل السابق future anterieur: اجتياز نفسه وجهاً لوجه مع المستقبل، يتحرك المرء الآن كما لو أن المستقبل يريد إلى حيث هو الآن.


Twitter: @ketab_n

ما يعني أنه على المرء تأهيل فكرة التحرك المانع بجرأة (الضربة الوقائية)، أكثر انتهاكاً في «الحرب على الإرهاب»: إذا ما أجلنا تحركنا حتى نحصل على المعرفة الكاملة بالكارثة، فسيكون علينا اكتساب تلك المعرفة فقط عندما تكون متأخرة كثيراً. خلاصة القول: الحقيقة التي يعتمد عليها تحركنا ليست موضوع معرفة، بل مسألة غيمان: التحرك الحقيقي ليس تدخلاً استراتيجياً أبداً في حالة شفافة نملك فيها معرفة تامة، على العكس إن التحرك الحقيقي يملأ فجوة في معرفتنا. هذا التبصر يخفي المؤسسات نفسها «للاشتراكية العلمية»، مفهوم العملية التحررية المقادة بالمعرفة العلمية. اقترح باديو مؤخراً أن الوقت قد حان لإلغاء عقوبة أفلاطون للشعراء من المدينة وتشريع مصالحة الشعر والفكر. لكن ربما من وجهة نظر الدعم الحالي لعدد من الشعراء لـ» التطهير العرقي» (تحديدا رادوفان كارازيتش)، على المرء الاحتفاظ، تعزيز تخوف افلاطون من الشعر، وبالأحرى تصديق استراحة أخرى مع أفلاطون: بالتحديد، إحياء مفهومه عن ملوك الفلاسفة. على المرء فعل هذا ليس بحساب التحذير الليبرالي المعياري حول القادة «الشموليين» الذين يعرفون بشكل أفضل من الناس العاديين أنفسهم ما هو الخير بالنسبة إليهم، لكن من أجل سبب أكثر شكلية: الإشارة الى آخر كبير يضع القائد في موقف «الموضوع المفترض معرفته»، الموضوع الذي يعتمد نشاطه على معرفة كاملة (بقوانين التاريخ)، المعبر بذلك هو مفتوح للجنون، على سبيل المثال، الاحتفاء بستالين بوصفه لغوياً واقتصادياً وفيلسوفاً، في اللحظة التي


Twitter: @ketab_n

يسقط فيها الآخر الكبير لم يعد ممكناً للقائد أن يدعي بعلاقة صاحبة امتياز بالمعرفة، إنه يصبح أبلهاً كأي شخص آخر.

هذا ربما، هو الدرس الذي يستخلص من صدمات القرن العشرين: إبقاء المعرفة ووظيفة الفنان بعيدة قدر الإمكان. حتى المفهوم الليبرالي عن انتخاب الشعب للأكثر «أهلية» للقيادة ليس دقيقاً هنا. على المرء تتبع هذا الى النهاية والمصادقة على الرؤية الأساسية للديمقراطية القديمة: إن الخيار بالكثير هو الخيار الديمقراطي الوحيد حقيقة. لهذا اقتراح كوجين كاراتاني[1] بجمع الانتخابات مع اللوتري في تحديد من سوف يحكم أكثر تقليدية مما قد يظهر أولاً (هو بنفسه يشير إلى الإغريق القديمة) بشكل متناقض، إنها تنجز الوظيفة نفسها كنظرية هيجل عن الملكية. كاراتاني هنا يأخذ الخطر البطولي في اقتراح تعريف يبدو مجنوناً للفرق بين الديكتاتورية البرجوازية وديكتاتورية البروليتاريا: «إذا التصويت العالمي بالاقتراع السري، تحديدا في الديمقراطية البرلمانية، هو ديكتاتورية البرجوازية، مقدمة اليانصيب عليها أن تكون نكبت ديكتاتورية البروليتاريا»[2].

علام يمكننا أن نعتمد إذن؟ خلال الخمسينيات، المفكرين الذين

---

(١) فيلسوف ياباني وناقد أدبي.

(٢) كوجين كاراتاني، transcritique: on kant and marx, Cambridge, MA: MIT press 2003, p183.



Twitter: @ketab_n

كانوا زملاء سفر[1] شيوعيين أطاعوا بديهتين؛ الوضوح والتضمين، الأولى: مشهورة في الصيغة السارترية «المعادي للشيوعية كلب»، الثانية: ليس على المفكر أبداً تحت أي ظرف أن ينضم للحزب الشيوعي. وصف جان كلود ميلنر هذا السلوك بوصفه «الزينونية»[2]، مشيرا إلى مفارقة زينون عن أخيل والسلحفاة: رفيق السفر هو أخيل باحترام سلحفاة الحزب الشيوعي؛ لأنه حيوي وأسرع وقادر على اجتياز الحزب، ورغم ذلك يتلكأ دائما في الخلف، لا يلحق به أبداً في الواقع. انتهت هذه اللعبة مع أحداث عام ١٩٦٨، حدثت ال ٦٨ تحت راية «هنا والآن»، رغب أنصارها بالثورة الآن من دون أية تأجيلات، على المرء إما الانضمام الى الحزب أو معارضته (كما فعل الماويين). بمعنى اخر، أراد ثوار ال ٦٨ إطلاق العنان لنشاط جذري نقي جماهيري (بهذا المعنى، «الجماهير التي تصنع التاريخ» الماوي هو معارض للفاشية السلبية «الحشود»)، ليس هناك مكان آخر يمكن للمرء فيه تحويل هذا النشاط. اليوم، بأية حال، لتكون رفيق مسافر هو بلا معنى عملياً، طالما أنه ليس هناك حركة كبيرة في العلاقة مع ما قد يكون المرء له رفيقاً، ليس من سلحفاة تدعونا لنمثل دور أخيلها.

---

(١) Fellow-traveler: تشير إلى الشخص المتعاطف مع أفكار منظمة ما من دون أن يكون مشاركاً في عضويتها.

(٢) انظر: جان كلود ميلنر، l'arrogance du present: regards sur une decennia, 1965, 1967, paris: grasset 2009.



Twitter: @ketab_n

واحدة من موضوعات عام ١٩٦٨ التي ينبغي علينا إحياءها هي المعارضة المضللة للفعالية مقابل السلبية: فكرة أن الموقف السياسي «الأصيل» الحقيقي الوحيد هو نوع من المشاركة الفعالة الدائمة، لأن الشكل البدائي من «التحويل» هو الموقف السلبي الذي يحول الفعالية إلى أداة مفترضة لتمثيلي. ما يترصد هذه الفكرة هو سحر اليساري القديم مع الديمقراطية التشاركية «المباشرة»، مجالس «السوفييت» ـ على العكس من «التمثيل» فحسب، في الفلسفة حلل سارتر كيف أن معركة المجموع النشط أصبحت معظمة في (practico-inert) التطبيق العملي للبناء المؤسساتي. الاختبار الرئيس لكل حركة تحررية راديكالية، هو على العكس، إلى أي مدى يتحول على المستوى اليومي إلى ممارسات المؤسساتية practico-inert التي تكسب المكان المتنفذ عندما ينتهي تأجج النضال ويعود الناس إلى العمل كالعادة. ليس على نجاح الثورة أن يكون مدروساً برهبة رفيعة للحظاته المنتشية، لكن مع التغيرات التي يتركها الحدث الكبير عند مستوى كل يوم، اليوم الذي يلي التمرد.

ثمة جواب صحيح واحد على هؤلاء المفكرين اليساريين الذين ينتظرون بيأس وصول الأداة الثورية الجديدة القادرة على تحريض التحول الاجتماعي الراديكالي المتوقع منذ زمن طويل. إنه يأخذ شكل هوبي (شخص ينتمي لقبيلة الهوبي من الأمريكيين الأصليين) مسن يقول، بالتفافة هيجيلية رائعة من الجوهر إلى الموضوع:


Twitter: @ketab_n

«نحن من ننتظرهم». هذه نسخة من شعار غاندي: «كن أنت نفسك التغيير الذي تريد أن تراه في العالم»، انتظار شخص آخر ليقوم بالعمل لنا هو طريقة لتبرير سلبيتنا. لكن الفخ الذي تم تجاوزه هنا هو وسيلة ذاتية منحرفة: «نحن من ننتظرهم» لا يعني بأن علينا استكشاف كيف نكون، نحن الأداة التي كتب عليها القدر (الضرورة التاريخية) أداء المهمة، إنه يعني العكس تماماً، بالتحديد أنه ليس هناك آخر كبير نعتمد عليه. على عكس الماركسية الكلاسيكية، إذ التاريخ في صالحنا (تنجز البروليتاريا المهمة المقدرة لها في التحرر العالمي)، في الكوكبة المعاصرة الآخر الكبير هو ضدنا: اليسار لنفسه، التوجه الداخلي لتطورنا التاريخي يقود إلى الكارثة، إلى نهاية العالم، ما يمكنه لوحده أن يمنع مثل هذه الكارثة هو تطوعية نقية، بمعنى آخر، قرارنا الحر بالتحرك ضد الضرورة التاريخية. وجد البلاشفة أنفسهم في مأزق مشابه في نهاية الحرب الأهلية عام ١٩٢١: قبل سنتين من موته، عندما بدا واضحاً أنه لن يكون هناك ثورة أوربية عارمة وشيكة، وأن فكرة بناء الاشتراكية في بلد واحد كانت هراءً، كتب لينين:

ماذا لو أن اليأس الكامل للحالة بتحفيز جهود العمال والفلاحين عشرة أضعاف، يقدم لنا الإمكانية لخلق متطلبات أساسية للحضارة بطريقة مختلفة عن تلك التي للبلدان الغربية الأوربية؟[١].

(١) ف.إ.لينين، الأعمال الكاملة، المجلد ٣٣، موسكو، دار التقدم للنشر، ١٩٦٦، ص ٤٧٩.



Twitter: @ketab_n

أليس هذا مأزق مورواليس في بوليفيا، حكومة اريستيد[1] في هاييتي، والحكومة الماوية في نيبال؟ لقد أتوا إلى السلطة عبر انتخابات ديمقراطية «عادلة» وليس عبر تمرد، لكنهم مارسوا الحكم بطريقة كانت (جزئياً، على الأقل) «ليست أمريكية»: بالتعبئة المباشرة لقواعد داعميهم وبتجاوز شبكة تمثيل الحزب والدولة. حالتهم يائسة «بموضوعية» فالانجراف الكلي للتاريخ بشكل أساسي ضدهم، ولا يمكنهم الاعتماد على «ميول موضوعية»، كل ما يمكنهم فعله هو الارتجال، فعل ما بإمكانهم في حالة يائسة. مع ذلك، ألا يعطيهم هذا حرية فريدة؟ قد يغرى المرء هنا بتطبيق الامتياز القديم بين «الحرية من» و«الحرية لأجل»: أليست حريتهم من التاريخ (بقوانينه وميوله الموضوعية) لا تسند حريتهم من أجل تجريبية إبداعية؟ في نشاطهم، يمكنهم الاعتماد فقط على الإرادة الجمعية لداعميهم.

يمكننا الاعتماد على حلفاء غير متوقعين في هذا النضال. مصير فيكتور كرافشينكو الديبلوماسي السوفيتي الذي ارتد في عام ١٩٤٤في نيويورك ثم كتب مذكراته الشهيرة الأكثر رواجاً، اخترت الحرية ـ يستحق الذكر هنا[2]. كان كتابه أول تقرير لشخص كبير عن رعب الستالينية، يبدأ برواية مفصلة عن الكولخوزات القسرية

(١) جان برتراند اريستيد: كاهن كاثوليكي هاييتي سابق، أول رئيس منتخب ديمقراطياً في هاييتي.

(٢) انظر: وثائقي مارك جوناثان هاريس الرائع عن كرافشينكو، المرتد، ٢٠٠٨.



Twitter: @ketab_n

وجموع جائعة في أوكرانيا، حيث كرافشينكو نفسه في بداية الثلاثينات ـ لا زال مؤمناً حقيقياً بالنظام ـ شارك في فرض الكولخوزات بالقوة. تنتهي القصة الأكثر شهرة حوله في عام ١٩٤٩، عندما انتصر في المحاكمة المهمة في وجه متهميه السوفييت في باريس، الذين جلبوا زوجته السابقة إلى المحكمة لتشهد على فساده، إدمانه للكحول، وتسجل العنف المنزلي. ما هو أقل شهرة أنه حالا بعد انتصاره ـ في حين أنه كان مرحباً به حول العالم كبطل الحرب الباردة ـ أصبح كرافشينكو قلقاً جداً حول مطاردة المكارثية للشيوعيين واحداً واحداً، وحذر أنه باستعمال مثل هذه المناهج لقتال الستالينية أمريكا في خطر تام من أن تصبح أكثر شبهاً بمعارضتها. هو أيضاً أصبح أكثر فأكثر واعياً لعدم عدالة الديمقراطيات الليبرالية، وتطورت رغبته برؤية التغيرات في المجتمع الغربي لتصبح هاجساً. بعد كتابة التكملة الأقل شهرة لكتابه اخترت الحرية، المعنونة بشكل لافت اخترت العدالة، شارك كرافشينكو في حملة عنيفة لإيجاد نموذج جديد أقل استغلالاً من الإنتاج المنظم. مما قاده إلى بوليفيا حيث حرث أمواله في تنظيم المزارعين الفقراء في تجمعات جديدة. مسحوقاً بفشل هذه المساعي، انسحب نحو العزلة وأخيراً قتل نفسه في منزله في نيويورك. انتحاره كان نتيجة ليأسه وليس نتيجة ابتزاز من الكي جي بي، والبرهان على ذلك أن شجبه للاتحاد السوفيتي كان تصرفاً أصيلاً من محتج ضد الظلم.


Twitter: @ketab_n

يظهر اليوم الكرافشيون الجدد في كل مكان، من أمريكا إلى الهند والصين واليابان، من أمريكا اللاتينية إلى إفريقيا، من الشرق الأوسط إلى أوربا الغربية والشرقية. إنهم متفاوتون ويتكلمون لغات مختلفة، لكنهم ليسوا قلائل كما قد يظهر، والخوف الأعظم من قبل الحكام هو أن هذه الأصوات ستبدأ بالدوي وتعزز بعضها الآخر بتكافل. هؤلاء الفاعلون يدركون أن الدخلاء يجذبوننا نحو الكارثة، وجاهزون للتحرك بمواجهة كل الدخلاء. مخيبين بشيوعية القرن العشرين، هم جاهزون «ليبدؤوا من البداية» ويعيدوا اختراعها على قواعد جديدة. منتقص قدرهم من قبل الأعداء بوصفهم طوباويين خطرين، هم الناس الوحيون الذين لديهم الصحوة الحقة من الحلم الطوباوي الذي احتجز أغلبنا تحت تأثيره. إن أملنا الوحيد ليس هؤلاء التواقين إلى «الاشتراكية الموجودة» للقرن العشرين.

الواقعة عن أن دولوز كان قبل وفاته في منتصف كتابة كتاب عن ماركس، لها دلالة واسعة النطاق. كان شائعاً في الماضي المسيحي أن يعود الناس الذين عاشوا حياة فاسقة إلى الملجأ الآمن للكنيسة في شيخوختهم، فهم بهذا قد يموتون وهم متصالحون مع الله. يحدث اليوم شيء ما مشابه مع الكثير من اليساريين المعادين للشيوعية الذين عادوا إلى الشيوعية في سنواتهم الأخيرة كما لو أنهم بعد حياة من الخيانة الفاسدة، يريدون أن يموتوا متصالحين مع الفكرة الشيوعية. كما مع المسيحيين المسنين، هذه المحادثات


Twitter: @ketab_n

الأخيرة تحمل الرسالة الأساسية نفسها بأننا قضينا حياتنا ثائرين عبثاً ضد ما كنا قد عرفنا طوال الوقت أنه الحقيقة في صميم أنفسنا. لذا، عندما يمكن لمعاد كبير للشيوعية حتى مثل كرافشينكو في إحساس أكيد العودة لإيمانه، يجب أن تكون رسالتنا اليوم: لا تكن خائفاً، انضم إلينا، عد! لقد حصلت على تسليتك في معاداة الشيوعية، وأنت مسامح عليها، حان الوقت لتكون جاداً مرة أخرى!



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

# الفهرس


تقديم: دروس العقد الأوّل ..... ٥

**الفصل الأوّل: إنها الأيديولوجيا، يا مغفل!** ..... ١٧

١ ـ الاشتراكية أو الرأسمالية؟ ..... ١٧

٢ ـ الأزمة كعلاج بالصدمة ..... ٣٠

٣ ـ بنية دعاية العدو ..... ٤٤

٤ ـ الإنسان، الجميع إنسان أيضاً ..... ٦٠

٥ ـ الرّوح الجديدة للرأسماليّة ..... ٨٢

٦ ـ بين فيتيشتين ..... ١٠٢

٧ ـ الشّيوعيّة مجدّداً ..... ١٢٠

**الفصل الثّاني: الفرضيّة الشيوعيّة** ..... ١٣٣

١ ـ الفهم الجديد للمشاعات ..... ١٣٣

٢ ـ الاشتراكيّة أو الشّيوعيّة؟ ..... ١٤٦




Twitter: @ketab_n

٣ ـ الاستعمال العام للعقل ..... ١٦٠
٤ ـ في هاييتي ..... ١٦٩
٥ ـ الاستثناء الرأسمالي ..... ١٩٠
٦ ـ الرأسماليّة بقيم آسيويّة في أوربا ..... ٢٠٠
٧ ـ من الرّبح إلى الأجر ..... ٢١٠
٨ ـ نحن من ننتظرهم ..... ٢٢٤



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

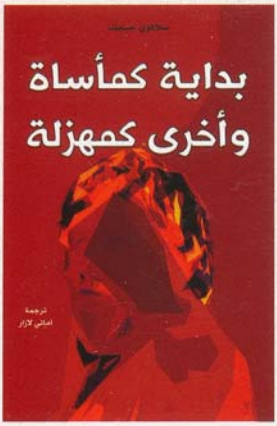


القصد من عنوان هذا الكتاب أن يكون اختباراً أوليّاً لذكاء القارئ ولا سيّما إذا ما استدعى الانطباع الأوّل الكليشيه (cliché) الدارجة المعادية للشّيوعية «أنت على حق اليوم، بعد مأساة شمولية القرن العشرين لا يمكن لأي كلام عن العودة إلى الشيوعية إلا أن يكون هزليّاً!»، ثم إني أنصحك بصدق أن تتوقّف هنا، يجب مصادرة الكتاب منك بالقوة؛ لأنّه يتعامل مع مأساة ومهزلة مختلفتين كليّاً، تحديداً الحدثان اللذان يشيران إلى بداية ونهاية العقد الأوّل من القرن الحادي والعشرين: هجمات ١١ أيلول ٢٠٠١ والانهيار المالي في عام ٢٠٠٨.

للثقافة والنشر والإعلام